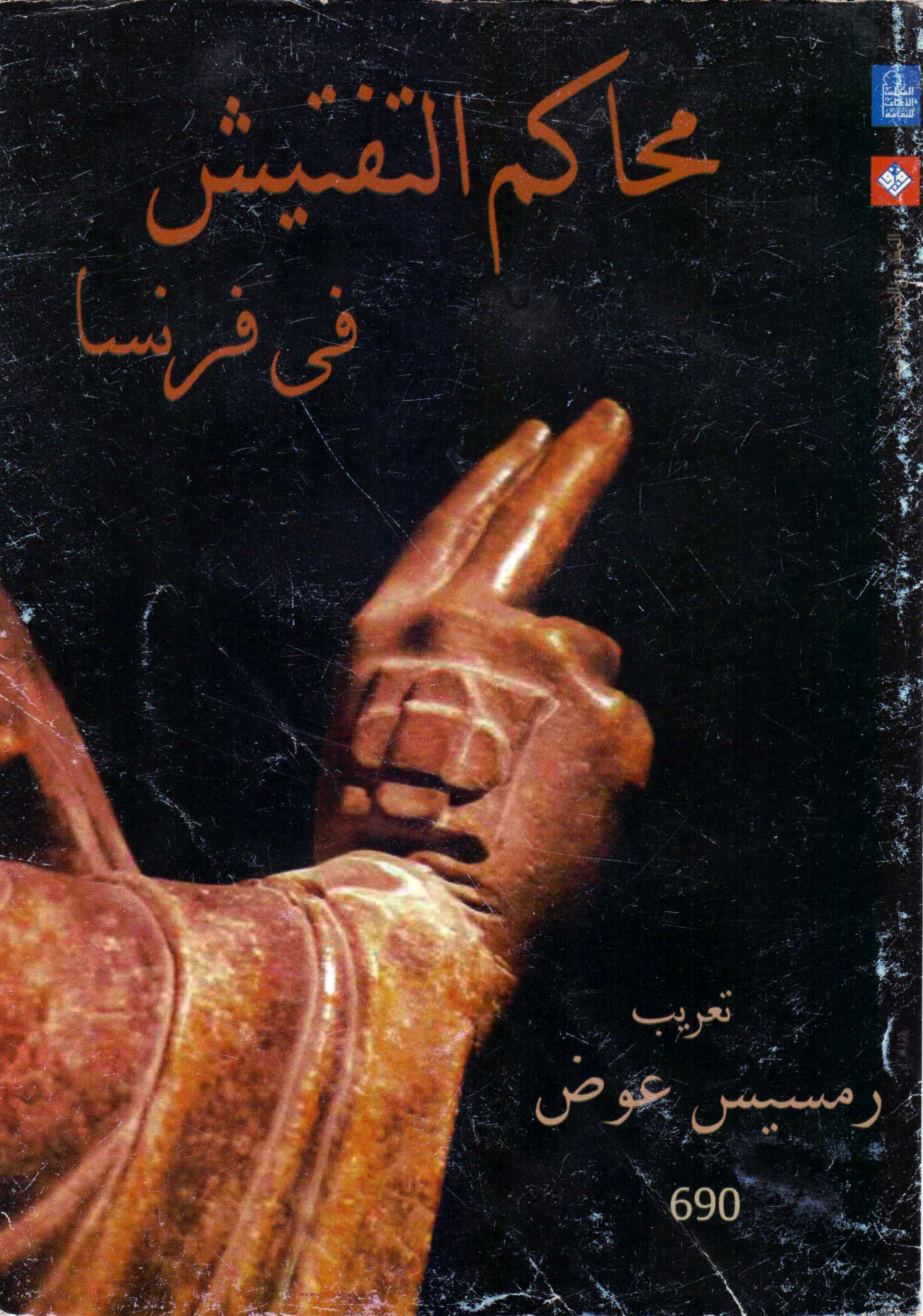

محاكم التفتيش
فى فرنسا
تعريب
رمسيس عوض
690





محاكم التفتيش

فى فرنسا

فكر ريموند السادس (ونت تولوز) فى الانحناء أمام العاصفة بالانضمام إلى صفوف الحملة الصليبية بغية إرضاء الكنيسة باضطهاد عدد من المهرطقين. ورأى فى ذلك حماية لنفسه ومملكته من أى تدخل خارجى. وشجعه على اتباع هذه السياسة أن الكنيسة وعدت بحماية ممتلكاتهم فى الحفظ والصون، وفى مأمن من المصادرة.

حول الحملات الصليبية الألبيجانسيانية وغيرها يدور كتاب محاكم التفتيش فى فرنسا.

الغلاف عمرو الكفراوى

المشروع القومى للترجمة

محاكم التفتيش فى فرنسا

تعريب : رمسيس عوض



٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٦٩٠
- محاكم التفتيش فى فرنسا
- تعريب : رمسيس عوض
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة مختارات من
محاكم التفتيش فى فرنسا

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084.

الفهرس

الفصل الأول

الحملات الصليبية الألبيجانسيانية

الحملة الأولى بيزييه وكاركاسون : Beziers - Carcasonn

كان من السهل على قوات الشمال الفرنسى مهاجمة أمراء أوكيتانيا Occitania فى الجنوب بسبب افتقارهم إلى الوحدة والتماسك . ومن جانبهم حشد سكان الجنوب جيشا للتصدى للهجوم الذى يتعرضون له ، وتضايق سكان أوكيتانيا ضيقًا شديدا من وجود الفرنسيين الغزاة بين ظهرانيهم ، واحتدم من جديد التنافس القديم بين ريموند كونت تولوز وغريمه فيكونت بيزييه حيث شعر كل منهما بأن الآخر يتربص به الدوائر .

وفكر ريموند السادس كونت تولوز فى الانحناء أمام العاصفة بالانضمام إلى صفوف الحملة الصليبية بغية إرضاء الكنيسة باضطهاد عدد من المهرطقين ، ورأى فى ذلك حماية لنفسه ومملكته من أى تدخل خارجى ، وشجعه على اتباع هذه السياسة أن الكنيسة وعدت بحماية ممتلكات كل من يشترك فى الحروب الصليبية . وفكر كونت تولوز لو أن جميع حكام أوكيتانيا انضموا إلى صفوف الصليبيين لأصبحت كل ممتلكاتهم فى الحفظ والصون وفى مأمن من المصادرة . ولو كان الأمر بيد البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) وحده لنجحت خطة كونت تولوز البارعة، ولكن أعوان البابا مارسوا ضغطًا شديدا عليه حتى لا يثق بعهود حكام أوكيتانيا ، وخاصة لأن كونت تولوز كان يعطيهم من طرف اللسان حلاوة دون أن ينفذ أيًا من وعوده . وكان أرنود أمورى أكثر أعوان البابا تشككا فى نوايا كونت تولوز . ولكن

هذا الكونت كان غافلا عن حقيقة المشاعر المعادية له داخل الكنيسة . واقترح أن يتحالف مع غريمه فيكونت بيزييه، ولكن الفيكونت رفض التحالف معه ؛ الأمر الذى اضطره إلى التصرف بمفرده ، ولهذا سعى إلى التصالح مع الكنيسة بغية حماية أملاكه من المصادرة . وكان كونت تولوز على أية حال يدرك أن المفوض البابوى فى أوكيتانيا لا يثق به ، ولهذا طلب من البابا تعيين مفوض آخر يستطيع التفاوض معه واعداً الكرسى البابوى بتنفيذ كل مطالبه .

واستجاب البابا لطلب الكونت تولوز بناء على حسابات سياسية رأى أنها فى صالحه ، فعين ميلو مفوضا بابويا بدلا من أمورى ولكنه أمره بالانصياع لأوامر أمورى فى كل شىء . ولم يعلق البابا أهمية كبيرة على إخلاص كونت تولوز وصدقه ؛ فهو فى حالة صدقه سوف يتخلى عن حماية جماعات كبيرة من المهرطقين ، وحتى فى حالة ختله وخداعه فإن الكنيسة سوف تستفيد من تظاهره بالخضوع لها لأن مثل هذا التظاهر سوف يمنعه من مقاومة الحملة الصليبية ، وهذا بدوره سوف يؤدى فى النهاية إلى إضعاف جبهة الأمراء الآخرين المارقين والذين يوفرون الحماية للمهرطقين . وبذلك يسهل على الكنيسة الانفراد بكونت تولوز والقضاء عليه ، ونصح البابا أعوانه باتباع سياسة عزل حماة المهرطقين وتفتيتهم حتى يسهل على الكنيسة القضاء عليهم الواحد تلو الآخر . يقول البابا فى رسالة وجهها إلى مفوضيه بهذا الشأن : لا تبدأوا بالهجوم على كونت تولوز طالما أنه لا يندفع بنزق إلى الدفاع عن الآخرين . كونوا حكماء وأخفوا نواياكم . اتركوه وشأنه فى البداية حتى تتمكنوا من مهاجمة من يصرحون بتمردهم عليكم ؛ فلن يكون من السهل علينا سحق أعداء الله لو أننا أعطيناهم فرصة الاتحاد فى سبيل الدفاع المشترك ، وفى الناحية الأخرى سيكون من السهولة بمكان سحقهم طالما أن الكونت لا يساعدهم ، وربما ينصلح حاله إذا رأى المصائب تترى على رءوسهم . ولكنه إذا لم يرعوِ واستمر فى مخططاته الشريرة وهو معزول ويستند إلى قواته الخاصة فحسب فسوف نتمكن من دحره دون كثير من المتاعب .

وفى المقابل سعى كونت تولوز إلى الاستفادة من سياسة البابا أنوسنت الثالث، فقد أثلج صدره أن يرى الحملة الصليبية تخضع الحكام الذين يشقون عصا الطاعة

عليه ويخلقون له المشاكل وعلى رأسهم ريموند روجر فيكونت بيزييه ، وخاصة لأن التجربة دلته على أن أية حملة صليبية تبدأ قوية فى حينها ، ثم لا تلبث أن يعتريها الضعف والوهن . وطبقا لتقديرات كونت تولوز فإن غريمه فيكونت بيزييه لن يستطيع الصمود أمام الحملة الصليبية أكثر من عام ينفرط بعده عقد الحملة الصليبية ويتلاشى حماسها فتعود من حيث أتت إلى الأراضى الفرنسية وبذلك يسهل عليه الاستيلاء على ممتلكاته وابتلاع منطقة ترينساخل .

أظهر كونت تولوز تصميما على التصالح مع الكنيسة مهما كان الثمن . ومن أجل هذا اعترف بفشله فى مراعاة أيام الأعياد الكنسية كما اعترف بحمايته للهرطقة. وحتى يثبت نواياه الحسنة قام بتسليم قلاعه السبع إلى الكنيسة . وفى ١٨ يونية ١٢٠٩ اضطلع المفوض البابوى ميلو بتعنيفه تعنيفا شديدا . وفى اليوم التالى أمسك كونت تولوز بالصليب واعدا بتقديم العون للحملة الصليبية قدر استطاعته .

وفى الوقت نفسه بدأت الحملة الصليبية مسيرتها حيث إنها غادرت مدينة ليون يوم ٢٤ يونيه ١٢٠٩ لتصل فى ٢٠ يوليو من العام نفسه إلى مدينة مونبلييه وهى معقل مهم من معاقل المذهب الكاثوليكى فى الجنوب . وبسبب إعلان كونت تولوز عن ولائه المطلق للكنيسة الكاثوليكية ، وجهت الحملة الصليبية أهدافها العسكرية نحو أراضى فيكونت بيزييه ريمون روجر الذى عرف بسمعته السيئة فى حماية المهرطقين شأنه فى ذلك شأن كونت تولوز نفسه ، فضلا عن أن فيكونت بيزييه وفر الحماية لكثير من المهرطقين الكاثاريين . وانسحب ريموند روجر إلى كاركاسون أكثر مدنه تحصينا . ولكن مدينة بيزييه التى انسحب منها كانت محصنة تحصينا كافيا الأمر الذى جعل سكانها واثقين فى قدرتهم على مقاومة الحصار الذى فرضته الحملة الصليبية عليهم . وساعدهم على هذه المقاومة احتقارهم العظيم للكنيسة إلى جانب غيرتهم الشديدة على استقلالهم عنها لفترة طويلة ، وظهرت هذه الثقة بالنفس عندما تحدوا أسقفهم رينو دى مونتبيروكس عندما رفضوا تسليم ٢٢٢ مهرطقا كاثاريا ووالد نسيانيا نظير عدم إلحاق الأذى بمدينتهم حيث إنهم اعتبروا الحملة الفرنسية الصليبية وليس الهراطقة تمثل الخطر الحقيقى عليهم .

وهكذا تصدت مدينة بيزييه للحملة الصليبية القادمة من الشمال الفرنسي وقاومتها بشدة . ولو أن سكان بيزييه تحملوا الحصار المفروض عليهم لفترة أطول لدب التعب فى أوصال المهاجمين ولعادوا أدراجهم . ولكن بعض سكان بيزييه تسرعوا وخرجوا من مدينتهم للقاء المهاجمين فاستطاع المهاجمون دحرهم وردهم على أعقابهم وما أن دخل الصليبيون بيزييه حتى ارتكبوا فيها مجازر شنيعة وهائلة هلك فيها الكاثوليك والهراطقة والرجال والنساء والشيوخ والأطفال على حد سواء . وأبلغ المفوض أرنولد أمورى والفرحة تملأ قلبه الكرسى البابوى بمقتل نحو عشرين ألف شخص فى هذه المجزرة . ومن المحتمل أن يكون هذا الرقم مبالغا فيه ولكن من المذهل أن نرى المفوض البابوى يعبر عن جذله لمقتل هذا العدد الهائل من الناس. والغريب أيضا أن القيادة الأرستقراطية لهذه الحملة الصليبية لم تستبشع هذه المجازر فى حين إنها استبشعت بل تدخلت لوقف أعمال السلب والنهب باعتبارها منافية لسلوك الأشراف والنبلاء . وهكذا انتصرت الحملة الصليبية على المهرطقين فى بيزييه ، فقررت المضى إلى كاركاسون التى استسلم حكامها للكنيسة وطلبوا منها أن تشملهم برعايتها .

وبسبب هذه الانتصارات الصليبية الكاسحة تعهد سكان المدينة الكبيرة ناربون باتخاذ الإجراءات الصارمة ضد المهرطقين . وتعبيرا عن ولائهم للكنيسة قام كثير من نبلاء ناربون بتسليم قلاعهم وممتلكاتهم إلى الجيش الظافر ، وهرب البعض إلى الجبال يحتمون بها . والجدير بالذكر أن كاركاسون لم تسقط فى يد الصليبيين بسبب تحصيناتها الجيدة ولكن لسوء حظها حاصرتها قوات الحملة فى أيام القيظ الشديد فلم تستطع مواصلة المقاومة بسبب نفاد مخزون مياه الشرب لديها . والجدير بالذكر أيضا أن الأمر انتهى بريمند روجر حاكم بيزييه إلى الاستسلام فتم أسره وظل حبيسا فى الأسر حتى وافته المنية بعد شهور قلائل . وكان مصير بيزييه فى هذه الحرب أسوأ من مصير كاركاسون فقد سمحت الحملة الصليبية لجميع سكان كاركاسون بالرحيل عنها دون التعرض للأذى بعد تسليم أراضيهم وممتلكاتهم للكنيسة . . وغنى عن الذكر أن هذا العفو شمل المهرطقين الكاثاريين . أما فى

حـالة بيزييه فإن الحملة لم تسمح بالرحيل لغير ريموند روجر واثنى عشر من أتباعه . وعلى أية حال كان ريموند روجر حاكم بيزييه فى كاركاسون عندما سقطت بيزييه فى أيدى الصليبيين .

وبعد سقوط بيزييه وكاركاسون فكرت قيادة الحملة أن تعهد إلى دوق بيرجندى وكونت نيفير وسانت بول . بتولى مقاليد الحكم فى هاتين المدينتين ولكنهم اعتذروا عن عدم اضطلاعهم بهذه المهمة المشرفة ، فوقع اختيار الحملة على ضابط صنديد أبلى بلاء حسنا فى محاربة المهرطقين فى كاركاسون وأظهر ولاءً شديدا لكنيسة سيمون دى مونتفورت Simon de Monfort كان سيمون يجمع بين الطموح والواقعية فقد أدرك منذ البداية أن الحملة الصليبية سرعان ما سوف يعتريها الوهن وينفرط عقدها عقب سقوط مدينتى بيزييه وكاركاسون كما أدرك أن هاتين المدينتين تمثلان جزءًا ضئيلا من أراضى ترنسافل التى يتعين عليه الاستيلاء عليها . فضلا عن أنه أدرك أنه فرنسى غريب من أهل الجنوب الذين لن يقبلوه حاكما عليهم . وأظهر سيمون دى مونتفورت ترددا فى قبول هذه المهمة . ولكنه اضطر إلى قبولها تحت ضغط شديد من الكنيسة . وكما توقع سيمون القائد المحنك ، انفرط عقد الحملة الصليبية حيث عاد إلى بلادهما كل من دوق بورجندى وكونت نيفير تاركين برفقة سيمون نحو ثلاثين فارسا وعددا ضئيلاً من الجنود المرتزقة .

كان شتاء عام ١٢٠٩ - ١٢١٠ بشير خير كما كان نذير شؤم على سيمون ، ففى بداية الشتاء توغل سيمون فى منطقة ترانسافل ونجح فى الاستيلاء على مدينتى ليموكس فى جنوب أوكيتانيا وألبى فى شمالها دون أية مقاومة تذكر . وفى طريقه الظافر استسلم له كثير من المدن الصغيرة . ولحسن حظ سيمون توفى فى سجنه حاكم بيزييه المعزول ريموند روجر ، فآلت جميع أملاكه إلى سيمون دى مونتفورت عن طريق شرائها من أرملة ريموند روجر وابنه الرضيع .

ولكن الحظ الذى ابتسم له سرعان ما تبدل ، فقد أخذت المدن التى استسلمت له فى التمرد عليه كما أنه تم قتل وأسر الكثيرين من القواد الموالين له . فعلى سبيل المثال قام كونت فوا باسترجاع إحدى القلاع التى كان قد سلمها إلى سيمون .

والتفت سيمون من حوله فوجد نفسه يقود جيشا صغير العدد يحاصره المتمردون فى كل جانب ، وتتضح لنا مشكلات سيمون فى خطاب أرسله إلى البابا جاء فيه ما يلى : « إن النبلاء الذين اشتركوا فى الحملة الصليبية تركونى بمفردى تقريبا يحيط بى أعداء يسوع المسيح من كل جانب ويحتلون الجبال والتلال . وليس فى استطاعتى أن أحكم هذه البلاد لمدة أطول إلا بمساعدتكم ومساعدة المؤمنين المخلصين . إن الحرب وويلاتها أصابت البلاد بالفقر المدقع كما أن الهراطقة الذين خربوا ودمروا وتخلوا عن بعض قلاعهم لا يزالون يحتفظون بقلاع أكثر تحصينا وينوون الذود عنها . ويتعين على أن أدفع إلى الجنود الذين يبقون معى رواتب أكبر من الرواتب التى أدفعها فى الحروب الأخرى . وإنى لم أتمكن من الاحتفاظ ببعض هؤلاء الجنود إلا بعد أن دفعت لهم ضعف رواتبهم ».

ولولا تفكك جنود المقاومة فى أوكيتانيا وشدة مؤازرة الموالين له لما تمكن سيمون دى مونتفورت من الاحتفاظ بإحدى القلاع الأساسية والتخفى فيها لحين انصرام فصل الشتاء وحلول فصل الربيع . وفى الربيع حضرت زوجته أليس وأمدته بتعزيزات إضافية كان لها الفضل فى ترجيح كفته على المناوئين له فقد نجح فى إخماد التمرد المندلع ضده واستعادة المواقع التى خسرها .

وفى عام ١٢٠٩ نجح سيمون فى الاستيلاء على قلعة برام التى احتمى فيها عدد ممن حنثوا بوعود ولائهم له كما أن أحد أفراد الكتيبة غدر به ومكن أعداءه من الاستيلاء على قلعة مونتريال فأمر سيمون بشنق هذا الكاذب الغادر كما قام بفقء العيون وقطع الأنوف والشفاه العليا لكل أفراد الحامية التى تمكن من التغلب عليها . ولكنه اكتفى وفقأ عينًا واحدة لواحد منهم لاستخدامه مرشدا كى يدله على الطريق إلى قلعة كابارية التى لم تكن قد سقطت بعد فى يد سيمون . والجدير بالذكر أن تقطيع أوصال الأعداء وفقء عيونهم سياسة اتبعها من قبل كل من ريتشارد قلب الأسد وفيليب أوغسطس . والجدير بالذكر أيضا أن معاملة سيمون للحاميات المعادية الأخرى التى انتصر عليها كانت أقل قسوة ووحشية . وعلى أية حال يبدو أن هذه المعاملة الوحشية لأسرائه المهزومين جعلت منهم عبرة للاخرين ودفعتهم إلى الاستسلام له من أجل الحفاظ على حياتهم وأطرافهم من البتر .

وهكذا استطاع سيمون فى ربيع وصيف عام ١٢١٠ أن يستعيد كل ما نجح أعداؤه المتمردون فى الاستيلاء عليه بدون مقاومة تذكر ، ثم ضم إليه فلقتين جديدتين هما مينرفا ونرميس . وبوجه عام أطلق سيمون هذه المرة سراح أسراه من المهرطقين ولكن المفوض البابوى أرنود أمورى أصر على إنزال العقاب بزعماء التمرد الذين خيروا بين التراجع عن هرطقتهم أو الموت حرقا فتراجعت ثلاث نساء عن هرطقتهن فى حين اختار أكثر من مائة وأربعين مهرطقا الموت حرقا ، بل إنهم قفزوا داخل النار المضرمة بمحض إرادتهم .

ورغم أن سيمون استولى على قلعتى مينرفا وسيمون بشق الأنفس ، فإن سقوطهما فى يده قضى قضاء مبرما على كل مقاومة ضده . وإذا كان جنوب أوكيتانيا قد أظهر مقاومة فإن شمالها استسلم دون مقاومة . والجدير بالذكر أن مدينة ألبى لم تشهد أى قتال عنيف فيها أو حولها بسبب حنكة أسقفها الذى استطاع الاحتفاظ بعلاقة ودية بكل من سيمون وأهالى ألبى . ورغم ذلك صمم المهرطقون المتشبثون بهرطقهم فى ألبى على الاحتماء بالجبال الواقعة فى جنوب أوكيتانيا وخاصة فى المنطقة الممتدة من تولوز إلى جبال البيرنيز . وشجعهم على هذا الرحيل الجماعى أن أحد نبلاء ألبى وفر لهم الحماية . وإذا كانت الحملة الصيلبية لم تقتلع كافة الهرطقات من منطقة ألبى وألبيجوا Albigeois فقد نجحت محاكم التفتيش فى نهاية المطاف فى استئصالها جميعا .

وقوع كونت تولوز ريموند السادس فى المصيدة :

فى وقت باكر من عام ١٢١١ استتبت مقاليد الأمور لسيمون دى مونتفورت وأصبح الحاكم الشرعى لأوكيتانيا .

ولكن الكنيسة ظلت تواجه بعض المشاكل الخطيرة رغم كل الانتصارات التى أحرزها سيمون دى مونتفورت ، فقد ظل عدد الهراطقة كبيرا بسبب تسامحه معهم ، فضلا عن أن كونت تولوز ريموند السادس الذى تشككت الكنيسة فى حقيقة نواياه

ظل يحتفظ بجزء كبير من أوكيتانيا . ومن ناحيته خشي سيمون أن يحاول كونت تولوز استعادة ما فقده من ممتلكات ، وكانت السلطة الكنسية شديدة الاقتناع بأن الهرطقة سوف تستمر طالما استمر كونت تولوز ريموند السادس فى أوكيتانيا ؛ ولهذا بادر سيمون بالهجوم عليه بمباركة البابا وأتباعه رغم أنهم كانوا يتفاوضون للوصول إلى اتفاق معه . وتشككت الكنيسة فى تواطؤ كونت تولوز على اغتيال بيير دى كاستلنو ولكن الكنيسة لم تستطع أن تقيم الدليل على صحة شكوكها . وأيضا كانت الكنيسة تشتبه فى هرطقته دون أن تتمكن من إثبات هذه التهمة عليه إلى جانب تسامحه مع المهرطقين . وعلى أية حال فقد فعل سيمون دى مونتفورت الشيء نفسه حيث إنه ترك معظم المهرطقين الكاثاريين وشأنهم مكتفيا بحرق زعاماتهم التى وقعت فى يديه . ومن نافلة القول أن نذكر أن الحملات الصليبية الألبيجنسانية فشلت فى سحق الهرطقة المتفشية فى جنوب فرنسا ، ورغم ذلك فلا شك أنها مهدت الطريق أمام محاكم التفتيش للقضاء عليها .

وبسبب تشكك الكنيسة فى أمر كونت تولوز ألحت عليه أن ينشط فى التصدى للمهرطقين وأن ينفذ وعده باستئصال شأفتهم . وتحت وطأة الضغوط التى مارستها الكنيسة عليه سافر إلى باريس شاكيا إلى ملكها فيليب أوغسطس من كثرة تدخل الكنيسة فى شئونه ، ولكن الملك اكتفى بحسن استقباله دون أن يستجيب له ، حيث إنه لم يرغب فى توريط نفسه فى شئون الجنوب . ثم سافر ريموند السادس كونت تولوز إلى روما فى باكورة عام ١٢١٠ لمقابلة البابا الذى أحسن وفادته دون أن يؤازره حتى لا يغضب كرادلته منه .

وأسقط فى يد كونت تولوز فسعى إلى التفاهم المباشر مع سيمون لإنهاء المشكلة ، غير أن جهود التصالح باءت جميعها بالفشل . والجدير بالذكر أن مفوضى البابا أسهموا فى إفشال الجهود الرامية إلى التوفيق بين هذين الخصمين وحالوا دون تصالحهما ، حيث إنهم أرادوا إذلال كونت تولوز ووضعه تحت رحمتهم تماما ، كما أنهم أصروا على قيام كونت تولوز بطرد المهرطقين من أراضيه ، ولكنه كرر رفضه ذلك مما جعلهم يوجهون إليه إنذارا بنزع سلاحه والسماح لسيمون بدخول أراضيه كى يتمكن

من طرد المهرطقين . وأيضا اشترط الإنذار أن يحتفظ ريموند السادس بلقبه وجانب من دخله نظير أن يتولى سيمون إدارة دفة الحكم فى بلاده . ورأى ريموند أن هذه الشروط مهينة فغادر الاجتماع فى غضب فاستصدرت الكنيسة فى ٦ فبراير ١٢١١ أمرا بفرض الحظر الكنسى عليه . وفى ١٧ أبريل من هذا العام اعتمد البابا أنوسنت الثالث هذا الحظر وأمر مندوبيه بالاستيلاء على أراضى ريموند السادس ، وهكذا أصبح الطريق أمام سيمون معبدا لبدء مرحلة ثانية من الحملة الصليبية بدأت بشن هجوم على آخر معقلين فى أراضى ترنسانيل وهما قلعة كاباريه وقلعة لافور . وفى حين سقطت كاباريه فى يد سيمون بدون مقاومة ظلت لافور القريبة من تولوز تقاوم حتى شهر مايو ١٢١١ . ولعب أسقف لافور الجديد دورا فى هذه الحرب التى شنها سيمون حيث إنه شجع مئات المقاتلين من تولوز على الانضمام إلى جيشه الذى كان يحاصر لافور فتصدى لهم المهرطقون المحاصرون غير أن كونت تولوز اتخذ موقفا مذبذبا ومترددا فى هذا الصراع الأمر الذى أوغر صدر الكنيسة ضده .

شن سيمون دى مونتفورت هجوما عاتيا على قلعة لافور وعلى قائد حاميتها الغادر أيمرى مونتريال . وبعد نجاح سيمون فى اقتحام القلعة قام بشنق قائدها وتنفيذ حكم الإعدام فى ثمانين فارسا مهرطقا من المدافعين عنها . وبلغت قسوة سيمون دى مونتفورت ذروتها حين قام بإلقاء سيدة القلعة المهرطقة الكاثارية جيرالدا فى بئر ثم هال عليها كومة من الحجارة حتى أخمد أنفاسها ، وفى الوقت نفسه تم إحراق ما يقرب من أربعمائة زعيم من زعماء الهرطقة . ورغم القضاء على كل هذا العدد الكبير من المهرطقين فإن ذلك لم يضعف شوكتهم كثيرا حيث إنهم غيروا تكتيكاتهم ووجدوا البديل فى التحصن فى المدن .

ونتيجة مجزرة لافور استسلم لسيمون عدد كبير من المدن والقلاع فى إقليم تولوز . وخطط سيمون لمحاصرة مدينة تولوز ، غير أنه تعجل فى الهجوم عليها تحت ضغط من المفوض البابوى أرنولد أمورى وأسقف فولك فارتكب بذلك خطأ إستراتيجيا فتولوز ليست بيزييه أو كاركاسون ، بل هى واحدة من أكبر مدن أوكيتانيا ويبلغ عدد سكانها ربع مليون نسمة . ورغم التعزيزات التى وصلت إلى سيمون فى فصل

الصيف فقد فشل فى الاستيلاء على تولوز . حتى الكاثوليك بداخلها لم يضيقوا بالهراطقة بين ظهرانيهم ذرعًا كما أن تولوز ظلت لمدة قرن كامل تسعى ماوسعها السعى إلى الاستقلال ، ومن ثم رفضت تحكم سيمون دى مونتفورت فيها ، بل إن أهل تولوز أصروا على تحدى الكنيسة الكاثوليكية ، فعندما ساومتهم هذه الكنيسة وعرضت عليهم الإبقاء على حياتهم وممتلكاتهم نظير انفضاضهم عن كونت تولوز أبوا وأكدوا أنهم لن يخونوه بأى حال من الأحوال . ولا ريب أن كونت تولوز تمتع بدعم أهلها له ، فقد اعتبروه نصيرا للحريات المدنية كما رأوا فى احتلال الغرباء لمدينتهم تهديدا لهذه الحريات ، وأمام مقاومة أهل تولوز العنيفة لها فكت قوات سيمون حصارها لهذه المدينة . وشعر الكونت تولوز بتحسن وضعه القتالى فلم ير داعيا إلى استمرار التفاوض مع سيمون فقطع المفاوضات وخاصة عندما تقدم حكام غرب أوكيتانيا لمؤازرته . وبعد انسحابه من محاصرة تولوز هاجم سيمون إقليم أوكيتانيا من الجنوب والشمال وطارد كونت فوا حتى باب قلعته واستولى على جميع أراضيه ثم تقدم بقواته إلى كاهور فى الشمال حيث تخلى أسقفها الحاكم عن سيمون بمجرد مغادرته لأراضى كاهور ليعلن فروض الطاعة والولاء لغريمه ملك فرنسا ، كما أن عددا من أوكيتانيا المهزومين فى الجنوب أمثال كونت فوا وكونت كومنجر وفيكونت بيرن وسفارى دى موليون بدأوا فى استجماع قواهم والانضمام إلى صفوف كونت تولوز ، ولو أن هذا الكونت لم يستسلم لتخاذله وانضم إلى المناوئين لسيمون دى مونتفورت لاستطاعوا جميعا إلحاق الهزيمة به . وحدثت أول مواجهة بين قوات سيمون وبين المناوئين له ممن أشرنا إليهم فى بلدة يقال لها كاستلنودارى على الحدود الفاصلة بين أراضيه وأراضى كونت تولوز ، وهناك تركزت قوات سيمون الأساسية . وفى البداية سارت المعركة لصالح الكونت فوا غير أن سيمون نجح فى دحرها . وكما أسلفنا لو أن ريموند كونت تولوز حارب إلى جانب الكونت فوا لتمكنا من إلحاق الهزيمة بسيمون الذى بدأ الضعف يعتريه . ولكن بوصول التعزيزات إليه من الشمال فى ربيع عام ١٢١٢ تمكن سيمون من الاستمرار فى محاصرة مدينة تولوز كما سقطت فى يده بلدة أجن وكاهور ومواذاك وألبى ، وامتد حصار سيمون لمدينة تولوز من جنوبها إلى شمالها . وبعد سقوط أو ستريف وموريث أحكم سيمون حصاره للمدينة ، وفى

نهاية عام ١٢١٢ دانت لسيمون كل أوكيتانيا وألحق الهزيمة بجيش ريموند السادس ، كونت تولوز المتردد الذى لم يعد لديه ما يكفى لدفع رواتب جنوده فانفضوا عنه . وهكذا أصبح كونت تولوز تحت رحمة سيمون والكنيسة تماما فحاول أن يتصالح معها كى تغفر له خطاياه ، ولكنها أشاحت بوجهها عنه .

وهكذا أحرزت حملات سيمون دى مونتفورت الصيليبية نصرا مبينا على أوكيتانيا التى تفشت فيها الهرطقة ؛ الأمر الذى أثلج صدر البابا أنوسنت الثالث الذى بدأت المشاكل تتجمع من حوله ، قد ناصبه إمبراطور ألمانيا العداء، وقام ملك إنجلترا بمصادرة معظم أملاك الكنيسة الكاثوليكية فى بلاده ، وكذلك استولى المسلمون على مدينة أورشليم . وفى أوكيتانيا نفسها بدا الأهالى هناك يتذمرون من سيطرة الفرنسيين الأجانب على أراضيهم .

وفى نوفمبر - ديسمبر عام ١٢١٢ استصدر سيمون تشريعات تعطى مزايا كثيرة لطبقة الأكليروس وتقفو أثر قوانين الإقطاع الفرنسى ؛ مما أثار حفيظة أوكيتانيا بسبب ما فعلته هذه التشريعات الفرنسية من تهديد مباشر لتقاليدها وهويتها المحلية . حتى البابا أنوسنت الثالث خشى من أن تتجمع خيوط السلطة فى يد سيمون دى مونتفورت الذى أصبح فيكونت بيزييه ودانت له السلطة فى معظم أرجاء أوكيتانيا . ودعاه خوفه من توسيع سلطة سيمون إلى الكتابة فى منتصف عام ١٢١٢ إلى مفوضيه طالبا منهم أن يعطوا كونت تولوز فرصة لتبرئة نفسه وحظر عليهم مصادرة أملاكه . وزاد من قلق البابا أنوسنت الثالث تصاعد قوة المسلمين فى إسبانيا، وقد شاركه فى هذا القلق مفوضه أرنود أمورى الذى أصبح مؤخرا رئيس أساقفة ناربون والذى حشد قواته لمحاربة المسلمين فى إسبانيا . وأحرزت هذه القوات نصرا ساحقا على مسلمى إسبانيا فى معركة لاس نافاس دى تولوزا التى وقعت يوم ١٦ يوليو ١٢١٢ . ولعب بيتر أراجون الثانى الذى لم يكن على علاقة طيبة بسيمون دى مونتفورت دورا مهما فى دحر المسلمين ؛ الأمر الذى جعل منه بطلاً مغواراً يشار إليه بالبنان فى جميع أنحاء أوروبا المسيحية . وأخذت أنظار البابا تلتفت إلى استعادة إسبانيا من أيدى المسلمين بعد أن استتب أمر أوكيتانيا للكنيسة

الكاثوليكية بفضل سيمون دى مونتفورت فاستبدلت بأساقفتها الساكتين على الهرطقة المكاثارية أساقفة عقدوا العزم على التصدى لها .

ويدل الخطاب الذى أرسله البابا إلى مندوبه أرنود أمورى بتاريخ ١٥ يناير ١٢١٣ على تحول أنظاره من مهرطقى أوكيتانيا إلى مسلمى إسبانيا الكفار . يقول أنوسنت الثالث فى هذا الخطاب : « إن الثعالب (أى المهرطقين) يدمرون كرمة الله فى إقليم بروفانس وانتهى الأمر بوقوعهم فى الأسر . يجب علينا الاحتراس من خطر عظيم ، لقد ترامى إلى أسماعنا أن الكفار المسلمين فى إسبانيا يعدون العدة لحشد جيش جديد للانتقام من الهزيمة التى لحقت بهم ، فضلا عن أن الأراضى المقدسة تحتاج إلى العون والمساعدة » .

وهذه إشارة واضحة إلى ضرورة الانتقال من محاربة الهرطقة فى الداخل إلى محاربتها فى الخارج وفى الأراضى المقدسة .

ثم أرسل البابا فى اليوم المشار إليه نفسه خطابا مستفزا إلى سيمون جاء فيه ما يلى : « إن ملك أراجون العظيم يشكو من أنك وجهت حملتك الصليبية ضد الكاثوليك وأنك أرقت دماء رجال أبرياء وأنك ارتكبت خطأ فى حقه حين قمت بغزو الأراضى التابعة لمرءوسيه من النبلاء (الكونت فوا وكوبنجز وجاستون بيرن) بينما كان جلالته مشغولا بشن الحرب عل الكفار المسلمين رغم وجود هرطقة بين سكان الأراضى التى قمت بغزوها » .

ولهذا تعين على سيمون أن يعيد إلى المهزومين أراضيهم التى استولى عليها طبقا لما يقوله البابا بغير وجه حق ، وأشار البابا أيضا إلى أن صكوك الغفران الصادرة لصالح مقاتليه أصبحت لاغية إلا إذا يمم هؤلاء المقاتلون شطر إسبانيا أو الأراضى المقدسة .

وعندما استيقن بيتر أراجون من أن البابا قلب لسيمون ظهر المجن وأن سيمون لم يعد يتمتع بالحظوة لديه قام بعقد مجموعة من التحالفات مع النبلاء الموتورين من سيمون أمثال كونت تولوز وفوا وكومنجز وفيكونت بيرن . ورغم موقف البابا الجديد المتعاطف مع بيتر أراجون فإن رجال الأكليروس فى أوكيتانيا كان لهم رأى آخر، فقد

أحسوا أن طموح بيتر يمثل خطرا عليهم أكبر بكثير من الخطر الذى يمثله سيمون ، حيث إن بيتر كما رأينا لم يجد غضاضة فى إقامة تحالفات مع حكام وأمراء اشتهروا باحتضان الهرطقة وحماية المهرطقين ، وعقد رجال الأكليروس اجتماعا فى لافور فى يناير عام ١٢١٣ قرروا فيه أن كونت تولوز لايمكن أن يكون موضع ثقة وأنه المسئول عن انتشار الهرطقة فى بلاده ، كما قرروا أن سيمون دى مونتفورت هو الوحيد القادر على إنقاذ الكنيسة الكاثوليكية من براثن المهرطقين فى أوكيتانيا ، وأرسل المجتمعون فى لافور مبعوثين إلى البابا أنوسنت الثالث تمكنوا من إقناعه بوجهة نظرهم فاستجاب لهم البابا وقام بتغيير سياسته تغييرا كاملاً ، وأنحى البابا باللائمة على بيتر أراجون لأنه ضلله وأعطاه معلومات مغلوطة . ورغم انتصار البابا أخيرا لسيمون دى مونتفورت فإن تردده أضعفه ونال من قوته كما أن بعض جنده انفضوا من حوله . ثم إن تقريع البابا لبيتر أراجون جاء متأخرا بعد أن استطاع أن يجمع حوله عددا من الحلفاء أمثال كونت تولوز . ولكن هذه الانتكاسة لم تدم طويلا فسرعان ما تمكن سيمون من قلب موازين القوى لصالحه ، خاصة لأن جيشه رغم تضاؤل عدده كان أكثر تنظيما من جيش أعدائه ، كما أنه عرف كيف يتحين الفرصة ويختار الوقت المناسب لمباغتتهم . وبسبب تردد كونت تولوز وتقاعسه استطاع سيمون أن يقطع الطريق على جنوده المشاة ، وظل يلاحقهم حتى أغرقهم فى نهر الجارون كما استطاع دحر جميع قوات أوكيتانيا المناوئة له والمناكفة ضده . ورغم انتصاراته الكاسحة فقد ظلت مدينة تولوز ومدينة تاربون صامدتين كما أن مدينة مونبلييه شقت عصا الطاعة عليه . وفشل سيمون فى إخضاع منطقة بروفانس خضوعا كاملا لسلطانه . ومن بروفانس اندلعت أول شرارة تمرد ضده .

هذا كله لم يعدُ أن يكون مجرد انتكاسات سرعان ما تغلب سيمون عليها . فقد دانت له أوكيتانيا فى نهاية الأمر مما أقلق البابا وملك أوكيتانيا الفرنسى فيليب أوغسطس على حد سواء . فمن ناحية ساورت البابا شكوك حول نوايا سيمون التوسعية وأن حرصه على توسيع رقعة أراضيه يفوق حرصه على القضاء على الهرطقة ، ومن ناحية أخرى شعر فيليب ملك فرنسا أن هذا الرجل الطموح يهدد سلطته ، وأيضا حاول المفوض البابوى الجديد فى أوكيتانيا بيتر بنيفنتو الحد من

طموحات سيمون التوسعية فأعطى فرصة لأعداء الكنيسة للتصالح معها ، كما أنه رفض تنصيب سيمون حاكما على تولوز . وساعد على ذلك أن الكونت فوا والكونت كمنجز وريموند كونت تولوز وغيرهم قدموا فروض الطاعة والولاء لكنيسته ، ورغبة منه فى إثبات ولائه للكنيسة وهبها جميع ممتلكاته . واضطر سيمون إلى إعلان خضوعه الكامل للكنيسة . ولكنه استطاع أن يتحين الفرصة المناسبة للاستيلاء على بقية أراضى كونت تولوز . وعندما احتدم الصراع بين المفوض البابوى الجديد بيتر بنيفنتو وسيمون دى مونتفورت وقف عدد كبير من أساقفة الجنوب فى صف سيمون واعترضوا على محاولة زميلهم تقليم أظافره ، ولا غرو فقد اعتبروه القائد الوحيد الذى تصدى باقتدار للمهرطقين الكاثاريين . وفى يناير عام ١٢١٥ عقد هؤلاء الأساقفة اجتماعا فى مونبلييه ونصحوا زميلهم بنيفتو أن يعطى تولوز وكل الأراضى التى سقطت فى الحملة الصيلبية إلى سيمون ، وتهرب بنيفنتو قائلا إن هذا الأمر مرهون بارادة البابا فأرسلوا وفدا إلى الكرسى البابوى يطلبون منه تنصيب سيمون حاكما على كل أراضى كونت تولوز فاستجاب إلى طلبهم. وهكذا أحرز سيمون نصرا ساحقا على مناوئيه ودخل سيمون ظافرا إلى تولوز فاضطر حاكمها السابق ريموند إلى اللجوء إلى إنجلترا ووافق البابا على تنصيب سيمون كونت تولوز ودوق ناربون وفيكونت بيزييه وكاركاسون . وحتى يسترضى ملك فرنسا فيليب أوغسطوس أسرع سيمون بالسفر إلى باريس فى إبريل ١٢١٦ ليقدم له فروض الطاعة والولاء . وتعبيرا عن رضاه عنه أكد هذا الملك أحقيته فى امتلاك جميع الأراضى التى استولى عليها والواقعة فى وسط أوكيتانيا .

سيمون دى مونتفورت يواجه المعارضة التى تطيح به :

اعتمد سيمون دى مونتفورت فى حملته الصليبية ضد أوكيتانيا على جيش مكون من الفرنسيين أساسا . ولكن بعد أن انتهى من إحراز انتصاراته الساحقة آثر كثير من جنوده مغادرة أوكيتانيا فى الجنوب والعودة إلى فرنسا فى الشمال الأمر الذى ترك سيمون بدون غطاء عسكرى . وبالتالى تعين عليه الاعتماد على سكان أوكيتانيا . ولكنهم كانوا فى الواقع لا يحملون له الود فهو غريب عنهم بقدر ما كان الغزاة

الفرنسيون غرباء عنهم . غير أن عداوة أهل أوكيتانيا لسيمون لم تكن ظاهرة بل تكمن تحت السطح وتنتظر من يفجرها . وانتظر أهل أوكيتانيا الموالون لكونت تولوز المهزوم ريموند (السادس) اندلاع أية شرارة تمرد على سيمون كى يسارعوا بالانخراط فيه بهدف إعادته إلى سدة الحكم بقوة السلاح . وأيضا بعد عام ١٢١٥ فتر حماس الفرنسيين لمواصلة الحرب الصليبية التى بدأوها على أوكيتانيا . ثم إن شخصية سيمون لم تكن جذابة من الناحية الجماهيرية . ثم إن البابا أنوسنت الثالث المؤمن بشن حرب صليبية على المهرطقين مات وحل محله البابا أونوريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧) الذى فضل المفاوضات على خوض الحروب وأيضا فقد سيمون تعضيد كثير من رجال الكنيسة المنتمين إلى الجيل الجديد بخلاف انتصار الجيل القديم له .. ذلك الجيل الذى تحمس له وهب للذود عنه لدى الكرسى البابوى . ثم إن ملك فرنسا فيليب أغسطوس فقد اهتمامه بشئون الجنوب بسبب المشاكل السياسية التى اعترضته وانشغال فرنسا بشن الحرب على إنجلترا .

بدأ سيمون يواجه المشاكل الحقيقية عندما هبط كونت تولوز ريموند السادس برفقة ابنه ريمون السابع فى ميناء مارسيليا التى كانت مستقلة عن حكم كونت تولوز ووعدت بقية منطقة بروفانس ومناطق الشمال التابعة لعائلة هذا الكونت بتقديم العون له ولابنه . وفى أقل من شهر واحد تجمع جيش عرمرم فى مدينة أفينيون فى انتظار اللحظة المناسبة للانقضاض على سيمون . وسعى ريموند السادس لدى أراجون كى يساعده فى إثارة التمرد فى تولوز تاركا ابنه ريموند السابع ليقود قواته المتمركزة فى بروفنس .

وفى شهر مايو عام ١٢١٦ سنحت لريموند السادس وولده فرصة الهجوم على سيمون عندما وضعت مدينة بوكلير على الشاطئ الغربى لنهر الرون نفسها تحت تصرفهما . وتمكن سيمون من التصدى لهذا الهجوم ولكن حاميته اضطرت إلى الاحتماء فى قلعة المدينة ، عندئذ لجأ كل فريق إلى تطويق الفريق الآخر . فمن ناحيته حاول ريموند السابع محاصرة الحامية فى القلعة حتى تتضور جوعا وفى الناحية الأخرى حاول سيمون أن يقطع خطوط إمدادات ريموند ويجره إلى التلاحم فى معركة

حامية الوطيس . غير أن سيمون فشل فى حصار مدينة بوكير الواقعة على شاطئ النهر، الأمر الذى مكن ريموند وقواته من العيش فى بحبوحة ورغد فى حين عاش جيش سيمون الفرنسى على الكفاف . وقام سيمون بهجوم باسل ثلاث مرات على هذه المدينة ولكن أعداءه ردوه على أعقابه الأمر الذى اضطره إلى الاستسلام فى ٢٤ أغسطس ١٢١٦ . واشترط ريموند نظير فك حصاره المضروب على القلعة أن يقوم سيمون فى المقابل بفك حصاره على مدينة بوكلير ولكن هذا لم يلحق أى أذى مادى كبير بسيمون لأن هذه المدينة كانت فى الأطراف وبعيدة عن تحصيناته الحقيقية المتمركزة فى كل من بيزييه وكاركاسون وتولوز . غير أن سقوط هذه المدينة فى يد أعدائه كان بمثابة انتكاسة معنوية له حيث إن قوات أوكيتانيا أثبتت كفاءتها وأنها لا تقل تنظيما عن قوات سيمون الفرنسية . وبدأ شعراء التروبادور يسخرون من سيمون كما أن أعداءه عبروا عن شماتتهم فيه وبدأوا يحيكون المؤمرات ضده .

أما مدينة تولوز معقل الهرطقة والمهرطقين فكانت لا تزال تحتفظ بودها وولائها القديم لكونت ريموند وتحمل المقت لسيمون ، وسرعان ما نشب تمرد ضد سيمون فى هذه المدينة ؛ الأمر الذى اضطر جنوده إلى الاحتماء فى الكاتدرائية . واستطاع المتمردون السيطرة على المدينة لفترة وجيزة غير أنهم سرعان ما انهاروا عندما أدركوا أن سيمون يحتفظ بعدد كبير منهم رهائن ، وبأنه نجح فى تدمير تحصيناتهم ، وتدخل أسقف تولوز وراهب دير القديس سونين لدى سيمون لوقف الحرب فوافق سيمون على العفو عن المدينة مقابل دية مقدارها ثلاثون ألف مارك .

ولكن سيمون فى عام ١٢١٦ وأوائل عام ١٢١٧ واجه سلسلة من الثورات والتحديات المحدودة ، غير أنه تصدى لها بكل ما أوتى من قوة وشن حملات متصلة ومتلاحقة على المتمردين ؛ الأمر الذى أنهكه وأنهك جيشه . وفى صيف عام ١٢١٧ استعاد سيمون قوته عندما وصلته إمدادات فى الشمال مكنته من عبور نهر الرون بغية معاقبة أمراء مقاطعة بروفانس الذين سبق أن عضدوا غريمه السابق فى مدينة بوكلير ، لكن مناوئى سيمون انتهزوا فرصة انشغاله بملاحقة أعدائه فى بروفانس وغيابه عن البلاد للنيل منه .

كانت مراجل الغضب من سيمون تغلى فى مدينة تولوز التى وعدت حاكمها السابق ريموند السادس بتسليم نفسها له إذا جلب قوات كبيرة تمكنه من الاحتفاظ بها . وبالفعل جلب ما يحتاج إليه من قوات وانضم إليه فى الطريق كونت فوا وكونت كمنجز وعدد آخر من النبلاء ، وتوجه هذا الجيش إلى تولوز ليدخلها فى ١٣ سبتمبر ١٢١٧ دخول الظافرين ، فرحب بمقدمه معظم أهالى المدينة واضطرت الحامية الفرنسية الصغيرة الموالية لسيمون إلى الاحتماء فى قلعة ناربونيه التى رأى ريموند السادس أنه من الحكمة عدم محاولة الاستيلاء عليها . وتهلل أهل أوكيتانيا بعودة ريموند حاكمهم القديم وتغنوا بالأهازيج والأغانى الوطنية ، وأيضا انضم إلى جيش ريموند أعداء سيمون من الجنود الذين جردهم من ممتلكاتهم . وهكذا ولأول مرة توحدت أوكيتانيا التى اشتهرت بالتفكك السياسى والعسكرى وتطلعت إلى قتال سيمون وجيشه من أجل الحصول على استقلالها . ومعنى ذلك أن سيمون بحملته الصليبية استطاع توحيد أوكيتانيا وإلهاب مشاعرها القومية .

كان سيمون دى مونتفورت فى مقاطعة بروفانس عندما علم عن طريق زوجته بأمر تمرد تولوز ضده ، فسارع فى الحال بالرجوع إلى هذه المدينة حاشدا فى طريقه ما استطاع من قوات ، وأسرع بمهاجمة تولوز قبل أن يتمكن أعداؤه من تعزيز تحصيناتهم ، غير أنهم استطاعوا أن يردوه على أعقابه . ولم يكن فى مقدور سيمون أن يضرب حصارا حول تولوز بسبب اتساع رقعتها ، وأدرك سيمون حرج وضعه العسكرى فاستعان بالبابا أنوريوس الثالث كى يصدر نداء بضرورة مواصلة الحرب الصليبية ونصرة سيمون ، ولكن وصول المتطوعين والمشاركين فيها من الخارج احتاج إلى الوقت . وبينما أدى فشل سيمون فى اختراق تولوز إلى انخفاض روح جيشه المعنوية ارتفعت معنويات أعدائه من أهل تولوز .

وبحلول ربيع ١٢١٨ استطاع كل من الفريقين المتحاربين تعزيز قواته ، وما إن عاد كونت تولوز ريموند السادس إلى أراضيه حتى هب أهلها لمناصرته رافعين الأعلام ، واندفعوا نحوه كما لو كان قد قام من الأموات . وتهلل لمقدمه إلى تولوز الفقراء والأغنياء والشباب والشيوخ والأطفال والرجال والنساء وركعوا أمامه على الأرض ،

واغرورقت عيونهم بالدموع من فرط فرحتهم وتأثرهم بلقياه ، وترجل الكونت ريموند السادس عن جواده عند دير القديس سيرنين تيمنا به ، لأن هذا القديس رفض الوجود الفرنسي فى أوكيتانيا . ودقت الطبول وأجراس الكنائس والفواخير ، ولم ير سيمون بدا من مواجهة أعدائه الذين رموه بحجر شج رأسه فمات فى الحال . ورغم ما عرف عنه من شجاعة وكفاءة عسكرية نادرة ومن صمود وقدرة على اتخاذ القرارات السريعة الحاسمة فقد فشل فى إنشاء مؤسسات فى أوكيتانيا يمكنه الاعتماد عليها فى كسب ود شعبها المهزوم .

وبموت سيمون دى مونتفورت انتهت أولى الحملات الصليبية الألبيجانسية وتقلد ابنه أمورى إدارة الجيش بعد وفاته ، غير أنه كان يفتقر إلى الزعامة فانفض عنه كثير من أتباعه . وزاد من إضعافه أن الكونت كومنجز تمكن من طرد الحامية الفرنسية من بلاده ، كما أن الكونت فوا استولى على السهول الواقعة بين تولوز والجبال . وبعد موت سيمون وعجز ابنه أمورى عن قيادة جيشه لم تر الكنيسة الكاثوليكية مناصا من مناشدة فيليب ملك فرنسا التدخل لمساندة أمورى واعدة هذا الملك بدعم مالى كبير تعطيه الكنيسة له . وكان هذا بمثابة رشوة استمرأها الفرنسيون وألحوا فى طلب المزيد منها لإنفاقها فى أغراض علمانية لاشأن للكنيسة بها . والجدير بالذكر أن هذه الأموال كانت حصيلة الضرائب المتزايدة التى فرضها البابوات على رجال الأكليروس بهدف تمويل الحروب الصليبية .

وطلب الكرسى البابوى من لويس ملك فرنسا تسيير حملة صليبية أخرى لمساندة أمورى بن سيمون . ولكن هذا الملك استجاب للطلب البابوى على مضض بسبب الود المفقود بينهما . فقد أثارت كنيسة روما حفيظة هذا الملك عندما أمرته بالامتناع عن غزو إنجلترا وفرضت عقوبات مالية باهظة كى ترفع الحظر الكنسى الذى فرضته عليه ، ورغم أن الملك لويس وافق فى يناير ١٢١٩ على قيادة حرب صليبية تحت ضغط من البابا فإنه كان فى قرارة نفسه عازفا عنها وغير مقتنع بها . وانضم الجيش الفرنسى بقيادة الملك لويس إلى قوات أمورى بن سيمون لمحاصرة مدينة صغيرة تسمى

مارماند حتى انتهى الأمر بها إلى الاستسلام وحدثت فيها مجزرة تقشعر لها الأبدان ، حيث إن القوات الفرنسية الغازية قطعت أوصال الكثيرين من أهل هذه المدينة لدرجة أنها تناثرت فى عرض الطرق كما أن الشوارع غرقت فى بحر من الدماء .

وبعد سقوط مارماند وتقطيع أوصال أهلها قام الملك لويس بضرب الحصار على مدينة تولوز التى تصدت له وقاومته بشراسة ؛ الأمر الذى أجبر لويس على فك الحصار والانسحاب والعودة إلى بلاده تاركا أمورى بن سيمون فى حالة ضعف مزرية ، وزاده ضعفا على ضعف تخلى كثير من جنوده عنه ، فضلا عن أنه لم يكن يملك الأموال اللازمة لدفع رواتب المرتزقة الذين يستعين بهم فى حروبه . وتهاوت المدن التابعة لأمورى مدينة تلو الأخرى ، وبهزيمة ابن سيمون تقدمت قوات ريموند السابع بتأييد من كونت فوا للاستيلاء على المواقع التى سبق لسيمون أن استولى عليها ، ولكن قوات ريموند السابع وكونت فوا تجنبت الحرب فى المدن الحصينة مثل كاركاسون وناربون . وبهذا استطاع ريموند السابع الاستيلاء على كل البلاد التى كان والده قد خسرها فى حربه ضد سيمون ، وفى عام ١٢٢٢ توفى ريموند السادس ولكن الكنيسة رفضت الصلاة على جثمانه لشكها فى هرطقته

وحتى بعد أن مات ريموند روجر كونت فوا عام ١٢٢٣ خلفه وريث أشد ما يكون تحمسا ونصرة لعائلة كونت تولوز وعداء لعائلة سيمون . وعبثا حاول البابا أونوريوس الثالث الدفاع عن أمورى بن سيمون وتحسين صورته فقد ازور عن هذا الدفاع أهل أوكيتانيا كما أن فرنسا تخلت عنه وانتهت الحرب بين ابن سيمون والموالين لكونت تولوز بعقد هدنة فى ١٦ يناير ١٢٢٤ بعد أن اضطر أمورى إلى تسليم منطقة الجنوب بعد انهزامه الساحق إلى حكم ريموند السابع الذى تمكن من احتلال كل من كاركاسون وبيزييه دون مقاومة . وبطرد النفوذ الفرنسى فى أو كيتانيا واندحار سيمون وابنه عاد الهراطقة هناك إلى سابق قوتهم . وبذلك تكون ريمة قد عادت إلى عادتها القديمة وتكون الحملة الصليبية الألبيجانسية ضد الهرطقة قد منيت بهزيمة نكراء .

الكنيسة الكاثوليكية ترفض الهزيمة وتسعى إلى اجتثاث الهرطقة :

قلنا إن الهرطقة ازدهرت بشكل ينذر بالشر عندما لحقت الهزيمة بأمورى بن سيمون على يد ريموند السابع كونت تولوز الجديد . واستاء البابا استياء شديدا من شدة انتشار الهرطقة ، فقد كان يأمل فى اقتلاعها من جذورها الضاربة فى أوكيتانيا عامة وتولوز خاصة . ورأى البابا أونوريوس الثالث أنه من الضرورى شن حملة صليبية أخرى تهدف إلى إرغام ريموند السابع على استئصال الهرطقة فى بلاده ، ولم يكن هناك من يستطيع شن حملة صليبية غير ملك فرنسا لويس الثامن . غير أن عامى ١٢٢٣ و ١٢٢٤ لم يكونا الوقت المناسب بالنسبة للويس لشن هذه الحرب ، ففى منتصف عام ١٢٢٣ كان ملك فرنسا فيليب أوغسطس يحتضر ، وفى النصف الثانى من هذا العام انصرف خلفه لويس الثامن إلى ترتيب أحواله وحاول إعادة الأمن والاستقرار إلى مدينة بواتو المضطربة والتى كان نبلاؤها فى أحيان كثيرة يناصرون إنجلترا ضد فرنسا . واستطاع لويس الثامن أن يكسر شوكة مدينة بواتو كما استطاع بعد عام ١٢٢٤ الاستيلاء وإحكام قبضته عليها ، وبسقوط بواتو فى يده كان فى مقدوره تسيير حملة عسكرية ضد الجنوب .

وجرت مفاوضات بين البابا أونوريوس الثالث ولويس الثامن اشترط فيها لويس شروطا قاسية مقابل اشتراكه فى شن حملة صليبية على الجنوب ، وتلخصت شروطه فى أن تتحمل الكنيسة معظم تكاليف الحملة وأن يسيرها فى الاتجاه الذى يريد وأن يضم إلى ممتلكاته الأراضى التى يستولى عليها . وباختصار أراد لويس الثامن اختزال الحرب بالهجوم السريع على مدن تولوز وكاركاسون وبيزييه وعدم إضاعة حياته مثلما فعل سيمون دى مونتفورت فى محاربة سائر أمصار الجنوب . وكذلك صرح هذا الملك بأنه فى حالة ذهابه إلى الجنوب فسوف يستولى على كل ممتلكات سيمون مونتفورت . وانزعج البابا من هذه المطالب وشعر بعدم الارتياح تجاه صاحبها وخاصة لأنه كان يسعى إلى تعيين حاكم شديد الولاء له فى كل من تولوز وكاركاسون ، فضلا عن أنه أراد من هذا الملك أن يفعل شيئا أعظم يتلخص فى قيادة حملة صليبية كبيرة لاسترجاع بيت المقدس فى أورشليم .

وعلى أية حال رفض البابا مقترحات لويس الثامن واقترح على هذا الملك أن يقوم بترويع ريموند السابع حتى يقبل التصالح مع الكنيسة ، وغضب الملك من اقتراح البابا بأن يلعب دور البعبع ، ولكن مجرد وجوده ووجود جيوشه الحاشدة على حدود أوكيتانيا كان كافيا لإثارة الذعر فى قلب ريموند كما كان البابا يتمنى ؛ الأمر الذى اضطره إلى السعى لاسترضاء الكنيسة .

وجرت مفاوضات بين الكنيسة وريموند السابع على غرار المفاوضات التى سبق أن جرت بين الكنيسة ووالده ريموند السادس ، وهى مفاوضات انتهت إلى التعثر والفشل . وعجز ريموند السابع أن يقنع الكنيسة بإخلاصه وولائه لها رغم أنه بذل كل جهده لإثبات حسن نواياه ، فقد وعد بمعاقبة المهرطقين وطردهم وإصلاح أية أخطاء يكون قد ارتكبها فى حق الكنيسة ودفع تعويض كبير لأمورى بن سيمون على سبيل الترضية . وقام ريموند السابع بإعادة مدينة أجد إلى الأسقف الذى كان يملكها أصلا ، فضلا عن أنه دفع تعويضات مناسبة إلى الكرادلة الذين سبق له الإضرار بمصالحهم . وبالفعل سعى ريمون السابع إلى ممارسة شىء من الضغط على المهرطقين ، ولا غرو فقد كان لا يعطف عليهم بنفس قدر عطف والده عليهم ، وأراد بذلك تحسين صورته أمام الكنيسة . وقد أمضى ريموند السابع معظم النصف الثانى من عام ١٢٢٤ فى التفاوض مع رئيس أساقفة ناربون أرنود أمورى واعدا باتباع أية أوامر يصدرها البابا إليه وطالبا الصفح من الكنيسة ، ولكن كل جهوده ذهبت أدراج الرياح . فبحلول نهاية عام ١٢٢٤ بات من الواضح أن البابا أونوريوس يناصبه العداء ، ولا غرو فقد كانت الكنيسة لاتزال تدين بفضل عائلة سيمون عليها واستبسالها فى الدفاع عن مصالحها . ولا شك أن البابا تأثر برأى كرادلة وأساقفة أوكيتانيا الذين أجمعوا على معارضة ريموند السابع والذين شكوا فى تساهله مع المهرطقين على نحو ما فعل والده من قبل .

كانت كنيسة روما آنذاك تتوق إلى مساندة لويس الثامن ملك فرنسا لها ، ولهذا كرر البابا طلبه منه قيادة حرب صليبية جديدة ، وقرر لويس الاستجابة إلى طلب البابا بعد كثير من التردد والتذبذب . ومن جانبهم مهد كرادلة الكنيسة الكاثوليكية

الطريق إلى ذلك بإزالة أسباب سوء التفاهم الذى شاب فيما مضى علاقة البابا بالملك لويس ، وعقد كرادلة فرنسا مجلسا لإدانة ريموند السابع لتبرير هجوم لويس ملك فرنسا عليه . وفى ٣٠ نوفمبر عام ١٢٢٥ عقد رجال الأكليروس الفرنسيون اجتماعا فى مدينة بورج رفضوا فيه طلب ريموند السابع صفح الكنيسة عنه بدعوى أنه لم يقدم الوعود الكافية لطاعة أوامرها . وفى اجتماع آخر فى يناير ١٢٢٦ تجدد فرض الحظر الكنسى عليه وعلى حاشيته وكذلك على كونت فوا وفيكونت بيزييه . وأكدت الكنيسة أحقية ملك فرنسا فى الحصول على كل أراضى ريموند السابع حتى تغرى هذا الملك بشن الحرب الصليبية التى تريدها ، وفى ٣٠ يناير ١٢٢٦ تعهد ملك فرنسا بإعداد هذه الحملة . وحتى يخطب الكرادلة وده استجابوا لكل الشروط التى سبق أن أملاها على البابا عام ١٢٢٤ ، ولكنهم وفروا على البابا الحرج بأن قاموا بأنفسهم بتقديم ما طلبه الملك لويس من مطالب مثل إعطائه حرية ترك الحملة وقت ما يشاء ، وتعهدت كنيسة فرنسا بدفع عشر دخلها له لمدة خمسة أعوام وهو مبلغ أكبر بكثير من المبلغ الذى سبق أن طلبه عام ١٢٢٤ .

وفى مايو عام ١٢٢٦ حشد الملك لويس جيشا كثير العدد والعدة فى مدينة بورج الأمر الذى أدخل الخوف فى قلوب أهل أوكيتانيا لدرجة أن الكثيرين من أمرائهم سارعوا بتقديم فروض الطاعة والولاء له ، وتخلى كثير من المدن عن مساندة ريموند السابع وانضمت إلى جانب لويس الثامن ابتداء من مدينتى بيزييه وكاركاسون حتى ميناء مارسيليا . غير أن تولوز أظهرت تحديا له وسايرها فى هذا التحدى عدد قليل من البلدان الواقعة فى غرب أوكيتانيا ، ولكن كان من الواضح أن كفة ملك فرنسا هى الراجحة ، ومع ذلك فقد واجه مقاومة شديدة فى مدينة أفينيون التى ظلت تحتفظ بشىء من الود نحو ريموند السابع . ظلت أفينيون تقاوم الحصار الذى فرضه ملك فرنسا عليها فى ١٠ يونيه ١٢٢٦ ، وطال أمد الحصار فحاول لويس اقتحام المدينة ولكنه فشل فعاد إلى مواصلة الحصار حتى أنهك قوى أفينيون وأرغمها على الاستسلام فى ٩ سبتمبر ١٢٢٦ فدفعت له تعويضا متواضعا قدره ستة آلاف مارك .

وأدى سقوط أفينيون فى يد الفرنسيين إلى وجودهم الدائم فى الجنوب واستيلائهم على مقاليد الحكم هناك . وعقب سقوط أفينيون انهارت مقاومة أوكيتانيا ، واستسلمت مقاطعة بروفانس للبابا وقبلت وجود حاميات فرنسية فيها ، وبعد ذلك اتجه الملك لويس إلى كاركاسون دون مقاومة . غير أن استسلام أفينيون الذى بث الخوف والفرق فى قلوب أهل أوكيتانيا عجز أن يحطم تصميم ريموند السابع وأهل تولوز على المقاومة ، ولكن حصار الجيش الفرنسى لأفينيون لفترة طويلة فتَّ فى عضده وكبده خسائر فادحة . وعندما أدرك ملك فرنسا أن ريموند السابع يتميز بتحصينات قوية فى تولوز قرر عدم مهاجمتها والرجوع إلى بلاده ثم العودة منها فى العام القادم لشن هجوم على تولوز، ولكن المرض العضال داهمه عند عودته إلى بلاده فمات يوم ٨ نوفمبر ١٢٢٦ ليخلفه لويس التاسع (الملقب بالقديس لويس) الذى كان طفلا عند وفاة والده ، وتولت أمه بلانش كاستيل مقاليد الأمور بعد وفاة زوجها لويس الثامن ، ولكن أشراف البلاد تمردوا عليها لأنهم كانوا يطمعون فى استرداد ما فقدوه من استقلال . وبسبب هذه القلاقل اضطرت فرنسا إلى تعليق حملتها الصليبية واكتفت بلانش كاستيل بترك قوة ضاربة فى الجنوب كافية لردع ريموند السابع ومنعه من إثارة المتاعب لها .

غير أن ريموند السابع ظل يحتفظ بسيطرته على تولوز والأراضى الواقعة فى شمالها فى حين أن ملك فرنسا احتفظ بسيطرته على مدن ألبى وكاركاسون وبيزييه وجميع البلاد الممتدة شرق منطقة ترانسافل حتى مدينة بوكير على نهر الرون . ولم يكن أهل أوكيتانيا فى هذه المرة على استعداد لخوض المعارك إلى جانب ريموند السابع مثلما كانوا عقب وفاة سيمون دى مونتفورت ، فقد سئموا القتال وشعروا بالإنهاك من كثرة الحروب . وفى عامى ١٢٢٧ و ١٢٢٨ تطلع أهل أوكيتانيا إلى عقد معاهدة سلام دائم مع الفرنسيين على أساس الاعتراف بالحدود القائمة آنذاك ، والتقى ريموند السابع بالفرنسيين فى مؤتمر عقد فى مدينة مو فى ديسمبر عام ١٢٢٨ استمر إلى يناير ١٢٢٩ ، وأبرموا معاهدة سلام تم التصديق عليها فى باريس يوم ١٢ أبريل عام ١٢٢٩ .

كانت شروط هذه المعاهدة قاسية بالنسبة لريموند السابع . ولكنها رغم قسوتها أفادته فى أمرين : أولهما - تصالحه مع الكنيسة . وثانيهما - الاعتراف به رسميا كونت تولوز . وبطبيعة الحال لم يكن رضاء الكنيسة عنه ممكنا لولا أنه تاب وارعوى ووعد بملاحقة الهراطقة وإنزال العقاب بهم . ودليلاً على عزمه على مطاردة الهراطقة أعطى كل من يقبض على مهرطق ماركين (تم تخفيضهما فيما بعد إلى مارك واحد) . وأيضا أعطى ريموند السابع للكنيسة مبلغ أربعة عشر ألف مارك على سبيل التعويض . وكذلك تعهد ريموند بدفع أربعة آلاف مارك مرتبات لأساتذة اللاهوت وفقهاء القوانين الكنسية الوافدين إلى تولوز بهدف ترسيخ المؤسسة الكاثوليكية فى بلد اشتهرت بانتشار المهرطقين الأمر الذى أثمر فى النهاية إقامة جامعة تولوز . وأراد ريموند السابع توثيق عرى المودة بملك فرنسا فزوج ابنته من ألفونس شقيق هذا الملك . واستتب الحكم لملك فرنسا بعد أن تمكن من القضاء على جيوب المقاومة التى اعترضت طريقه من وقت إلى آخر مثل المقاومة التى بذلها فيكونت ترانسافل عام ١٢٤٠ لاسترداد الأراضى التى فقدتها عائلته .

وفى عام ١٢٤٢ قام ريموند السابع بتمرد جديد أصاب قدرا محدودا من النجاح وزاد من مشاكله حدوث مجزرة لمجموعة من محققى محاكم التفتيش فى مدينة صغيرة فى جنوب شرق تولوز تدعى أفيجنونيت . وزاد من مشاكله أن المجزرة وقعت فى أراضيه وأن أحد موظفيه أعطى الأمر للمهرطقين بالهجوم على المحققين ، وفى الحال فرضت روما الحظر الكنسى على ريموند السابع وبدأت الكنيسة تفكر فى شن حرب صليبية أخرى ، وانفض أتباع كونت ريموند عنه معلنين ولاءهم لملك فرنسا لويس التاسع . وأدرك ريموند عدم جدوى الاستمرار فى المقاومة فاستسلم للويس التاسع الذى أنزل به عقابا مخففا لإدراكه أنه لم يعد مصدر خطر . وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى انخرط فيها ريموند السابع فى تمرد ضد ملك فرنسا ، وقد أمضى ريموند السابع البقية الباقية من حياته فى البحث دون جدوى عن زوجة تلد له ذكرا يرث ملك تولوز من بعده ، كما أنه سعى إلى استرضاء الكنيسة باضطهاد الهراطقة والتنكيل بهم .

وثأر ملك فرنسا للمجزرة التى أطاحت بمحققى محاكم التفتيش فى أفيجنونيت فاستولى على قلعة أشد ما تكون تحصينا هى قلعة مونتسيجو التى كان الأرستقراط

المهرطقون يحتمون فيها . ولم يكن الاستيلاء على هذه القلعة بالأمر الهين ؛ فهى تقع فوق أحد جبال البيرنيز ولا سبيل إلى الوصول إليها سوى عن طريق ممر وعر شديد الانحدار وكثير المنحنيات ، واستغرق حصار الجيش الفرنسى بقيادة هيو لهذه القلعة عاما كاملا من مارس ١٢٤٣ حتى مارس ١٢٤٤ وفى زمهرير شتاء بالغ القسوة . وحين تم القبض على المهرطقين الذين يحتمون بهذه القلعة خيروا بين نبذ هرطقتهم أو الموت حرقا . ففضل مائتان منهم من الرجال والنساء الموت حرقا فرحين جذلين على خيانة عقيدتهم الدينية المهرطقة .

وكان سقوط معقل مونتسيجور الضربة القاضية التى شتتت المهرطقين الكاثاريين بحيث لم تقم لهم أية قائمة بعد عام ١٢٤٤ . وبسحق المهرطقين تعزز حكم العائلة المالكة الفرنسية ، وبموت الكونت ريموند السابع فى سبتمبر ١٢٤٩ آلت أملاكه إلى لاونس كونت بواتييه وشقيق ملك فرنسا وزوج ابنة ريموند السابع الذى أنجب منها طفلة . وحكم ألفونس تولوز من باريس ولم يظهر فى الجنوب إلا فى عام ١٢٧٠ وهو يقود حملة صليبية متجهة إلى تونس . وعندما توفى ألفونس وابنته بدون نسل فى عام ١٢٧١ بعد عودتهما من الحملة الصليبية آلت جميع أراضيهما إلى ملك فرنسا الجديد الذى خلف لويس التاسع . وإنها لمفارقة ما بعدها مفارقة أن تئول الأراضى التى قاتل سيمون دى مونتفورت لعدة سنوات من أجل الحصول عليها والتى حارب ريموند السابع حربا مريرة من أجل الحفاظ على بعض منها إلى العائلة المالكة الفرنسية بكل هذا اليسر وهذه السهولة . هذه المفارقة جعلت المؤرخ لوتشير يكتب فى عام ١٩٠٥ قائلا : « كل واحد ابتداء من البابا أنوسنت الثالث فصاعدا جاهد وكافح وتعذب دون أن يدرك أنه يعمل لصالح ملك فرنسا ».

(هذه هى الظروف التى نشأت فيها محاكم التفتيش فى فرنسا والتى فصلناها فى كتابنا « محاكم التفتيش » - دار الهلال ٢٠٠٢) .

الفصل الثانى

أوكيتانيا (جنوب فرنسا) Occitania

إن فرنسا التى نعرفها اليوم تختلف تماما من الناحية الجغرافية عن فرنسا فى القرون الوسطى . حيث إن اسم فرنسا آنذاك كان يشمل فقط المنطقة المحيطة بباريس . وحتى ندرك مقدار صغر مساحة فرنسا آنذاك نقول إن أهالى مدينتى تولوز ومونبلييه فى الجنوب كانوا يتحدثون عن الرحيل إلى فرنسا أو إلى باريس الأمر الذى يدل على أن هاتين المدينتين كانتا فى العصور الوسطى لا تعتبران جزءا من فرنسا . حتى الأراضى الواقعة فى شمال فرنسا الحالية مثل بريتانى ونورماندى كانت لاتخضع حتى أوائل القرن الثالث لسلطان فرنسا . ولكن من الخطأ أن نعتقد أن هذه المناطق الشمالية كانت منبتة الصلة بفرنسا حيث إن الوشائج الثقافية جمعت بينها الأمر الذى جعل توحيدها أمرا ممكنا . غير أن حالة الجنوب (الفرنسى) كانت تختلف تماما وخاصة فى أكويتين Aquitaine وتولوز فاستقلالها عن فرنسا كاد أن يكون كاملا . فضلا عن اختلاف لغة الشمال عن لغة الجنوب الذى يستخدم لغة البروفنسال أو لغة أوكيتانيا Occitania كما يحلو للدارسين أن يطلقوا عليها . وهى لغة أقرب إلى الإسبانية منها إلى الفرنسية لدرجة أن التاجر القادم من مدينة ناربون كان إذا ذهب إلى باريس يحتاج إلى مترجم فى حين إنه يتفاهم بسهولة مع أهل برشلونة . وبالإضافة إلى ذلك كانت القوانين السائدة فى الجنوب تختلف عن قوانين باريس والشمال .

وأيضا اختلف أهل الشمال عن أهل الجنوب فى نقطة بالغة الأهمية وهى أن مجتمعات الشمال كانت ريفية فى حين كانت مجتمعات الجنوب مدنية . ومن ثم كانت

مدن الجنوب أكثر جنوحا إلى الاستقلال من مدن الشمال التى غلب عليها الطابع الريفى ، ففى عام ١٢٠٠ على سبيل المثال تخلى حاكم الجنوب كونت تولوز عن جميع سلطاته تقريبا مانحا إياها للقناصلة الذين تزعموا الطبقة البورجوازية التى أصبحت لها الغلبة على طبقة النبلاء ، وقد شكل فرسان تولوز جانبا كبيرا من جيشهما لخوض غمار الحرب ضد أعدائها جنبًا إلى جنب مع المدنيين هناك . هذه القوة العسكرية التى جمعت بين الأرستقراط والأهالى فى تولوز وفى غيرها من البلدان ساعدتها على بسط نفوذها على الريف المجاور لها ، وقد سعت تولوز قبيل عام ١٢٠٠ إلى الاستيلاء على القلاع التى تهدد طرق تجارتها الأساسية والتجأت من أجل تحقيق ذلك إلى إبرام التحالفات والمعاهدات وشن الحروب تماما كما كان الإقطاعيون يفعلون إبان القرون الوسطى . أما الحال فى شمال فرنسا فقد كان مختلفا لأن الفرسان الأرستقراط أبوا الاختلاط بسكان المدن وأثروا الانفصال عنهم . وعلى أية حال ناصب فرسان الشمال فرسان الجنوب العداء .

ومن المعروف أن سكان الحضر أكثر انفتاحا من سكان الريف كما أنهم أكثر تسامحا مع المتشككين وأكثر استعدادا لاستيعابهم ، وبسبب هذه السماحة لم يجد اليهود ممن يعيشون على ساحل البحر الأبيض المتوسط أية عوائق كبيرة تعترض سبيلهم ، كما أن الهراطقة رغم كثرة عددهم فى الجنوب فى القرن الثانى عشر لم يجدوا أى تنكيل أو اضطهاد . ورغم تحيز الجنوب الفرنسى ضد المسلمين فإنه اقتدى بعلم المسلمين وحضارتهم ، بدليل أن مدينة مونبلييه سعت إلى الاستفادة من تقدم الطب عند المسلمين فى إنشاء مدرسة طب . كما أن شعر البروفنسال تأثر بشعر شمال أفريقيا .

حتى اهتمامات الشمال الأدبية كانت مختلفة عن مثيلاتها فى الجنوب ففى حين فضل الشمال الأدب الملحمى فضل الجنوب الأدب الغنائى . ولكن كلا الشمال والجنوب اشترك فى تقريظ الشجاعة فى حومة الوغى . ويمكننا أن نقول إن الشمال كان يحمل اسم فرنسا فى حين أن الجنوب المفتت من الناحية السياسية كان لا يحمل أى اسم بعينه وإن كان معروفا باسم أوكيتانيا التى لاتتحدث اللغة الفرنسية بل لغة

خاصة بها يطلق عليها اسم الأوكتانية . وأوكيتانيا هى الاسم القديم للجنوب الفرنسى وتحدها جنوبا سلسلة جبال البيرنيز وتحدها من الشرق والشمال الشرقى هضبة كبيرة كما يحدها غربا خليج باسكال المطل على المحيط الأطلسى وهى تضم فيما تضم بوردور وبرومشفور وتولوز . وفى القرن الثالث عشر بعد أن قام الشمال بغزو الجنوب أصبح جزء كبير من هذا الجنوب يسمى لانجيدوك ويشمل مقاطعات تولوز وكاركاسون وبيزييه وبوكير ينيم وغيرها من المقاطعات مثل دوقية أكويتين Aquitaine . والجدير بالذكر أن إنجلترا احتلت دوقية أكويتين فى القرن الثانى عشر . فضلا عن أنها كانت مطمعا لملك أراجون الإسبانى . وبسبب تفتت أوكيتانيا السياسى لم يتمكن كونت تولوز من إحكام القبضة على مقاطعته . فعلى سبيل المثال كان حكم مدينة ناربون مقسما بين رئيس أساقفتها والفيكونت .

وكما سبق أن أوضحنا فى مؤلفات سابقة شجع النزاع المحتدم بين الكرسى البابوى والحكام المحليين حول السلطة الزمنية على انتشار الهرطقات .

والجدير بالذكر أن الهرطقة لم تكن شائعة فى شمال فرنسا قدر شيوعها فى جنوبها حيث إن الجنوب كان أقرب من الشمال إلى طرق التجارة المهمة التى تربط الشرق بالغرب . فضلا من قرب الجنوب الفرنسى من الهرطقات المتفشية فى شمال إيطاليا . وبطبيعة الحال ساعد الجنوب الفرنسى على الهرطقة فساد الإكليروس وتفشى الجهل بينهم . فبعض القساوسة كانوا أميين بالمعنى الحرفى للكلمة والبعض الآخر لا يعرف من اللغة اللاتينية ما يؤهله لإقامة القداديس . ناهيك عن لعب الميسر والإفراط فى شرب الخمر ومضاجعة الجوارى والفتيات والتكالب على جمع المال . وفى حين أظهر رؤساء الكنيسة فى شمال فرنسا شيئا من الاستياء من هذا الفساد نرى أقرانهم فى الجنوب يغضون الطرف عنه . فلا غرو إذا شاهدنا البابا أنو سنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) ينحى باللائمة على رئيس أساقفة ناربون ومعاونيه لجشعهم ولأنهم يعينون الفاسدين فى مناصب دينية نظير الرشاوى فضلا عن أن رئيس أساقفة ناربون تقاعس فى أداء مهام وظيفته إلى حد أنه لم يقم بزيارة أسقفيته على مدى عشرة أعوام . وبسبب استشراء الفساد وجد البابا أنوسنت الثالث نفسه

مضطرا إلى إيقاف أربعة كرادلة عن العمل هم رئيس أساقفة ناربون وأساقفة كل من تولوز وبيزييه وفيفييه . ولا ريب أن تفشي هذا الفساد الكنسي ساعد على انتشار الهرطقة لدرجة أن تولوز – وهي من أكبر وأغنى مدن أوكيتانيا – لم تجد أية غضاضة فى أن تختار حكامها وقناصلتها من المهرطقين . وكثيرا ما كان الهراطقة يجادلون رجال الكنيسة الكاثوليكية فى أمور الدين . ففى عام ١٢٠٧ نرى القديس دومينك يستمع إلى مجادلات واحد من زعماء الهرطقة يجادل بأن الكنيسة الرومانية هى كنيسة الشيطان والدنس والزنا . وقد اجتاحت بلاد أوكيتانيا هرطقتان هما الهرطقة الكاثارية أو التطهيرية والهرطقة الوالدنسيانية اللتان عالجتهما بالتفصيل فى كتاب « الهرطقة فى الغرب (دار سينا – الانتشار العربى ١٩٩٧) . وتعرف الهرطقة الكاثارية بالهرطقة الألبيجنساتية Albigensian نظراً لانتشارها فى مدينة ألبى Albi التى تبعد نحو خمسة وأربعين ميلا من شرق تولوز . وتؤمن الهرطقة الكاثارية بأن العالم المادى من خلق شيطان رجيم وليس من خلق الله سبحانه وتعالى . وهى تشبه إلى حد ما المذهب المانى الذى انتشر قديما فى ربوع بلاد الفرس .

وإذا كانت كرادلة أوكيتانيا آثروا الوقوف مكتوفى الأيدى أمام ذيوع الهرطقة هناك فإن كنيسة روما شعرت بالانزعاج الشديد من انتشارها . وفى عام ١١٤٥ تولى الخطيب المفوه برنارد كليرفو Bernard Clairvaux رئاسة بعثة تبشيرية إلى أوكيتانيا لتحذير الكاثوليك من خطر الهرطقة وإرجاع الضالين إلى جادة الطريق . ورغم المنزلة العظيمة التى حظى بها هذا القديس فى الكنيسة الكاثوليكية فإنه وجد نفسه عاجزا عن أن يفعل شيئا مع مهرطقى أوكيتانيا التى كادت كنائسها تخلو من المصلين . وظلت كنيسة روما تتحلى بالصبر مع المهرطقين لمدة ستين عاما تجادلهم بالحسنى دون طائل . وفى عام ١١٧٨ أصدر المفوض البابوى قراراً بإدانة تاجر شديد الثراء فى تولوز يدعى بيير موراند Maurand كان على علاقة ودية بالمهرطقين ويتبع للهرطقة الكاثارية ونبذ بيير موراند هرطقته وصدر حكم بإرساله إلى الأراضى المقدسة لمدة ثلاثة أعوام يقضيها فى التوبة والغفران . وحين عاد إلى بلاده اختاره أهالى تولوز واحدا من قناصلتها أو حكامها . ومعنى هذا أن الكنيسة الرومانية أخفقت فى ردع الهرطقة المتفشية فى أوكيتانيا الأمر الذى أصاب كنيسة روما باليأس وأثار ثائرتها

فقررت استخدام القوة لاستئصال شأفة الهرطقة . وفى عام ١٢٠٢ أرسلت كنيسة روما راهبا فى طائفة السيستريان بأن المشهورة بالزهد والتقوى يدعى بيير دى كاستلنو Castelnau وبرفقته زميل من الطائفة نفسها لهداية المنطقة الموبوءة . ورغم حرص هذا المبعوث ورفيقه على إقرار النظام فإنهما فشلا فى اقتلاع الهرطقة من جذورها . وفى عام ١٢٠٥ انضم إلى البعثة التبشيرية رجلان من إسبانيا هما الأسقف أوسما ومرءوسه دومينيك دى جوزمان . واتبع القديس دومينيك سياسة جديدة تتلخص فى انتهاج سياسة الفقر والاتضاع التى يتبعها الكاثاريون ، غير أن نجاح هذه السياسة فى هداية المارقين على الكنيسة كان محدودا واحتدمت مجادلات بين المهرطقين والمبشرين الكاثوليك فى جوٍّ من التسامح والحرية . وليس أدل على مدى الحرية التى تمتع بها المهرطقون من أنهم فى إحدى المجادلات نجحوا فى استفزاز القديس دومينيك واستثارة أعصابه فلجأ إلى التهديد باستخدام القوة معهم . وهكذا فشلت مجهودات الكنيسة الكاثوليكية التبشيرية فى الفترة من ١٢٠٣ حتى ١٢٠٧ فى هداية المهرطقين الذين جاهروا بإعجابهم بالهرطقة الكاثارية أو التطهيرية .

وفى ضوء فشل الجهود التبشيرية فى استئصال الهرطقة ظهر اتجاه أدى إلى استخدام القوة العسكرية لتحقيق هذا الغرض . فقد فكر البابا ألكسندر الثالث (١١٥٩ - ١١٨١) فى أن يطلب من الحكام والأمراء شن هجمات على المهرطقين فى الداخل والخارج على حد سواء . وبطبيعة الحال كان الكرسى البابوى آنذاك يعتبر المسلمين من المهرطقين . غير أن نجاحه فى هذا الشأن كان محدودا . ورغم ذلك فقد نجح هذا البابا فى حثهم فى عام ١١٨١ على شن هجوم على مدينة لافور المهرطقة . ولكن جهود الحكام والأمراء للتصدى للهرطقة توقفت عند هذا الحد . والجدير بالذكر أن البابوات فى القرن الثانى عشر كانوا بوجه عام عازفين عن استخدام القوة مع أعدائهم . حتى البابا ألكسندر الثالث نفسه أظهر نوعا من الإحجام عن شن حرب صليبية ضمن المهرطقين .

ولكن هذا الوضع تغير بحلول القرن الثالث عشر ، فمنذ أن تولى البابا أنو سنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) سدة البابوية جنح البابوات خلال القرن الثالث عشر إلى استخدام العنف واللجوء إلى الحملات الصليبية للوقوف فى وجه المهرطقين والخارجين

على الكنيسة مقابل منح صكوك الغفران للمحاربين . وإلى جانب هذا لم يتورع هؤلاء البابوات عن قمع الحكام المناهضين لهم فى ألمانيا وجنوب إيطاليا ، الأمر الذى أشاع الفوضى فيهما . واعتمد البابوات على شمال فرنسا فى حشد الجيوش الصليبية . وكانت حملة أنوسنت الثالث الصليبية ضد المهرطقين فى أوكيتانيا (المعروفة باسم الحروب الصليبية الألبيجنسيانية Albigensiar نسبة إلى مدنية ألبى) هى أولى هذه الحروب وأوسعها نطاقا كثرت الحروب الصليبية التى شنها الكرسى البابوى على المهرطقين فى القرن الثالث عشر وفى الفترة من ١١٨٥ حتى ١٢٨٥ على وجه التحديد . ففى تلك لم يكد يمر عام واحد دون شن حرب صليبية ضد المهرطقين أو التفكير فى الإعداد لها .

ولعل الصواب لا يجانبنا إذا قلنا إن ذلك القرن هو قرن الحروب الصليبية فى الداخل والخارج على الهرطقة والمهرطقين . ففى الفترة من عام ١١٨٩ حتى ١١٩٢ نشبت الحرب الصليبية الثالثة . وتلتها الحرب الصليبية الرابعة (١٢٠٢ - ١٢٠٤) والخامسة (١٢١٧ - ١٢٢١) والحروب الصليبية التى شنها على المهرطقين الإمبراطور فردريك الثانى فى عام ١٢٢٨ ثم حرب ثيبولد شامبانى Thibauld Champagne (١٢٣٩ - ١٢٤١) وحرب القديس لويس (١٢٤٨ - ١٢٥٤ و ١٢٧٠) . والقرن الثالث عشر هو أيضًا القرن الذى شاهد الحروب الصليبية الألبيجنسيانية (١٢٠٩ - ١٢٢٦) التى سوف نركز عليها . فضلا عن الحرب الصليبية ضد هوهنستوفين Hohenstanwfen (التى امتدت من عام ١٢٤٠ حتى ١٢٦٨) . وأخيراً هناك الحرب الصليبية ضد أراجون (١٢٨٥) التى أقنعت الجيش الفرنسى المشترك فيها بعدم جدوى مثل هذه الحروب . وحتى ندرك مدى تحمس العائلات المالكة - الأرستقراطية للانخراط فى هذه الحروب من أجل الله وخدمة كنيسته والتصدى للمهرطقين والكفار يكفى أن نقول إن خمسة ملوك متعاقبين قادوا بأنفسهم هذه الحملات الصليبية (وهم الملوك لويس السابع . وفيليب أوغسطس ، ولويس الثانى ، ولويس التاسع ، وفيليب الثالث) . وقد لقى ثلاثة الملوك الآخرون حتفهم فى هذه الحروب .

وكما أسلفنا عجز التبشير والحث عن إقناع زعماء أوكيتانيا أمثال ريموند السادس وكونت تولوز وكونت فوا وفيكونات تراسيفيل بالتحرك للقضاء على المهرطقين

حيث إن تصديهم للهرطقة كان سيُغرق البلاد فى حروب أهلية وحيث إن كل عائلة كبيرة كانت تضم بعض المهرطقين . وعندما تلقى ريموند السادس كونت تولوز طلبا من الكرسى البابوى بقمع الهرطقة والمهرطقين فى بلاده اكتفى بالردود المؤدبة التى لا طائل من ورائها مؤكداً أنه مؤمن بالعقيدة الكاثوليكية الحقة . غير أن هذه الردود المؤدبة وغير الفاعلة لم تشف غليل البابا أنوسنت الثالث الذى رأى فى الالتجاء إلى القوة حلا لمشكلة انتشار الهرطقة . وفى عامى ١٢٠٤ و ١٢٠٥ طلب هذا البابا من ملك فرنسا فيليب أوغسطس مساعدته فى قمع الهرطقة فى مناطق الجنوب . ونجح البابا فى حث هذا الملك على قيادة حرب صليبية شاملة لاستئصال شأفة المهرطقين الكاثاربين فى أوكيتانيا وأغرى البابا المقاتلين الصليبيين بالاستيلاء على أراضى وأملاك أمراء الجنوب الذين يوفرون الحماية للمهرطقين . ولكن هذا العرض لم يلق قبولا أو استحساناً لدى ملك فرنسا لأنه رأى أن هذه الأراضى ينبغى أن تئول إلى رؤساء الإقطاع . وعلى أية حال اعتذر ملك فرنسا فيليب أغسطس عن عدم الاشتراك فى قمع الهرطقة المنتشرة فى جنوب فرنسا بأن قال إنه استنفد جهوده فى الانتصار على نورماندى وأنجو وانتزاعهما من يد الغزاة الإنجليز . وأيضاً طلب ملك فرنسا من البابا أن يحصل من ملك إنجلترا على تعهد بعدم العودة إلى احتلال هذه المناطق حتى يتفرغ للمهرطقين فى الجنوب ويتمكن من توجيه ضربة إليهم . وبطبيعة الحال لم يكن فى مقدور البابا أن يضمن تصرفات ملك إنجلترا . وهكذا استطاع الملك فيليب أغسطس أن ينأى بنفسه عن الاشتراك فى أول حرب صليبية ألبيجانستية . ورغم هذا فلا مناص من الاعتراف بأن ملوك فرنسا رغم خلافهم المتكرر مع الكرسى البابوى كانوا أكثر ملوك أوروبا تحمساً لتنظيم وشن الحملات الصليبية فى الداخل والخارج .

وفى عام ١٢٠٧ قام المفوض البابوى بيير دى كاستلنو بفرض الحظر الكنسى على كونت تولوز ريموند السادس وكذلك فرض الحظر على ممتلكاته . ويرجع السبب فى هذا إلى أن هذا الكونت جرد الكرادلة من ممتلكاتهم إلى جانب توفيره الحماية للمهرطقين . وأيد البابا أنوسنت الثالث فى خطاب سطره بتاريخ ٢٩ مايو ١٢٠٧ الإجراء الذى اتخذه مفوضه بيير . وكذلك هدد البابا فى هذا الخطاب كونت تولوز

بحشد أمراء الممالك الأخرى لتطهير تولوز من دنس الهرطقة . ونفذ البابا تهديده بأن ناشد ملك فرنسا فيليب أغسطس بسرعة التدخل لقمع الهرطقة في الجنوب .

ومن جانبه حاول ريموند السادس السعى لدى انوسنت الثالث لرفع الحظر الكنسى عنه كما اعتاد أمثاله من الأمراء أن يفعلوا . ولكن البابا رفض رفضًا قاطعًا رغم اجتماعه مرتين بكونت تولوز . وانتهت مقابلتهما الثانية في يناير ١٢٠٨ بمشادة كلامية . يقول البابا إن الكونت ريموند وجه على إثرها إنذارا إلى كل الكرادلة بوضعهم تحت رقابته الصارمة . وفي يوم ١٤ يناير من هذا العام نفسه اغتيل بيير دى كاستلنو وهو يستعد لعبور نهر الرون دون أن يكون لريموند السادس يد في اغتياله . حتى البابا نفسه لم يتوفر لديه أى دليل على تورطه في هذا الاغتيال بل كانت لديه مجرد ظنون . ورغم ذلك فقد قرر الكرسى البابوى حشد جيش صليبى للزحف من الشمال الفرنسى على تولوز للقضاء المبرم على الهرطقة المستشرية فيها . وحتى يغرى الفرنسيين بالانضمام إلى هذا الجيش وعدهم بغفران الخطايا . وقد أسندت قيادة الجيش من الناحية الشكلية إلى المفوض البابوى أرنود أمورى في حين إن القيادة الفعلية دانت لدوق بورجندى والكونت ، ثم برز في ساحة القتال البارون سيمون قائد مُونتفورت . غير أنهم لم يكونوا من الناحية العسكرية على المستوى اللائق الأمر الذى أعاق دحر المهرطقين وإحراز النصر عليهم .

الفصل الثالث

مقاطعة لانجويدوك Languedoc

واكب محق الهرطقة فى أوكيتانيا فى الجنوب فقدان أوكيتانيا لاستقلالها وضمها إلى الأراضى الفرنسية فى الشمال . وأصاب الضعف والوهن نفوذ ريموند السابع حاكم تولوز فى الجنوب بحيث أصبح خاضعا لنفوذ لويس التاسع ملك فرنسا . ولاعتبارات سياسية تزوج ريموند السابع من ابنة ألفونس بواتييه شقيق ملك فرنسا . غير أن جميع ممتلكات ريموند آلت بموته إلى ألفونس بواتييه ثم أصبحت فى النهاية جزءاً من أملاك الخاصة الملكية الفرنسية بعد وفاة شقيق الملك . وأصبحت جميع الأراضى الأوكيتانية الواقعة بين أكويتين Aquitaine وبروفانس Provence خاضعة لملك فرنسا الذى اتبع سياسة إضعاف طبقة النبلاء ورجال الأكليروس حتى يضمن سيطرته عليهم . وحتى يؤمن جبهة الجنوب من أى تدخل خارجى أبرم ملك فرنسا معاهدتين مع ملك أراجون فى عام ١٢٥٨ وملك إنجلترا فى عام ١٢٥٩ أصبح بمقتضاها ملك إنجلترا يحتفظ بدوقية أكويتين على أن يكون خاضعاً لملك فرنسا ورغم نجاح ملك فرنسا فى ضم جنوب أوكيتانيا إلى أراضيه فقد ظلت تولوز فى عام ١٣٠٠ تنعم بشىء من الاستقلال . وبانضمام الجزء الكبير من أوكيتانيا الذى احتله ملك فرنسا انسلخت هذه الأراضى المحتلة عن أوكيتانيا غير أن الحكم الفرنسى رأى من الأصلح له أن يمنح خمس مقاطعات فى الجنوب نوعا من الاستقلال والروابط المشتركة مثل اللغة والقانون والإجراءات والإدارة . وتتكون هذه المقاطعات المشتركة من بيربجورد - كويرسى وردوبرج وتولوز وألبى وكارسون بيزييه وبوكير ينميس . وأطلق الفرنسيون على هذا التجمع السياسى والديموجرافى آنف الذكر اسم

مقاطعة لانجويدوك . وهو اسم يختلف عن اسم الشمال الناطق باللغة الفرنسية والمعروف باسم لانجويدويل Longuedoeil . ويرجع الفرق بين الاسمين إلى أن أهل الجنوب كانوا ينطقون كلمة نعم بـ Oc فى حين أن أهل الشمال الفرنسى كانوا ينطقونها بـ Ocil التى تحولت فيما بعد إلى Oui ، أى أن الخلاف فى التسمية يرجع إلى أسباب لغوية بحتة . وليس أدل على استقلال لانجويدوك من أنه كان لها برلمان خاص بها .

كانت لانجويدوك أكثر أجزاء أوكيتانيا اتساعًا وأكثرها حيوية . ورغم كل ما شاهدته هذه المنطقة من قلاقل وحروب صليبية فإنها حافظت على رخائها وازدهارها وهويتها الثقافية . فضلاً عن كونها شريانا تجاريا وصناعيا مهما . وقد ظلت هذه المقاطعة تحتفظ بازدهارها الاقتصادى حتى القرن الرابع عشر الذى شاهد كسادا اقتصاديا عظيما . ولم يحاول ملك فرنسا التدخل فى شئون هذا الإقليم طالما أنه واظب على دفع الضرائب المفروضة عليه وأطاع أوامر الملكية . وأيضًا من دلائل استقلال هذا الإقليم أنه كانت له لغته وقوانينه وجامعاته الخاصة . وكما ذكرنا تركتهم السلطة الفرنسية لشأنهم فلم تحاول إرغامهم على استخدام اللغة أو القوانين الفرنسية على عكس سيمون دى مونفورت الذى أجبرهم على استخدام بعض القوانين الفرنسية . والجدير بالذكر أن كثيرًا من الوظائف الرسمية مثل الإدارة والقضاء كانت تسند إلى أهل الجنوب . والجدير بالذكر أيضًا أن لا نجويدوك استطاعت أن تتجاوز الدمار والخراب الذى ابتليت به من جراء الحروب الصليبية وتسترد عافيتها وازدهارها . ولعل الكساد الاقتصادى وحرب مائة العام أضر بها أكثر مما أضرت به الحروب الصليبية .

وبسبب احتلال فرنسا لها أصبحت لانجويدوك إحدى مقاطعاتها ، لها لغتها الدارجة وهى اللغة الأوكيتانية . وكما أسلفنا امتنع الفرنسيون عن إرغام أهل الجنوب على استخدام اللغة الفرنسية . وأصبحت اللغة الأوكيتانية المحلية لغة الشعر فى تلك المنطقة . ولكن هذا الوضع أضر بإنتاجها الأدبى حيث صار محليا وليس رافدا

أساسيا فى الأدب الفرنسى وشيئًا فشيئًا بدأ أهل لانجويدوك يتعلمون اللغة الفرنسية ولكن بلكنة جعلت منهم حتى يومنا الراهن أضحوكة فى نظر أهل باريس . ويمرور الزمن أدرك أهل لانجويدوك أن استخدامهم للغة الأوكيتانية المحلية يمثل عائقًا أمام طموحهم وتقدمهم الاجتماعى ولهذا اتجه البعض منهم إلى أن يكون فرنسيا أكثر من الفرنسيين مثل جيوم دى نوجاريت الذى عمل قاضيًا فى الجنوب ليصبح واحدا من أهم وزراء الملك فيليب العادل وبلغ من ولاء هذا الرجل للعرش الفرنسى أنه قام بالقبض على البابا بونيفاس الثامن (١٢٩٤ - ١٣٠٣) والزج به فى السجن عندما دخل هذا البابا فى صراع مع ملك فرنسا بحجة أن ولاءه لوطنه فرنسا يفوق أى ولاء آخر . ويجمع شتات المقاطعات المتباينة فى صعيد وطنى واحد كان لابد للحكومة المركزية فى فرنسا أن تترسخ .

ولكن ولاء نوجاريت الأعمى لملك فرنسا لم يكن القاعدة بين أهل لانجويدوك حيث إن معظمهم كان يتشكك فى نوايا الحكومة المركزية فى باريس ويحرص على الاستقلال عنها . بل إن مفاهيم الجنوب الدينية كانت فى كثير من الأحيان أبعد ما تكون عن المفاهيم الكاثوليكية التقليدية . وظلت لانجويدوك تحافظ على هذا الاستقلال الثقافى والدينى لقرون طويلة قبل أن تنصهر تمامًا فى بوتقة فرنسا الثقافية والدينية والسياسية . ويدلل المؤرخون على جنوح أهل لانجويدوك نحو المروق الدينى ليس فقط بانتشار الهرطقة فيها فى الماضى بل بانتشار الدين البروتستانتى. وعلى أية حال فلا ريب أن الحروب الصليبية الألبيجانستية أسهمت إسهامًا ملحوظًا فى صهر لانجويدوك فى بوتقة السياسة الفرنسية .

وغنى عن الذكر أن بابوات روما كثيرًا ما كانوا يحققون مطامعهم السياسية عن طريق الاستعانة بملوك لقمع محاولات الاستقلال عنهم . فعلى سبيل المثال عندما قرر البابوات إحكام السيطرة على صقلية ونابولى وانتزاع الأولى من قبضة عائلة هو هستوفن المناهضة للكرسى البابوى تم تسيير حملة صليبية فرنسية ضدهما كما تم تعيين أمير فرنسى حاكما على الجنوب الإيطالى .

محاكم التفتيش فى لانجويدوك

عندما نشأت محاكم التفتيش فى إقليم لانجويدوك فى جنوب فرنسا لم تكن هناك أية سابقة يمكن لهذه المحاكم الاقتداء بها . وكان جانب كبير من سكان لانجويدوك يدين بالهرطقة الكاثارية (التطهيرية) والهرطقة الوالدنسياتية (انظر د. رمسيس عوض الهرطقة فى الغرب . دار سينا للنشر بالقاهرة والانتشار العربى فى بيروت ١٩٩٧) انتشرت الهرطقة فى لانجويدوك انتشار النار فى الهشيم لدرجة أن جميع العائلات لم تخل من وجود مهرطقين بين أفرادها . وكان أهالى لانجويدوك باستثناء الرهبان الفرنسيين الوافدين فى الشمال يناصبون محاكم التفتيش العداء وينظرون إليها شذرا . وقد عبر شعراء التروبادور عن احتقارهم لها وللرهبان الفرنسيين الذين يؤيدونها . يقول جويلم دى موتاناجوت فى هذا الشأن : « الآن تحول القساوسة إلى محققين فى محاكم التفتيش وهم يدينون الناس وفق هواهم . وليس لى اعتراض على محاكمات التفتيش لو أنها أدانت أخطاء الناس بالحسنى وأعادت الضالين إلى حظيرة الإيمان دونما غضب مستشيط وسمحوا للتائبين أن يجدوا الرحمة » . وأيضًا انبرى بيير كاردينال للهجوم على محاكم التفتيش قائلا : « إن الرهبان الدومنيكان أثناء تناولهم طعام الغذاء يتجاذبون أطراف الحديث حول جودة الخمر التى يحتسونها .. وأنشأوا محكمة تتهم كل من يهاجمهم بأن مهرطق والدنسانى ساعين إلى النفاذ إلى أسرار جميع الناس بهدف بث الرعب فى قلوبهم ».

كان حكام لانجويدوك يتخذون موقفًا متسامحًا من الهرطقة . وحتى إذا لم تكن السلطة الحاكمة مهرطقة فإنها لا تعترض سبيل المهرطقين وتتركهم وشأنهم وتهتم بالحفاظ على الحريات المدنية أكثر من اهتمامها بمحاربة الهرطقة . وفى طول لانجويدوك وعرضها كان النبلاء الأقوياء يجهرون بهرطقتهم أو يحتفظون بها فى قلوبهم سرا . وكما سوف نرى بالتفصيل كانت الكنيسة الكاثوليكية تعتبر ريموند حاكم تولوز فى عداد المهرطقين وكان أهالى لانجويدوك ينظرون إلى محاكم التفتيش على أنها قوة غازية ورمز للسيطرة الأجنبية .

حمل أهل لونجويدوك المقت لرجال الأكليروس بسبب شدة فسادهم وعنفهم . وكثيرًا ما لجأت الكنيسة إلى الاستيلاء على أموال الناس وممتلكاتهم بزعم أن أصحابها مهرطقون ، الأمر الذى اضطر البابا أنوسنت الرابع فى عامى ١٢٤٣ و ١٢٤٥ إلى إصدار أوامره بعدم انتهاج هذه السياسة حتى لا يتهم المهرطقون رجال الكنيسة بأنهم مجموعة من اللصوص والمحتالين تسعى إلى الاستحواذ على ممتلكات الناس بزعم إنقاذ أرواحهم من الهلاك . والجدير بالذكر أن الهرطقة لم تنتعش فقط بين المدنيين من سكان لانجويدوك بل وبين رجال الدين أنفسهم الذين تمتعوا بالحصانة من العزل رغم هرطقتهم بسبب قلة عدد الأساقفة الذين يمكنهم شلحهم أى عزلهم من وظائفهم الكنسية . ولهذا أصدر البابا جريجورى التاسع فى عام ١٢٣٣ مرسوما يقضى بمنح الأسقف الواحد (دون حاجة إلى مجمع أساقفة) الحق فى شلح أى كاهن مهرطق وتسليمه إلى الذراع العلمانى لحرقه حيًا . وهو نص أدخله هذا البابا فيما بعد على القانون الكنسى . وأيضًا أصدر البابا أنوسنت الرابع فى عام ١٢٤٥ إلى المفوض فى لانجويدوك أمرا بعدم ترقية أى مهرطق إلى مرتبة أسقف . وقد واجه رجال الدين المتحمسون عداوة مشبوبة من الشعب لدرجة أنه تعذر عليهم استمرار العيش فى أماكن عملهم مثلما حدث لجويلم بيير قسيس ناربون فى عام ١٢٤٦ الأمر الذى أدى إلى امتناع كثير من الكرادلة فى لانجويدوك من تقديم العون والمساعدة إلى محاكم التفتيش مما أثار حنق البابا انوسنت الرابع ودهشته . وقد وصف برنارد جوى الأساقفة الذين ناصروا ريموند كونت تولوز بأنهم من أخبث خلق الله وبأنهم الأعداء الحقيقيون الذين يهددون الكنيسة ومحاكم تفتيشها . وكذلك تسبب ادعاء المحققين فى محاكم التفتيش بأنه يحق لهم مراقبة أعمال القساوسة فى بذر بذور الشقاق بين محاكم التفتيش وعدد من رجال الكنيسة .

وأيضًا واجهت محاكم التفتيش مشكلة عدم وجود أماكن لحجز المتهمين وعدم وجود سجون لوضع المحكوم عليهم فيها . وتهرب الأساقفة من مسئولية إقامة السجون لأعداد السجناء الغفيرة فاضطر الملك لويس التاسع إلى التدخل لبناء هذه السجون . وبسبب هذه العوائق لم يكن من السهل على المحققين فى محاكم التفتيش أداء واجبات وظيفتهم . ولولا إفراطهم فى التعصب وتحمسهم الشديد

لأعمالهم القمعية لربما فَتَّ هذا فى عضدهم . وقد لعب الرهبان الجائلون والشحاذون الذين نذروا أنفسهم لخدمة الله والزهد فى الحياة دوراً مهما فى توجيه هذه المحاكم وإدارتها . وأعطاهم عزوقهم المطلق عن زخرف الدنيا طاقة هائلة فى قمع المهرطقين . ولاريب أن محاكم التفتيش أسهمت بنصيب وافر فى إخضاع أوكيتانيا فى الجنوب إلى ملك فرنسا فى الشمال موحدة بذلك الشطرين الشمالى والجنوبى رغم مشاعر الجنوب العدائية ضد الشمال كما سبق أن رأينا عند الحديث عن الحروب الصليبية الألبيجانستية . وكما قلنا وجد المهرطقون فى لانجويدوك الحماية لدى النبلاء والأشراف وعلية القوم . ونتيجة قوة المهرطقين وكثرة أعدادهم تعرض بعض الكهنة فى كثير من الحالات للذبح دون رحمة . وفشلت جهود المفوض البابوى الكاردينال رومانو ومجلس تولوز فى حماية العقيدة الكاثوليكية . والجدير بالذكر أن الجامعة التى أنشأها ريموند فى تولوز تعثرت فى أداء مهمتها فى بادئ الأمر رغم أنها استقدمت فقهاء لاهوت للتدريس فيها من باريس . بل إن سكان الجنوب سخروا علانية من مداخلات ومجادلات هؤلاء الفقهاء الأمر الذى اضطر ريموند إلى وقف الإعانات عن هذه الجامعة الوليدة التى اضطرت إلى إغلاق أبوابها لبعض الوقت .

ومع اشتداد ساعد طائفة الرهبان الدومينكان بدأ هؤلاء الرهبان يتصدون بقوة وحزم لانتشار الهرطقة فى تولوز حتى قبل أن تنشأ محاكم التفتيش . وفى عام ١٢٣١ اعتلى واحد من غلاة الرهبان المنبر ليعلن أن تولوز مليئة بالمهرطقين الذين ينشرون ضلالهم دون أن يعترض سبيلهم أحد . وضاق حاكم تولوز ذرعاً بشكوى من هذا الراهب لما تتضمنه هذه الشكوى من دعوة إلى القمع . واجتمع القناصلة فى قاعة المدينة وجاء رئيس الأساقفة بيير داليه لتوبيخ الراهب لقوله بوجود هرطقة فى المدينة . ورغم تفاهة هذه الحادثة فإنها تمثل مؤشراً إلى التوتر الذى شاب علاقة السلطة المحلية فى تولوز بمحاكم التفتيش ورغبة هذه المحليات فى الاحتفاظ باستقلالها عن الكنيسة . ولكن تولوز كما سوف نشاهد اضطرت فى النهاية إلى الخضوع لاستبداد الكنيسة .

ويعتبر رولان كريمونلة المنتمى إلى طائفة الرهبان الدومنيكان الذى انتدبته جامعة تولوز الوليدة من جامعة باريس لتدريس اللاهوت فيها من أوائل الساخطين على اللغة القاذعة التى استحدثها قناصل تولوز فى هجومهم على الرهبان المتحمسين لتعقب المهرطقين . وذهب رولان كريمونلة إلى أنه اكتشف أن كاهنًا فى كنيسة سيرين يدعى جان بيير دونات مات مؤخراً ودفن فى أرض الدير ضل وهرطق وهو على فراش الموت . وبدون الرجوع إلى السلطات وبدون إجراء أى تحقيق قانونى قام الراهب رولان بالاجتماع ببعض الرهبان والقساوسة ونبشوا القبر وأخرجوا الجثة منه وجروها فى الشوارع ثم قاموا بحرقها أمام الملأ . وبعد هذا بوقت قصير سمع هذا الراهب عن قسيس مرموق من أتباع الهرطقة الوالدنسينية يدعى جالفان . فقام رولان بإلقاء عظة هيج فيها خواطر الناس وقاد طغمة من الرعاع إلى البيت الذى مات فيه هذا المهرطق ودمروه وساووه بالأرض . ثم تقدموا إلى المدافن التى دفنت فيها جثة هذا المهرطق وأخرجوها من الأرض وجروها فى المدينة فى موكب حاشد حتى وصلوا بها إلى ميدان الإعدام حيث حرقوها بكل وقار . هذه الأعمال ارتكبها رجال الكنيسة دون أى سند أو تفويض قانونى .

وقبل إنشاء محاكم التفتيش كانت محكمة الأسقفية هى التى تتخذ ما تراه من إجراءات ضد المهرطقين ، وكذلك تكليف الذراع العلمانى أو السلطة المدنية بالتصرف . ولكن الراهب رولان قام بالاشتراك مع الرعاع فى حرق رفات ضحيته دون الاحتكام إلى نصوص القانون . وساعدهم على أخذ القوانين فى أيديهم قيام بعض الأساقفة بشن غارات على المهرطقين خارج أسوار مدينة تولوز فى حين أنهم سمحوا للمهرطقين داخل المدينة بالتمتع بحماية القناصل لهم .

وبالنظر إلى أن عمليات قمع الهرطقة لم تكن قد اتخذت بعد شكلات منظماً فقد شعر الأكليروس بالحاجة إلى تنظيم يضطلع بمهمة مطاردة المهرطقين وعقابهم . ولا شك أن تعيين محققين للتحقيق فى أمور الهرطقة عام ١٢٣٣ كان أول سابقة من نوعها دون أن تثير الاهتمام أو تلفت النظر إليها . وقد كان بيير بون دى سانت جيل رئيس كهنة تولوز وبيير سيلد وجويلم أرتود وأرنود كاثالا من أول الذين عينوا محققين فى

محاكم التفتيش . وعندما نشأت محاكم التفتيش فى ظل هذه الظروف لم يدر بخلد أحد أنها سوف تكون هذا الشىء الرهيب المروع والذى سوف يفضى فى المستقبل إلى كل هذا الهول والرعب . وكان بيير بون دى سانت جيل رئيس كهنة تولوز وبيير سيلا وجويلم أرنود من أوائل المعينين محققين فى محاكم التفتيش .

لم يعدم المهرطقون فى تولوز من يدافع عنهم . فعندما قام المحققان بيير وجويلم بإجراء تحقيق حول الهرطقة المتفشية فى المدينة وأشارا إلى وجود عدد كبير من المشتبه فى هرطقتهم ، انبرى كبار رجال تولوز للدفاع عنهم ، وعندما أدين مهرطق يدعى جين تيسير بتهمة الهرطقة كاد المسئول الدينى أن يقود المتهم إلى المحرقة . ولكن الجمهور المتعاطف مع المهرطق تجمع وهدد المسئول الدينى بالويل والثبور وعظائم الأمور بصوت راعد هادر ، الأمر الذى اضطر ممثل الكنيسة إلى الاكتفاء بإبعاده والزج به فى سجن الأسقفية بينما هو يؤكد أن مسيحيته صحيحة وفوق مستوى الشبهات . وحدث هرج ومرج فى مدينة تولوز وهدد الغوغاء بتدمير دير الدومينكان هناك ورجم رهبانه بالحجارة لأن هؤلاء الرهبان ينكلون بالأبرياء . وأثناء سجنه تظاهر تيسير المتهم بالهرطقة بشدة مرضه ودنو الموت منه وطلب التناول والصلاة من أجله .. ولكن هذه العودة إلى حظيرة العقيدة الكاثوليكية سرعان ما انتهت بالردة إلى الهرطقة . فبعد أن أحضر مسئول مدينة لافور إلى تولوز عددا من المهرطقين الذين تأكدت هرطقتهم وسلمهم إلى الأسقف ، لم يجد تيسير غضاضة فى مخالطتهم والتأثر بهرطقتهم والسير على دربهم لدرجة أنه قرر الانضمام إليهم عندما قام المحققون باستدعائهم للتحقيق معهم . ودعا الأسقف القضاة وعددا كبيرا من المواطنين لحضور التحقيق مع المسجونين ومن بينهم تيسير وانتهى التحقيق بإدانتهم جميعا . وركب تيسير رأسه ورفض التراجع عن هرطقته ولم يعترض أى منهم على إحراقه حيا . والجدير بالملاحظة هنا أن المحققين فى بادئ الأمر كانوا يخضعون لسلطة الأسقف . غير أن المحققين خارج تولوز أجروا تحقيقاتهم فى استقلال تام عن الأساقفة . ففى مدينة كاهور مثلا تصرفوا بدون الرجوع إلى أسقف كوبرسى أو استشارته حيث إنهم فى عام ١٢٣٤ أدانوا عددا من الموتى وأخرجوا جثثهم من القبور وحرقوها الأمر الذى أدخل الرعب فى قلب كاثوليكى مؤمن يدعى ريموند بروكياس فهرب إلى روما .

وحين تم فى تولوز إعلان قرار تنصيب دومينيك قديسا فى الكنيسة
أقام الأسقف ريموند قداسًا وقورا فى دير الدومينكان ، وبينما كان ؛
يغادر الكنيسة لتناول طعام الغداء فى مطعم الدير أرسل إليه القديس
يبلغه عن وجود مهرطقين فى بيت يقع فى شارع قريب . وهرع الأسقا
معاونوه إلى هناك فاتضح لهم أن صاحب البيت هو بيافين بورسييه مب
تولوز حيث كانت حماته راقدة تحتضر بسبب الحمى التى أصابتها
الزيارة مباغتة لدرجة أن المرأة المحتضرة لم تشعر بدخول الأسقف ف
وظنت المرأة أن الأسقف القادم زميل لها فى الهرطقة فأسرت له بمعتقدات
عندئذ كشف الأسقف عن هويته وطلب منها نبذ هرطقتها ولكنها أبت ،
إدانة هرطقتها وأمر بحملها على سريرها وإضرام النار فيها فى مك
وألقى القبض على بورسييه وبرنارد ألدربك اللذين وشيا بالكثير من أ
ولما فرغ الأسقف ريموند من أمر المهرطقين قفل راجعا مع أعوانه إلى
الطعام الذى تركوه بعد أن شكروا الله وشكروا القديس دومينيك على حـ

ومع اشتداد مطاردة المهرطقين تزايدت مقاومتهم وتزايدت ضراوة
يدافع عنهم ؛ ففى عام ١٢٣٣ أرسلت الكنيسة اثنين من الرهبان الدومينـ
كورديس للبحث عن المهرطقين . ولكن المواطنين الغاضبين انقضوا عا
بذبحهما . وفى مدينة ألبى ثار الشعب فى ١٤ يونيه ١٢٣٤ عندما رأى
من المهرطقين . وعقابا له على ثورته أمر أرنود المسئول الكنسى كانالا
امرأة مهرطقة تدعى تسييرها من قبرها لإحراقها . ولكن المسئول الكنـ
نفسه على تنفيذ هذا الأمر. فقام أرنود على الفور بمغادرة اجتماع اا
يحضره واتجه إلى الجبانة وأمسك بالمعول وانهال به على القبر ثم أمر ،
ما بدأه ثم عاد إلى السنودس لمواصلة اجتماعه . غير أنه رأى موظفيـ
ليبلغوه أن حشدا من الغوغاء طردهم من الجبانة . وعندما عاد أرنود إلـ
حشدا من الناس يحتلونها فأحاطوا به وتكاثروا عليه وأوسعوه ضربا و
وجنبيه وهم يصيحون : « اقتلوه فليس له الحق فى أن يحيا » وحاول بـ
جره خارج الجبانة لذبحه فى حين اقترح البعض إلقاءه فى نهر كارز

الناس أنقذوه وأعادوه إلى اجتماع السنودس حيث تبعه جمع من الناس وهم يهتفون بموته : وبدا أن جميع سكان ألبى توحدوا وأنهم يؤازرون المهرطقين ويناصبون أرنود العداء الأمر الذى اضطره إلى إلغاء الحظر الذى كان قد فرضه على المدينة المهرطقة ولكن خليفته الراهب فيرر تمكن من حبس الكثيرين وإحراق عدد آخر منهم .

كانت القلاقل أكثر تفاقما فى مدينة ناربون على الرغم من إرسال محققين مخصوصين لهم . ففى مارس ١٢٣٤ تطوع الرئيس الدومينيكانى فرانسو فيربر من تلقاء نفسه بإجراء تحقيق مع المهرطقين وزج بالسجن مواطنا يدعى ريموند دارجان . ولكن تنظيما يعرف بأميستانس هب هبة رجل واحد لإطلاق سراحه . ولكن رئيس الأساقفة بيير أمييل وأميرى فيكونت ناربون قاما بمحاولة إعادة القبض عليه . غير أنهما وجدا أن أعضاء هذا التنظيم يقومون بحراسة بيته . وما إن رآهما بيير أمييل وأميرى كونت قادمين حتى تبعهما أعضاء التنظيم صائحين « قتلوهما .. اقتلوهما . » ونجحوا فى طرد المهاجمين اللذين جاءا لاقتحام البيت . وحدثت مناوشات بين أعضاء التنظيم وبين المهاجمين وألحقوا الأذى بكثير من القساوسة وانتهى الأمر بإلحاقهم الأذى بعدد أكبر من القساوسة ، الأمر الذى دعا رئيس الأساقفة إلى فرض الحظر الكنسى على التنظيم ، ولكن التنظيم تمكن من اقتحام ممتلكاته وطرده من المدينة ، عندئذ ناشد البابا جريجورى التاسع جايم ملك أراجون أن يتدخل للتصدى للمهرطقين ، فى حين اشتكى قناصلة ناربون إلى قناصلة يتميس وطلبوا منهم الدعم والمؤازرة ضد محاكم التفتيش وإجراءاتها القمعية والتعسفية . وانتهى الأمر مؤقتا بعقد هدنة لم تدُم طويلا حيث إن رئيس القساوسة أثار المشاكل عندما حاول إجراء تحقيق جديد وإلقاء القبض على عدد من المارقين . وفى عام ١٢٣٥ ثار الشعب فى وجه الرهبان الدومينكان وأعملوا نهبا وسلبا فى الدير ودمروا كل السجلات الخاصة بالإجراءات التى اتخذتها محاكم التفتيش ضد الهرطقة . والتجأ رئيس الأساقفة بيير إلى خطة خبيثة تتلخص فى فصل المدينة عن ضواحيها وقصر عمل محاكم التفتيش على هذه الضواحى ، الأمر الذى ساعده على الحصول على التأييد العسكرى من الحضر ، فاضطرت ضواحى المدينة إلى الاحتماء بريموند كونت تولوز الذى عين اثنين من غلاة المدافعين عن الهرطقة وهما أوليفيه دى ترميس وجونيود دى نيورت زعيمين

لهذه الضواحى . واندلعت حرب أهلية ضروس بين الريف والحضر استمرت حتى أبريل ١٢٣٧ لتنتهى بهدنة امتدت لعام كامل . وفى شهر أغسطس من هذا العام نفسه تمت دعوة كونت تولوز وعظيم كاركاسون للتحكيم بين الطرفين المتحاربين . وتم عقد معاهدة سلام فى مارس ١٢٣٨ . والذى يدل على انتصار الكنيسة فى هذه الحالة على المهرطقين أنها استطاعت إجبارهم على التوبة لفترة عام فى الأراضى المقدسة ومحاربة المسلمين فى إسبانيا .

كان ريموند كونت تولوز كثير الشجار مع الكرادلة الذين اتهموه بحماية الهرطقة . ولهذا لجأت الكنيسة بصفة متكررة إلى فرض الحظر الكنسى عليه . ورغم كثرة شجاره مع الكنيسة فإنه كان يسعى إلى التصالح معها .. وفى معاهدة صلح عقدها عام ١٢٢٩ اشترطت عليه الكنيسة التوجه إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين فى غضون سنتين ليشن حملة على الكفار هناك لمدة خمسة أعوام . ولكن ريموند حنث بوعده للكنيسة ، فقد امتنع عن شن الحرب المشار إليها لأنه رأى أن غيابه عن البلدة لفترة خمسة أعوام سوف يعرض حكمه للخطر . وفى عام ١٢٣٠ اتهمته الكنيسة بانتهاك شروط معاهدة السلام التى أبرمها . فاضطر إلى التعهد لها ببذل جهود أكبر للتصدى للهرطقة . وفى عام ١٢٣٢ أمره البابا جريجورى التاسع بأن ينشط فى مقاومتها ، مما اضطره إلى مصاحبة أسقف تولوز فى حملة ليلية لمباغتة المهرطقين الذين يحتمون بالجبال حيث تمكن من القبض على تسعة عشر من غلاة المهرطقين والمهرطقات يتزعمهم القائد باجان سيد بيسيد ثم إغراقهم جميعا . ورغم ذلك لم تسامحه الكنيسة لتراخيه فى محاربة الهرطقة ؛ ولهذا دعا المفوض البابوى أسقف تورناى كرادلة لانجو إلى عقد اجتماع يرمى إلى تقديم شكوى للملك لويس ضد أسقف تولوز لتقاعسه عن تنفيذ الاتفاق الخاص باضطهاد الهراطقة ، الأمر الذى اضطر كونت تولوز إلى استنان قوانين صارمة للحد من انتشار الهرطقة فى فبراير ١٢٣٤ . ورغم أن البابا جريجورى التاسع أصدر أوامره إلى أساقفته وكرادلته بالتوقف عن فرض الحظر المتكرر على هذا الكونت فإنهم فرضوا الحظر الكنسى عليه مرتين فى غضون عام واحد . وحين أصدر هذا البابا أمرا جديدا باستئصال الهرطقة فى تولوز ، تظاهر هذا الكونت بالموافقة وساير الكرسى البابوى طمعا فى استعادة

ماركيزية بروفانس ، يؤيده في ذلك لويس ملك فرنسا الذي تزوج أخوه ألفونس من وريثة ريموند كونت تولوز الذي يبدو أنه استطاع أن يتصالح مع البابا جريجوري تصالحا كاملا فقد استقبله هذا البابا في المقر البابوي كما أسند إليه مهمة قيادة الجيش البابوي لإخضاع أهل روما المتمردين عليه والذين طردوا رئيس الكنيسة من مدينتهم . ورغم أن ريموند تولوز لم يفلح في إعادة البابا المطرود إلى كرسيه البابوي فقد اعتبره البابا صديقا له .

وعند عودته إلى بلاده ، وجد ريموند كونت تولوز أن الأمور تتجه نحو التفاقم والتأزم . ففي عيد القيامة في عام ١٢٣٥ وعدت الكنيسة المهرطقين الذين يتوبون عن هرطقتهم بمحض إرادتهم بالعفو عنهم ، الأمر الذي شجعهم على أن يتوافدوا وحدانًا وزرافات إلى الرهبان الدومينكان لإعلان توبتهم . وبسبب كثرتهم لم تتمكن طائفة الرهبان الدومينكان من استتابة المهرطقين الذين أعلنوا تخليهم عن غيهم وضلالهم . فطلبوا من منافسيهم الرهبان الفرانسيسكان وغيرهم من قساوسة المدينة سرعة الحضور لاستتابة الجموع الغفيرة . وشجعت هذه التوبة الجماعية الطواعية رئيس الكهنة بون دي سانت جيل أن يلقي القبض على المهرطقين الذين رفضوا الإعلان عن توبتهم بمحض اختيارهم ومن بينهم المهرطق أرنود دومينيل الذي دفعته رغبته في النجاة بجلده إلى تسليم أحد عشر مهرطقا من معارفه إلى محاكم التفتيش غير أن أربعة من هؤلاء المهرطقين استطاعوا الهرب بمساعدة جيرانهم من الفلاحين . ولكن بعض الهراطقة تمكنوا من الإجهاز على هذا المهرطق الغادر من أجل الانتقام لزملائهم ، بل إنهم استخدموا القوة لإطلاق سراح مهرطق يدعى بيير جويلم ديلورت أثناء اقتياد رئيس دير سانت ترنين له للزج به في السجن . وتناثرت أجساد المهرطقين الذين أحرقتهم الكنيسة في الشوارع لدرجة أفزعت سكان مقاطعة تولوز فالتمسوا من حاكمهم أن يتدخل لوضع حد لهذه الوحشية . وبالفعل حاول كونت تولوز أن يشفع لدى محاكم التفتيش أن تخفف من وطأة تنكيلها . غير أنها لم تكترث بشفاعته فاضطر إلى الشكوى إلى المفوض البابوي في بيير سيك باعتباره مسئولا عن المجازر التي ترتكبها محاكم التفتيش . وطلب كونت تولوز منه أن يأمر المحقق سيلد بقصر

نشاطه على منطقة كوبرسى . فتم نقله إلى كاهور التى جابها طولا وعرضا وهو يرغم جموعا غفيرة على التوبة والاعتراف بذنوبهم .

ولكن استبعاد المحقق سيلد إلى كاهور أشعل غضب زميله جويلم أرنود الذى استدعى للمحاكمة بتهمة الهرطقة اثنى عشر زعيما فى تولوز من بينهم أحد القناصلة ، ولكنهم رفضوا جميعا المثول أمام المحكمة وهددوه باللجوء إلى العنف وإشعال نار الثورة . ولكن جويلم أرنود قابل هذا التحدى بتحدٍّ أكبر ، الأمر الذى جعل حاكم تولوز يطلب منه مغادرة المدينة أو التخلى عن عمله . ولكن زملاءه الرهبان الدومينكان أوعزوا إليه المضى فى تصفية المهرطقين والوقوف فى وجه كونت تولوز غير أن القناصلة تضافروا ضد هذا الراهب العنيد وأخرجوه من المدينة بالقوة . ورغم انتقال هذا الراهب إلى مدينة كاركاسون فإنه أعطى أوامره لرئيس سانت أتيان وقساوسة الأبرشية بالاستمرار فى استدعاء وجهاء المدينة المطلوبين للمحاكمة . ولكن هؤلاء الوجهاء قاموا بحجزهم فى قاعة البلدية ثم طردوهم من المدينة وهم عازمون على قتل أى قسيس يحاول تكرار اتهامهم بالهرطقة . وكذلك هددوا أى شخص يطيع أوامر محاكم التفتيش بالويل والثبور ، ثم أصدر هؤلاء الوجهاء إعلانا باسم كونت تولوز بحظر تعامل الأهالى مع الأكليروس وعدم بيع أى شىء إلى رجال الكنيسة بل إنهم حظروا على الفران أن يخبز أى خبز للأسقف الذى تعرض لهجوم الشعب عليه وعلى مساعديه كما تعرض لسرقة جياده . غير أن حال الرهبان الدومينكان كان أفضل من حال سواهم من رجال الأكليروس حيث إنه كان لهم أصدقاء غافلوا الحراس الذين عينهم القناصلة المتمردون على الكنيسة لمحاصرة بيوتهم وقذفوا فوق الحائط للمحاصرين ضرورات الحياة مثل الخبز والجبن رغم صدور الأوامر إلى الحراس بالقبض عليهم إذا فعلوا ذلك . وتتلخص مشكلة رجال الكنيسة المحاصرين الحقيقية فى نقص الماء الذى يجيئهم من نهر الجارون والذى سيطر عليه المارقون على الكنيسة سيطرة كاملة . ورغم الأخطار المحدقة بهم ظل رجال الكنيسة المحاصرون يكابدون كل هذا العناء وهم يتهللون لإيمانهم بقدسية قضيتهم . ولكن هذا لم يفت فى عضد الراهب جويلم أرنود فأرسل من كاركاسون أمرًا باستدعاء المهرطقين للمثول أمامه بصحبة شاهدين على هرطقتهم . ودق رئيس

الدير الأجراس لدعوة الرهبان إلى الاجتماع وخاطبهم قائلا : « أيها الأخوة اخرجوا وتهللوا لأنه يتحتم على أن أرسل أربعة منكم إلى الاستشهاد ... بناء على أوامر أخينا المحقق جويلم رغم أن إطاعة هذه الأوامر معناها التعرض للذبح على الفور كما هدد القناصلة بذلك . فليتقدم للاضطلاع بهذه المهمة كل من يسعى إلى الموت من أجل المسيح » . وأبدى جميع الرهبان المجتمعون رغبتهم فى الاضطلاع بهذه المهمة فوقع اختيار رئيس الدير على أربعة منهم ، هم ريموند دى فوارا ، وجين دى سانت ميشيل ، وجوى دى ناخار ، وجويلم بليسون . وبلغت جسارة هؤلاء المتطوعين للاستشهاد حدا جعلهم يقتحمون مضاجع المتهمين فى بيوتهم . وفى أحدها تصدى للرهبان أبناء واحد من المهرطقين فاستلوا خناجرهم ولكن بعض الحاضرين حالوا دون الاعتداء عليه .

كان هؤلاء الرهبان على أتم استعداد للشهادة فى سبيل القضاء على الهرطقة ، الأمر الذى جعل من الصعب على القناصلة التعامل معهم . وفى النهاية قرر القناصلة طردهم من الدير . وفى اليوم التالى الموافق الخامس أو السادس من نوفمبر عام ١٢٣٥ اجتمع الرهبان بعد القداس لتناول طعامهم حيث فوجئوا بمقدم القناصلة على رأس حشد كبير يهددونهم بتحطيم باب الدير . عندئذ سار الرهبان فى موكب إلى الكنيسة المجاورة . وما إن جلسوا على المقاعد حتى اقتحمها القناصلة وأمروهم بالخروج . غير أن الرهبان رفضوا الانصياع فقام القناصلة باقتيادهم خارج الكنيسة عنوة وقسرا . وعندما ارتمى راهبان على الأرض قام القناصلة بتوثيق أيديهما وأرجلهما وحملوهما إلى خارج الكنيسة . وبعد اقتيادهما إلى الشارع اصطف الرهبان فى موكب اتجه نحو مزرعة تابعة لكنيسة أرتين وقد ارتفعت عقائرهم بالابتهال والصلاة . وأمر القناصلة الحراس بعدم تزويدهم بأى شىء . وفى اليوم التالى قام رئيس الدير بتوزيعهم على عدد من أديرة المنطقة .

وبطبيعة الحال رفضت الكنيسة هذا الاعتداء الصارخ على حرمتها وحملت ريموند كونت تولوز مسئولية ما فعله القناصلة وأصدرت مرسوما بفرض الحظر

الكنسى عليه وأرسلت هذا المرسوم إلى طائفة الرهبان الفرنسيسكان فى تولوز لإعلانه وتنفيذه . ولكن هراطقة مدينة تولوز المتمردة على سلطان الكنيسة بادرت بطرد هؤلاء الرهبان الفرانسيسكان ؛ وبذلك خلت تولوز تقريبا من جميع رجال الدين ، وأصدرت الكنيسة حظرا آخر على كونت تولوز . وبادر رئيس الدير موت دى سانت بالتوجه إلى إيطاليا ليشكو إلى قداسة البابا من اضطهاد المهرطقين لرجال الدين . واستشاط البابا جريجورى غضبا . فأغلظ القول للكونت تولوز فى رسالة بعث بها إليه فى ٢٨ أبريل ١٢٣٦ مذكرا إياه بالوعد الذى قطعه على نفسه بشن حرب صليبية لتحرير بيت المقدس وأنه حنث بهذا الوعد . واتهمته الكنيسة أيضا بحماية المهرطقين وتوفير ملاذ آمن لهم ، الأمر الذى ساعد على اشتداد ساعدهم وعلى تفشى الهرطقة فى تولوز . وأمرته الكنيسة أن يضع حدا لهذه المهزلة ويتوجه على جناح السرعة إلى الأراضى المقدسة على رأس حملة صليبية .

وأيضا أرسلت الكنيسة إلى الحاكم فردريك الثانى أمرا بمنعه من التعامل مع مرءوسه ريموند لأنه مهرطق أو فى حكم المهرطق على أقل تقدير . وكذلك ناشدت الكنيسة لويس ملك فرنسا أن يتدخل لوقف كونت تولوز عند حده وشددت عليه أن يسرع فى إتمام زواج أخيه ألفونس من جين ابنة ريموند الذى لم يجد مناصا من الرضوخ إلى الكنيسة والمثول أمام المحققين فى محاكم التفتيش فى كاركاسون والاجتماع بالأساقفة الذين انتزعوا منه وعدا بإعادة كل الرهبان ورجال الكنيسة الذين طردهم القناصلة من تولوز . وبالفعل نفذ ريموند هذا الأمر وأعاد إلى تولوز كل الرهبان المطرودين بعد انقضاء عشرة أشهر على طردهم ومن بينهم الراهب جويلم أرنود بطبيعة الحال .

غير أن نشاط المحقق بيير سيلا اقتصر على كويرسى . وبالنظر إلى أن الراهب العائد جويلم أرنود كان يحتاج إلى من يعاونه فى أعماله الدينية فإن المفوض البابوى رأى أنه من المصلحة تعيين معاون له من طائفة الرهبان الفرنسيسكان للتخفيف كما ظن من غلواء التطرف الدومينكانى ولتهدئة ثائرة أهل تولوز على الكنيسة . ولكنه اتضح أن الراهب الدومينكانى جويلم أرنود آنس إلى الراهب الفرنسيسكانى أتيين دى سانت ثيبرى فاتفقا فى الرأى واتخذا المواقف الساعية إلى استئصال الهرطقة .

تصدى الراهب جويلم أرنود للهرطقة بلا كلل أو ملل . وحتى فى فترة نفيه من تولوز إلى كاركاسون انصرف إلى محاكمة السينور دى نيورت وأدانه وأصدر الحكم عليه فى فبراير (أو مارس) ١٢٣٦ . وفى باكورة عام ١٢٣٧ نرى الراهب جويلم ينشط فى تعقب المهرطقين فى كويرسى حيث تعاون مع المحقق بيير سيلا فى ملاحقتهم فى مونتوبان . وفى فترة غياب جويلم أرنود عن تولوز جنح عدد من عتاة المهرطقين وأبرزهم إلى التوبة والعودة إلى أحضان الكنيسة مثل المهرطق المخضرم المرموق ريموند جرلوس الذى ظل زعيما محبوبا لإحدى الطوائف المهرطقة لأكثر من عشرين عاما ، ففى ٢ أبريل من العام المشار إليه سلم نفسه إلى دير الدومينكان طالبا من الكنيسة قبول توبته وواعدا إياها بتنفيذ كل طلباتها وأثناء اعترافاته بذنبه أماط اللثام عن شبكة المهرطقين الكاثاريين الذين كان على علاقة بهم . وجاءت اعترافاته مفصلة ودقيقة لدرجة أن تدوينها على الورق استغرق عدة أيام . وباح هذا الزعيم التائب بأسماء علية القوم والوجهاء من المهرطقين . وبطبيعة الحال بث اعترافاته الرعب والفزع فى المهرطقين الذين انخلعت قلوبهم خوفا من أن تطولهم محاكم التفتيش .

كانت هذه الحادثة فرصة ذهبية هبطت على جويلم أرنود من السماء . فقد أصابت اعترافات المهرطق التائب زملاءه بالذهول ولم يجرؤ أى منهم على إنكار الاعترافات التى وردت على لسان المهرطق التائب ريموند جروس . واضطر الكثيرون منهم إلى الفرار كما تراجع كثيرون عن هرطقتهم وكشفوا عن وجود شبكات هرطقة جديدة . وهكذا اتسعت دائرة المتهمين وأعدت قوائم طويلة تضم أسماء أناس هرطقوا أثناء احتضارهم الأمر الذى جعل محاكم التفتيش تخرج أعدادا غفيرة فى جثثهم من القبور وحرقها ثم مصادرة أموال وممتلكات أصحابها . وتحت هذه الضربة الموجعة ترنحت حركة الهرطقة المتفشية فى تولوز وسيق إلى المحرقة فرسان ونبلاء ووجهاء كثيرون من تولوز ، مما أدى إلى انهيار تنظيمهم السرى . وحتى ندرك ضخامة أعداد المهرطقين آنذاك يكفى أن نقول إن حكما واحدا أصدرته محاكم التفتيش فى ١٩ فبراير ١٢٣٨ شمل أكثر من عشرين نائبا صدر ضدهم حكم بالسجن المؤبد .

وبذلك تكون محاكم التفتيش قد أحرزت نصراً مبيناً على المهرطقين . وحتى نتمكن من إحكام قبضتها على المهرطقين أقامت هذه المحاكم دوائر عديدة فى كل المدن تخضع لسيطرتها . ونجحت هذه السياسة القمعية فى تشتيت المهرطقين ودفعهم إلى الهروب من البلاد . وفى بلدة بروفانس أظهر المحقق بون دى لاسبار نشاطا ملحوظا فى ملاحقة أعداء الكنيسة فى حين ناشدت مدينة مونبيليه البابا جريجورى أن يتدخل لمنع تدفق المهرطقين الفارين إليها . فأمر هذا البابا مفوضه جين دى فبينا بالذهاب إلى هناك واتخاذ الإجراءات المناسبة للحيلولة دون تدفقهم إلى مونبيليه .

ويبدو أن ريموند كونت تولوز ضاق ذرعا من كثرة أوامر الحظر التى فرضتها الكنيسة عليه فامتنع عن الوفاء بوعده بالرحيل إلى الأراضى المقدسة كما قام بالاستيلاء على مارسيليا الثائرة فى وجه حاكمها كونت بروفانس الأمر الذى أثار غضب البابا جريجورى لما رآه فى ذلك من حماية للمهرطقين . وسعى كونت تولوز إلى شفاعة الملك لويس والملكة بلانش لدى البابا الغاضب وشفعا لديه حتى وافق على إرجاء قيامه بحملته الصليبية لمدة عام آخر كما أنه أصدر أمرا يقضى بعدم تمكين الرهبان الدومينكان من السيطرة على محاكم التفتيش نظرا لأنهم على حسب قوله يحملون لكونت تولوز المقت والكراهية .

ولكن المشاكل بدأت تتفجر من جديد فى مدينة تولوز . ففى ٢٤ يولية ١٢٣٧ فرضت محاكم التفتيش حظراً كنسيا على قناصلها لإحجامهم عن القبض على المهرطق ألامان دى روا وبعض المهرطقين الآخرين وإحراقهم وضاق ريموند بهذا التدخل فى شئونه فعقد العزم على وضع حد له . وتكللت مساعيه فى هذا الصدد بالنجاح . ففى ١٩ مايو ١٢٣٨ استطاع الحصول على أمر بإيقاف أعمال محاكم التفتيش لمدة ثلاثة أشهر . فضلا عن أن البابا استمع باهتمام إلى مطالب مبعوثيه الذين استطاعوا إقناع الكرسى البابوى بالكتابة إلى أسقف تولوز يأمره باستمرار إيقاف أعمال محاكم التفتيش حتى يتمكن مفوضه الجديد كاردينال بالسترينا من فحص الشكاوى التى وصلته عن تجاوزات الرهبان الدومينكان وتمحيص مدى

إمكانية الاستجابة إلى طلب كونت ريموند بقصر النظر فى أمور الهرطقة على الأساقفة كما جرت العادة فى الماضى . وأيضا تم تخفيض فترة الحملة الصليبية التى تعهد بشنها إلى ثلاثة أعوام شريطة أن يعطى لويس ملك فرنسا تأكيدات بالإبحار إلى الأراضى المقدسة فى العام التالى وإصلاح أخطائه التى ارتكبها فى حق الكنيسة . ومقابل هذه التعهدات حصل ريموند على غفران الكنيسة لخطاياه . وعلى حل من أى حظر سبق فرضه عليه . والذى لا شك فيه أن المفوض البابوى نجح فكبح جماح محاكم التفتيش حتى عام ١٢٤١ .

وعندما قبل البابا إسناد مهمة التحقيق إلى أساقفة تولوز بدلا من محاكم التفتيش تنفس المهرطقون الصعداء حيث إن الأساقفة تقاعسوا فى أداء واجبهم واهتموا بمتاع الدنيا وزخرفها أكثرمن اهتمامهم بملاحقة المهرطقين على عكس الرهبان الدومينكان الذين نذروا أنفسهم للقضاء على الهرطقة . وبطبيعة الحال شجع هذا المهرطقين على التمادى فى هرطقتهم وأن يطلوا برءوسهم من جديد . وتاق المهرطقون التائبون إلى العودة إلى سابق هرطقتهم بعد نجاحهم فى استرداد ممتلكاتهم المصادرة . وتطلعت كل عائلات تولوز إلى الثأر من محاكم التفتيش وما أنزلته من عقاب قاس ببعض أفرادها . كما أن كثيرا من دعاة الهرطقة لاذوا بالجبال والكهوف والغابات يبشرون بالمروق . ونظرا لكثرة المهرطقين وقلة السجون لم يتمكن الكرادلة من تنفيذ الأحكام بالسجن فى كثير من الحالات .

وفى عام ١٢٤٠ قام ترينسافل Trencavel – ابن فيسكونت بيزييه (وابن عم الكونت ريمود) الذى نجح سيمون دى موتفورت فى القضاء على والده – بإضرام الثورة على الكنيسة . وأحضر ترنسافل من كاتالونيا فى إسبانيا قوات أحسن أهل بيزييه استقبالها . وتمكنت هذه القوات من تطويق مدينة كاركاسون . وما إن استسلمت له ضواحى كاركاسون حتى قام وأتباعه بذبح ثلاثين رجلاً من رجال الكنيسة بدم بارد رغم إعطائهم الأمان بالذهاب إلى ناربون . ولكن القوات الملكية بقيادة جين دى بومنت Jean de Beaumont سرعان ما أخمدت هذا التمرد وقضت قضاء مبرما على جميع الأشراف المتمردين . ولكن هذه التجربة أوضحت بجلاء أن

رجال الكهنوت العاديين مثل الأساقفة والكرادلة لا يصلحون للتصدى لانتشار الهراطقة بسبب انشغالهم بأمور الدنيا . والجدير بالذكر أن الهراطقة بلغوا حدا من العنف والضراوة والبأس والمنعة جعل الكاثاريين فى عام ١٢٤١ يعقدون اجتماعا حاشدا على ضفة نهر لارنيتا تحت رئاسة أسقف مدينة ألبى المهرطق أيمرى دى كوليت Aymeri de Collet . وأمام استشراء الهرطقة فى الجنوب الفرنسى اقتنعت الكنيسة والدولة على حد سواء بأن الاعتماد فى محاربة الهرطقة على الأساقفة العاديين بلا جدوى وبأن تفعيل محاكم التفتيش ضرورة لا محيص عنها .

مات البابا جريجورى التاسع مؤسس محاكم التفتيش فى ٢٢ أغسطس عام ١٢٤١ . وأغلب الظن أنه قبل وفاته أطلق هذه المحاكم من عقالها بعد أن قيد حركتها لفترة من الزمن على نحو ما رأينا ، ثم تولى الكرسى البابوى من بعده سلستين الرابع الذى لم تدم فترة بابويته أكثر من تسعة عشر يوما تبدأ فى ٢٠ سبتمبر عام ١٢٤١ وتنتهى فى ٨ أكتوبر من العام نفسه . وبوفاته ظلت رئاسة الكرسى البابوى شاغرة لحين انتخاب البابا أنوسنت الرابع فى ٢٨ يونيه ١٢٤٣ . ومعنى هذا أن الكرسى البابوى ظل خاليا لما يقرب من عامين كاملين . واتبع ريموند كونت تولوز فى تلك الفترة سياسة رامية إلى استرضاء البابا جريجورى التاسع بسبب طمعه فى إلغاء الحظر الكنسى المفروض عليه والذى تكرر أربع مرات وطمعه أيضا فى التساهل معه فى شن الحرب الصليبية التى وعد بالقيام بها لتحرير بيت المقدس من يد المسلمين الكفار ، وفى يوم ١٨ أبريل ١٢٤١ وقع ريموند كونت تولوز معاهدة تحالف مع جايم الأول حاكم أراجون من أجل الدفاع عن الأراضى المقدسة والعقيدة الكاثوليكية ضد الهرطقة . وبسبب رغبته فى استرضاء الكنيسة لم يعارض ريموند فى عودة محاكم التفتيش بعد توقيفها لفترة وجيزة إلى سابق بأسها وعنفوانها . ولكن يبدو أنه تورط بشكل ما فى التمرد الذى ذكرنا أن ترانسافيل اضطلع به ، الأمر الذى جعل لويس ملك فرنسا يستدعيه فى ١٤ مارس من العام نفسه ، ويجبره على التعهد بالقضاء على المهرطقين المتمردين وأن يسارع بالاستيلاء على قلعة مونتسيجور آخر معقل للهرطقة .

وتلقى حالة أشراف فينويليد الذين انخرطوا فى تمرد ترنسافيل المشار إليه الضوءً على العلاقة التى ربطت بين الدين والسياسة فيما يتعلق بنشأة محاكم التفتيش وتطورها ، وكذلك الصعوبات البالغة التى اصطدمت بها هذه المحاكم فى التصدى للمهرطقين المتشبثين بهرطقتهم اعتزازًا منهم بقوميتهم وروحهم الوطنية . ونذكر مصداقا لارتباط الدين بالسياسة حالة ثلاثة إخوة من علية القوم هم جويلم جويرود Guillem Guiraud وبرنار أوثو Bernard Othe وجـــويرود برنارد Guiraud Bernard بالإضافة إلى أمهم إسكلارموند Esclar monde حرصت محاكم التفتيش على إلقاء القبض عليهم بتهمة الهرطقة . ووصفتهم التحقيقات الشاملة التى أجرتها محاكم التفتيش برئاسة الكاردينال رومانو عام ١٢٢٩ بأنهم من قيادى الهرطقة البارزين . كما أن مجلس تولوز آنذاك أدان اثنين من هؤلاء الإخوة باعتبارهما عدوين لله وهددهما بالطرد من الكنيسة إذا رفضا الاستسلام فى خلال خمسة عشر يوما . وفى عام ١٢٣٣ قام هذان الأخوان بحرق ممتلكات بيير أميل رئيس أساقفة ناربون . فضلا عن اعتدائهما عليه وإصابته بجرح وهو فى طريقه إلى الكرسى البابوى الأمر الذى جعل البابا جريجورى التاسع يأمره بالاشتراك مع أسقف تولوز فى اتخاذ إجراء حاسم ضده . ثم قام الأسقف ريموند دى فوجا بالاشتراك مع مسئول الكنيسة فى تولوز بإجراء تحقيق معهما . ثم أخذت شهادة رئيس أساقفة ناربون المعتدى عليه بيير أميل بالإضافة إلى شهادات مائة وسبعة أشخاص آخرين . وأقرت شهادة هؤلاء الشهود بهرطقة الإخوة الثلاثة وبأنهم وفروا الحماية فى قلعة دورن لنحو ثلاثين مهرطقا من عتاة المهرطقين وبأنهم نجحوا فى اغتيال أندريه شوليت مسئول كاركاسون الدينى انتقاما منه لأنه كان يسعى إلى جمع الأدلة التى تدينهم . وذكر بعض الشهود بأن برنارد أوثو فى إحدى المناسبات أخرس قسيسا أثناء وعظه فى الكنيسة واستبدل به واعظا مهرطقا .

ورغم هذا فإن هؤلاء الإخوة الثلاثة المهرطقين وجدوا من يدافع عنهم ويشهد لهم بصحيح الدين وصحة العقيدة . فقد شهد شاهد منهم بأن برنارد أوثو كان غيورا على دينه الكاثوليكى وأنه أهلك وحده ألف مهرطق . وأيضا شهد له قسيس آخر بأن أوثو ساعد فى إلقاء القبض على المهرطقين . ورغم هذا الدفاع عنهم فإن محاكم

التفتيش عند إعادتها اتخذت موقفا مناهضا لهم . وفى عام ١٢٣٥ قام المحقق جويلم أرنود فى فترة وجوده فى كاركاسون وبمساعدة رئيس شمامستها باستدعاء الإخوة الثلاثة ومعهم أمهم للمثول أمام محكمة التفتيش . فاستجاب كل من الأخوين برنارد أوثو وجويلم لهذا الاستدعاء وتقيا تورطهما فى أية هرطقة . ولكن المندوب الملكى ألقى القبض عليهما وأجبر جويلم على الاعتراف بهرطقته فحكمت عليه محكمة التفتيش بالسجن المؤبد فى ٢ مارس ١٢٣٦ فى حين أصر برنارد أوثو على إنكاره . غير أن محكمة التفتيش لم تكترث لإنكاره وأصدرت حكمها عليه فى ١٣ فبراير ١٢٣٦ وأجريت الاستعدادات لحرقه .

وأيضا تمت فى ٢ مارس ١٢٣٦ إدانة جيرود وأمه إسكلارموند لامتناعها عن المثول أمام المحكمة . ومن ناحيته أخذ جيرود يحصن نفسه وقلاعه تحصينا عظيما؛ الأمر الذى أفزع الفرنسيين الذين مارسوا ضغطهم الشديد على المندوب الملكى كى يطلق سراح الإخوة الثلاثة ، فاستجاب المندوب الملكى لهم . ولم يتمكن المحققون فى محاكم التفتيش من التحقيق معهم واكتفوا بإدانة كل العائلة على الورق فقط . ومعنى ذلك أن منعة هذه العائلة المهرطقة السياسية كانت السبب فى عجز محاكم التفتيش عن إصدار أية أحكام عليها . ولكن هروب هذه العائلة المنيعة بجلدها من ملاحقة محاكم التفتيش كان الاستثناء وليس القاعدة . وكذلك بعد مرور عامين فشلت جهود المحققين فى إرغام كونت تولوز على تنفيذ أحكامهم المتعلقة بمصادرة ممتلكات عدد من النبلاء .

غير أن الفشل الذى منيت به ثورة ترانسافيل قوى من ساعد محاكم التفتيش وجعل الأعيان المهرطقين يسعون إلى التصالح معها بدلا من تحديها . وأجبر برنارد أوثو على المثول أمام محاكم التفتيش كما أن المهرطق جويلم دى نيورت أعلن رضوخه واستسلامه وتخلى عن قلاعه للملك لويس كشرط لتصالح عائلته مع الكنيسة . وعقد الملك مع هذه العائلة اتفاقية صلح فى يناير ١٢٤١ واشترط على الإخوة الثلاثة أن يعيشوا خارج مدينة فينوليد التى يتحصنون فيها . ومن الواضح هنا أن الملك الفرنسى تحالف مع الكرسى البابوى لتطهير جنوب فرنسا من المهرطقين لأسباب اقتصادية بقدر ما هى دينية .

وكما قلنا كان لإخفاق ثورة ترنسافيل أثر عظيم فى انحسار الحركات المهرطقة بشكل واضح وتعاظم نفوذ محاكم التفتيش . وقد حفظت لنا الوثائق سجلا بالأحكام التى أصدرها المحقق بيير سيلا على المهرطقين فى غضون بضعة أشهر بين عامى ١٢٤١ و ١٢٤٢ . وكما سبق أن ذكرنا جرت العادة عند زيارة محققى محاكم التفتيش لأية مدينة أن يعلنوا عن فترة سماح لإعطاء فرصة للمهرطقين للإعراب عن توبتهم باختيارهم ومحض إرادتهم تفاديا لاستعمال أساليب القسر معهم مثل السجن ومصادرة الأملاك والحرق على الخشبة (راجع كتاب « محاكم التفتيش » دار الهلال ٢٠٠١) . وفيما يلى جدول يبين الأحكام التى أصدرها المحقق بيير سيلا وكذلك أماكن إصدارها فى الفترة المذكورة .

اسم المكان	عدد الأحكام	تاريخها
جوردون	٢١٩	عيد ميلاد السيد المسيح فى ١٢٤١
مونتكويك	٨٤	عيد الصوم الكبير فى ١٢٤٢
سوفيتير	٥	
بيلكاير	٧	
مونتوبان	٢٥٤	أسبوع قبل عيد الصعود (٢١ - ٢٨ مايو ١٢٤٢)
مويساك	٩٩	أسبوع الصعود (٢٨ مايو - ٥ يونية ١٢٤٢)
مونتبيزات	٢٢	عيد الصوم الكبير ١٢٤٢
مونتوت	٢٨	عيد الصوم الكبير ١٢٤٢
كاستلنو	١١	عيد الصوم الكبير ١٢٤٢
المجموع	٧٢٩	

وبين مجموع التائبين صدرت الأوامر إلى أربعمائة وسبعة وعشرين منهم بالحج إلى مزار كومبو ستيلا فى الشمال الغربى من إسبانيا . وهو مزار ناءٍ يقع على بعد أكثر من أربعمائة ميل فى المسالك الجبلية الوعرة . وكذلك صدر الأمر إلى مائة وثمانية تائبين بالحج إلى قرار كانتربرى بإنجلترا . كما أمرت محاكم التفتيش تائبين فقط بزيارة روما واشتراك تسعة وسبعين منهم فى الحروب الصليبية لفترات تتفاوت من عام إلى ثمانية أعوام . وليس أدل على العجلة التى تم بها إصدار الأحكام من أن تسجيل اعترافات المهرطقين التائبين فى مدينة جوردون البالغ عددهم مائتين وتسعة عشر شخصا وإصدار الأحكام ضدهم لم يستغرق سوى أربعة أسابيع . بل إن الحكم على مهرطقى مونتوبان البالغ عددهم مائتين وخمسة وعشرين شخصا لم يستغرق أكثر من أسبوع واحد قبل عيد الصعود أى بمعدل ٤٢ تائبا كل يوم .

وبسبب كثرة أعداد المهرطقين فى كل من جوردون ومونتكاك لم يجد المؤمنون الكاثوليك غضاضة فى الاختلاط بهم ، الأمر الذى عرضهم بطبيعة الحال للمخاطر والمهالك . وقد كان أحد القساوسة تربطه علاقة وطيدة ببعض المهرطقين يلتقى بهم فى كرمتهم ويطالع كتبهم ويأكل فاكهة الكمثرى معهم مما أثار حفيظة محاكم التفتيش فمنعته من مزاولة عمله الكهنوتى وأرسلته للتوبة والاستغفار إلى مزار كومبو ستيلا ثم إلى روما . وأيضا رأى أحد المواطنين ويدعى سوفيتير ثلاثة هراطقة يدخلون منزل رجل مريض ، ونما إلى سمع سوفيتير أنهم أغروه بالهرطقة الأمر الذى كان كافيا لاستتابته . فضلا عن أن شخصا اسمه بيلكافر نقل رسالة مهرطق إلى مهرطق آخر فاستتابته محاكم التفتيش وأرغمته على الحج وزيارة الأماكن المقدسة فى كل من بوى وسانت جيليس وكومبو ستيلا . وكذلك استتيب طبيب فى مونتو بان لأنه عالج ذراع رجل مهرطق بأن ضمدها . وكذلك تمت استتابة بعض المراكبية لأنهم قاموا بنقل بعض المهرطقين فى قواربهم رغم جهلهم بهرطقتهم . وعوقبت امرأة لأنها شوهدت وهى تأكل وتشرب مع امرأة أخرى مهرطقة . وكذلك عوقبت امرأة لأنها استشارت مهرطقا من طائفة الوالدنسيين بشأن علاج ابنها المريض . وعوقب رجل لمجرد رؤيته مهرطقين مرتين أو ثلاث مرات . ورغم توبته وتصالحه مع الدير بتقديم بعض الهدايا له فقد أرسلته محاكم التفتيش إلى الحج فى كل من كومبوستلا

وكانتربرى بالإضافة إلى إرغامه على لبس صليب أصفر لمدة عام . وأيضا أرسل رجل آخر ليحج فى كومبوستيلا لأنه تصادف أنه ركب فى قارب يقل عددا من المهرطقين .

وهكذا تغيرت الأحوال من النقيض إلى النقيض فبعد أن رأينا الكاثوليك فى منطقة لانجويدوك يخالطون المهرطقين الوالدنسيين والكاثاريين فى الحياة اليومية نجد أن محاكم التفتيش بدأت تكشر عن أنيابها وتهدد الكاثوليك بالويل والثبور إذا لم يقاطعوا هؤلاء المهرطقين مقاطعة كاملة ؛ الأمر الذى بث الرعب والفزع فى نفوس الأهالى وخلع قلوبهم لمجرد سماعهم عن وصول محققين فى محاكم التفتيش على رأسهم بيير سيلا وجويلم أرنود . وليس أدل على ضخامة أعداد ضحايا محاكم التفتيش من أن مجلس ناربون التمس من المحققين تأجيل تنفيذ أحكام السجن الصادرة ضد المهرطقين والمشتبه فى هرطقتهم لأن أعدادا غفيرة منهم قررت التوبة بعد فوات مدة السماح كما أنه استحال على السلطة المدنية توفير المال اللازم لبناء سجون تكفى لإيواء كل هذا الحشد الغفير من المهرطقين .

وقد ظلت مونتسيجور لعدة سنوات الملاذ الآمن الذى يلجأ إليه المهرطقون الكاثاريون . ورغم تدمير هذا الملاذ الآمن فقد أعاد ريموند دى ميريل بناءه كملاذ استمر أربعين عاما ودافع عنه ميريل بكل ما أوتى من عزم وقوة . وفى عام ١٢٣٢ استشعر الأساقفة المهرطقون فى كل من تنتو آجن وجويلابرت دى كاستريس فى تولوز وعدد من القساوسة هناك ضرورة توفير ملاذ حصين يلجأ إليه المهرطقون هربا من الاضطهاد الواقع عليهم ، فاتفقوا مع ريموند دى ميريل على أن يقوم بتوفير الحماية للمهرطقين الكاثاريين وما يحملون من كنوز . وبالفعل خصص هذا الرجل قلعته الواقعة فى منطقة ميرابو كملجأ لهم يحميهم من مطاردة الفرنسيين . وحين شعر المهرطقون بوطأة محاكم التفتيش عليهم لاذوا بهذ القلعة . حتى ريموند دى ميريل نفسه لاذ بها عند هروبه مع زوجته كوربا من تولوز عام ١٢٣٧ . ومن المعروف أن ابنته إيسكلارموند استمسكت بهرطقتها وفضلت أن تموت حرقا على الخشبة على خيانة مبادئها المهرطقة . ولا شك أن هذه المقاومة العنيفة من جانب المهرطقين ضد محاكم التفتيش هددت استقرار الكنيسة والدولة .

وفى ليلة عيد الصعود عام ١٢٤٢ عندما كان بيير سيلا المحقق يختتم أعماله فى هدوء فى يونتويان أصيب بالفزع فى أفيجنونيت وهى بلدة صغيرة تبعد نحو اثنى عشر فرسخا عن تولوز بسبب الأفعال الفظيعة التى اقترفها المحقق الجهم الصارم جويلم أرنود والمحقق المهذب الدمث إيتينان دى سانت ثيبرى . وهى أعمال فظيعة شبيهة بالفظائع التى سبق للمحقق بيير سيلا أن ارتكبها . وتدل الأحكام التى أصدرها هذان المحققان على قيامهما فى نوفمبر عام ١٢٤١ بتطهير كل من مدينتى لافور وسانت بول دى كوجو من المهرطقين وأن حضورهما إلى أفيجنونيت كان فى ربيع عام ١٢٤٢ . وبمجرد أن سمع ريموند دالفارو وأعوانه عن قدوم المحققين إلى بلدة أفيجنونيت حتى استعدوا للتصدى لهم وقطع دابرهم . وأرسل إلى المهرطقين المحتمين بقلعة مونتسيجور يطلب منهم العون والنجدة فقام بيير روجر بإرسال عدد من الفرسان وحاشيتهم إليه على الفور . وتمركزت هذه القوة فى غابة قريبة من أفيجنونيت يقال لها جاياك للتزود بالطعام وقد انضم إليها نحو ثلاثين رجلا مسلحا . وتدل السرعة التى استجاب بها هؤلاء المسلحون بطلب العون على عمق الكراهية التى حملها المهرطقون للمحققين ومحاكم التفتيش . وقد يكون من الغرابة أن نجد قسيسا يستضيف هؤلاء المناوئين لمحاكم التفتيش ويحسن وفادتهم فى قلعة يقال لها قلعة القديس فيلكس وحضر المحققون وأتباعهم البالغ عددهم أحد عشر شخصا فرحب بهم حاكم المدينة فى قلعته واستعدوا لافتتاح محكمتهم الرهيبة فى اليوم الثانى . وما إن هبط الظلام حتى تسلل لمراقبتهم عدد من مناوئيهم من المهرطقين فوجدوهم يحتسون الخمر ، ثم عاد المتسللون لرصد حركاتهم فوجدوا أنهم بدأوا بالخلود إلى النوم . ويبدو أنهم شعروا بالخطر الذى يتهددهم لأنهم ناموا جميعًا فى القاعة الكبرى بعد أن أقاموا المتاريس خلف الأبواب الموصدة . وعن طريق الغدر والخيانة فتح أحد أعوان المحققين باب القصر الذى ينامون فيه ليدلف إليه مهرطقو قلعة مونتسيجور بعد أن انضم إليهم والفاروا وخمسة وعشرون رجلا من بلدة أفيجنونيت . وقام المهاجمون القتلة بتحطيم باب القاعدة واندفعوا نحو المحققين يسفكون دماءهم ويعملون فيهم ذبحا وتقتيلا . وكان دالفاور يزهو بأعماله الدموية وتهشيم جمجمة المحقق جويلم أرنود ولم يكتف المهاجمون بذلك بل أعملوا فيهم نهبا وسلبا واقتسموا جيادهم وكتبهم

وملابسهم . وما إن وصلت أخبار مذبحة المحققين إلى الكرسى البابوى حتى سارع بجمع الكرادلة من أجل اعتبارهم شهداء السيد المسيح وكان أول ما فعله البابا أنونسنت الرابع عند اعتلائه الكرسى البابوى فى يونيه ١٢٤٣ أن أكد استشهاد هؤلاء المحققين الضحايا . غير أن تطويبهم واعتبارهم قديسيين جاء متأخرا فى عام ١٨٦٦ فى عهد البابا بيوس التاسع .

كانت مجزرة أفيجونيت التى ارتكبها للهرطقون المتمردون ضد المحققين خطأ فادحا لأنها بثت الرعب فى قلوب الناس حتى الذين لا يحملون الود لمحاكم التفتيش وأقنعتهم بضرورة استئصال الهرطقة . وأجرى الراهب فيرير المحقق فى محكمة تفتيش كاركاسون تحقيقا لمعرفة ملابسات المجزرة كما أن بعض المشتركين فيها أدلوا باعترافاتهم التفصيلية بعد سقوط ملاذ المهرطقين فى قلعة مونتسيجور عام ١٢٤٤ . ولكن الجناة الحقيقيين تمكنوا من الفرار . واستسلم جانب من المتمردين فتمت ترقية واحد من أشد العصاة وهو ريموند ألفارو إلى وظيفة مسئول تولوز . أما زعيم المتمردين الآخر وهو جويلم دى ماسنيتس بويل فقد أقسم على الولاء للحاكم الفرنسى ألفونس شقيق لويس ملك فرنسا فى عام ١٢٤٩ بعد أن وافت المنية ريموند حاكم تولوز . ولا شك أن اشتراك جويلم دى ماستنيس بويل فى التمرد على المحققين ينم عن اشمئزاز الكثيرين من قسوة محاكم التفتيش وجبروتها ؛ فقد تمرد هذا الرجل عليها بعد أن كان من أشد الناس ولاء للكنيسة إبان فترة عمله عام ١٢٣٣ فى لافور لأنه فى تلك الفترة نفذ الأوامر التى أصدرتها محاكم التفتيش إليه وقبض على عدد من المهرطقين ونقلهم من لافور إلى تولوز حيث تم إحراقهم على الفور . ومن سوء حظ الكونت ريموند وقعت مجزرة أفيجونيت فى وقت كان يرنو فيه إلى استعادة نفوذ ومكانة عائلته الحاكمة ويطمع فى تحقيق استقلال تولوز وخاصة لأن الكونت ريموند اشتهر بعدائه للمحققين الدومينكان وعارض نفوذهم وطلب إلى الكرسى البابوى ألا يرسل أيا من المحققين الدومينكان إلى أراضيه ، مؤكدا للبابا رغبته الجادة فى استئصال الهرطقة . وحتى يظهر الكونت ريموند جديته طلب من الأساقفة أن يلعبوا دورا نشطا من أجل استئصالها ووعد بتقديم الدعم لهم . ورحب ريموند كونت تولوز بأن يتولى الرهبان مهمة التحقيق مع المهرطقين بشرط أن يحتفظوا باستقلالهم عن التنظيمات الرهبانية التى ينتمون إليها . وقد هدد أحد معاونيه فى كلمة ألقاها فى

كنيسة وساك بالقبض على أى شخص ينفذ العقوبات التى يفرضها عليه المحققون ومصادرة ممتلكاته ؛ لأنه لم يخولهم سلطة المحاكمة . ولهذا كان من الطبيعى أن تعتبره محاكم التفتيش شريكا فى المجزرة التى حدثت .

كان كونت ريموند قد فقد مؤخرا جانبا من أراضيه ، استولت عليه عائلة كابيت Capet . ومن أجل استرداد ما فقد تحالف كونت ريموند مع ملوك إنجلترا وكاستيل وأراجون وغيرهم من الأمراء ، ولكن حدوث مجزرة أفيجنونيت كان السبب فى انفضاض بعض الموالين له عنه كما أنه بدا كما لو كان انتصار المهرطقين على محاكم التفتيش أمرًا لا محيص عنه . ولكن تدخل قوات لويس ملك فرنسا حسم الموضوع بشكل نهائى لصالح الكنيسة ومحاكم التفتيش ضد المهرطقين المتمردين؛ الأمر الذى جرد ريموند كونت تولوز من مساندة حلفائه الإنجليز والجاسكون . وعندما انتشر الطاعون وتسبب فى انسحاب الجيش الفرنسى تحرك المقاتل المخضرم إمبرت دى بيجو Imbert de Beaujeu ليحل محل هذا الجيش فى الوقوف فى وجه كونت ريموند . وعندما شعر هذا الكونت أن الأمور تجرى لغير صالحه عرض الصلح مع الكنيسة قاطعا على نفسه عهدًا باستئصال الهرطقة ومعاقبة مرتكبى مجزرة أفيجنونيت، ووافقت الكنيسة على الصلح بعد أن اشترط عليه ملك فرنسا أن يتعهد بأن يجعل كل مواطن من رعاياه فوق الخامسة عشرة يتصدى للمتمردين والخارجين على الكنيسة ، كما توعد ريموند نفسه فى حالة عودة الهرطقة إلى تولوز . وهكذا رجحت كفة الكنيسة على كفة المهرطقين .

وبانتصار الموالين للكنيسة الكاثوليكية على المهرطقين أخفقت محاولة الجنوب الفرنسى لاستعادة استقلاله ، فضلا عن أن محاكم التفتيش أكدت سطوتها . وعبثا حاول ريموند كونت تولوز مرة أخرى ضم الجيش المنعقد فى بيزييه بتاريخ ٢٠ أبريل ١٢٤٣ وحث أساقفة مقاطعته فى كل من تولوز وكاهور وألبى وروديتر ومندوبيهم سواء كانوا ينتمون إلى طوائف السستريان أو الدومينكان أو الفرانسيسكان على مطاردة المهرطقين والتحقيق معهم بكل همة ونشاط واعدا إياهم بتقديم العون لهم فى تنفيذ الأحكام . وبعد اعتلاء البابا أنوسنت الرابع سدة الكرسى البابوى سعى عدد من الرهبان الدومينكان بدافع الرعب مما حدث لزملائهم فى مجزرة أفيجنونيت

إلى التنحى والتنصل عن الاضطلاع بمهمة التحقيق مع المهرطقين ولكن البابا رفض رغبتهم فى التنحى وأمرهم بمواصلة التحقيق مع المهرطقين حتى لو أدى ذلك إلى استشهادهم .

غير أن الضعف والتردد الذى أظهره بعض رجال الدين فى التصدى للهرطقة لم يمنع من وجود رجال دين نشطاء وعلى أتم استعدد لتعريض أنفسهم لمخاطر مقاومة المهرطقين . وساعد على ذلك أن الرجل العادى أصابه الغثيان من جراء المجازر البشعة التى ارتكبها المهرطقون فى أفيجنونيت ومن جراء فشل التمرد الذى قام به ريموند . وقد دفع اشمئزاز عامة الناس من المجازر التى راح كثير من الرهبان ضحيتها إلى التمسك بالمعتقدات الراسخة ورفض المروق عليها . وفى أكتوبر عام ١٢٤٣ قام دوراند أسقف مدينة ألبى بتكوين تنظيم يهدف إلى التصدى للهرطقة ثم ما لبث أن نشأت تنظيمات أخرى مماثلة فى أماكن أخرى ، وتولى القديس سيليا حماية التنظيم الذى أنشاه أسقف ألبى . وتعهد أعضاء هذا التنظيم بتوفير الحماية لزملائهم ومساعدة الأسقف فى تنفيذ الأحكام التى يصدرها ضد المهرطقين والمتواطئين معهم فى ألبى وفودوا وتوفير الحماية والسلامة للمحققين فى محاكم التفتيش . ورصد هذا التنظيم مكافأة من الفضة لمن يلقى القبض على مهرطق ويسلمه إلى السلطات . ثم إن البابا الجديد أنوسنت الرابع برفضه إعفاء رجال الكنيسة من واجب التصدى للهرطقة كان فى واقع الأمر يحثهم على تقديم كل معونة ممكنة للمحققين حتى لا يتعرضوا لسخط البابا عليهم . فضلا عن أن البابا وعد بإعطاء المنح والعطايا لكل من يقف بجانب المحققين ويساعدهم فى أعمالهم . وأيضا أصدرت الكنيسة تعليماتها للرهبان الدومينكان أن يبذلوا كل ما فى وسعهم للحيلولة دون عودة الهرطقة إلى الانتشار . كما أرسلت مفوضا كنسيا جديدا اسمه زوين إلى منطقة لانجويدوك وذلك بعد أن شكا محققو محاكم التفتيش من أن أسلاف هؤلاد الرهبان أطلقوا سراح عدد غفير من المهرطقين فى السجن بعد تبرئة ساحتهم . وأمر المفوض الكنسى الجديد زوين بملاحقة المهرطقين المفرج عنهم وإنزال العقاب الذى يستحقونه بهم .

وساعد على تضييق الخناق على المهرطقين أن حاكم تولوز ريموند تصالح مع الكرسى البابوى . وفى عام ١٢٤٣ قام ريموند بزيارة إيطاليا حيث تقابل مع الأمير فردريك الثانى فى أبوليا والبابا أنوسنت الرابع فى روما بعد أن استمرت الكنيسة فى فرض الحظر عليه لمدة عشرة أعوام . وأيضا توسط لويس ملك فرنسا وبذل مساعيه الحميدة لدى الكرسى البابوى كى يقبل التصالح مع الكونت ريموند . وبتولى أنوسنت الرابع كرسى البابوية بعد نياحة البابا السابق جريجورى التاسع أصبح الجو مهيئا لتضمه الكنيسة إلى أحضانها . وفى ٢ ديسمبر ١٢٤٣ أحلته الكنيسة من أى حظر كانت قد فرضته عليه كما أن الكنيسة غفرت له ذنوبه فى ١ يناير ١٢٤٤ . وأبلغت لويس ملك فرنسا وكرادلة المملكة بهذا الحل وأذاعته فى جميع الكنائس . وفى ٧ يناير ١٢٤٤ صدرت الأوامر للمفوض البابوى زوين بأن يحسن معاملته ويمتنع عن التحرش به . ولكن يجدر بالذكر أن هذا الحل من الذنوب كان حلا مؤقتا ؛ الأمر الذى مكن المحققين فيرير وجويلم ريموند بعد مجزرة أفيجنونيت من اتهامه بالتواطؤ مع المهرطقين مما جعله يشكو من هذا الاتهام للكرسى البابوى فى أبريل ١٢٤٣ . وفى ١٦ مايو ١٢٤٤ صدر مرسوم بابوى بإلغاء الحظر الكنسى المفروض على ريموند إلغاء كليا . بل إن الكرسى البابوى أنعم عليه بعدد من الامتيازات تضمنها المرسوم الذى أصدره قداسته فى ١٨ مارس ١٢٤٤ . ولعل أهمها ذلك الامتياز الصادر فى ١٢ مايو ١٢٤٥ والذى ينص على عدم خضوعه لأية سلطة دينية قد يعن لها فرض الحظر الكنسى عليه . وبتصالح ريموند مع الكنيسة الرومانية أصبحت علاقته بها سمنا على عسل .

ولم يكن بالإمكان كسر شوكة المهرطقين طالما ظلت قلعة مونتسيجور فى أيديهم . ولهذا كان من الضرورى استيلاء أنصار الكنيسة على هذه القلعة حتى يمكن إخماد التمرد الذى نشب عام ١٢٤٢ والذى تزعمه رئيس أساقفة ناربون وأسقف ألبى ومسئول كاركاسون الدينى وعدد من النبلاء والأرستقراط . وبطبيعة الحال لم يقف المهرطقون مكتوفى الأيدى فقد أرسل إليهم أعوان الكونت ريموند خبيرا ماهرا فى الشئون والمعدات العسكرية اسمه برتراند دى باكاليريا ، كما أمدهم أنصار التمرد بالمال والذخيرة . وفى ربيع عام ١٢٤٣ حوصرت القلعة فبذلت مقاومة عنيفة ووقفت

النساء بجانب أزواجهن المهرطقين يشددن أزرهم كما أن الأسقف الكاثارى المارق برتراند مارتن حثهم على الاستماتة فى المقاومة واعدا إياهم بالنعيم الأبدى . وليس أدل على التعاطف العام الذى حظى به المهرطقون المحاصرون من أن محاصريهم سمحوا لهم بإقامة خطوط اتصال مع أصدقائهم فى الخارج وأسروا إليهم أحيانا ببعض خطط الهجوم عليهم . حتى الكنز الذى احتفظ به المهرطقون فى حصن مونتسيجور أمكن تسريبه من القلعة المحاصرة نحو عيد الميلاد عام ١٢٤٣ . وظلت الاتصالات السرية جارية بين المهرطقين داخل الحصن وكونت ريموند خارجه واعدا إياهم بالمساعدة العسكرية والإمدادات إذا أفلحوا فى الصمود حتى عيد القيامة عام ١٢٤٤ ولكن فترة الحصار امتدت نحو عام كامل ؛ الأمر الذى فت فى عضد المهرطقين المحاصرين . وفى ليلة أول مارس ١٢٤٤ قام بعض رعاة الجبل بإرشاد ضاربى الحصار على القلعة إلى المسالك والشعاب الجبلية المؤدية إلى الحصن . وهكذا سقط الحصن واستسلمت حامية المهرطقين بعد مفاوضات قصيرة . وقبل اللاجئون إلى القلعة الاستسلام وتسليم عتاة المهرطقين إلى الكنيسة مقابل الحفاظ على حياة الآخرين وعند سفح الجبل أقام ضاربو الحصار حظيرة ملأوها بأكوام الخشب وطلبوا من عتاة المهرطقين نبذ هرطقتهم ولكنهم أبوا فألقوا بهم فى النار التى التهمت أجسامهم . وهكذا تم إحراق مائتين وخمسة مهرطقين دفعة واحدة . وأرسل أنصار الكنيسة إلى البابا يزفون إليه بشرى استسلام المهرطقين بعد نجاحهم فى سحق رأس التنين على حد قولهم .

أما المهرطقون الذين أبقاهم المحققون على قيد الحياة فقد خضعوا للاستجواب الدقيق بهدف استخلاص المعلومات عن المهرطقين الدانين والقاصين والأموات والأحياء والصغار والكبار . وتم استجواب أحداث فى نحو العاشرة من العمر كما تم تسجيل كل البيانات التى كشفت عنها الاستجوابات لدرجة أنها شملت مهرطقين قدامى يرجع تاريخ هرطقتهم إلى أربعين أو ثلاثين سنة خلت وينتمون إلى مناطق نائية مثل كاتالونيا فى إسبانيا . وأيضا تم استجواب التجار الذين كانوا يمدون قلعة مونتسيجور بالأطعمة . ونبشت عظام المهرطقين من قبورهم . والجدير بالذكر أن

المهرطق أرنود دى بريتوس الذى فر إلى لومباردى أرغم عند القبض عليه على كشف أسماء من وفروا له المأوى وحضروا دروسه المهرطقة .

انكسرت شوكة المهرطقين الكاثاريين فى الجنوب الفرنسى وصودرت ممتلكاتهم وانتقلت إلى حوزة الكنيسة وأولى الأمر. وقد نظم الشاعر إيزادن دى فيليمور فى تلك الفترة قصيدة جاء فيها أن المهرطق سيكارد دى فيجويراس عبر عن شكواه من خيانة أعز أصدقائه له . وليس فى مقدور أحد تقدير عدد المهرطقين الذين تمت استتابتهم وصدرت ضدهم أحكام بالسجن مدى الحياة وهم بالآلاف . ولكن من المؤكد أن أعدادهم كانت هائلة بدليل أن مجمع ناربون طلب من المحققين إرجاء الحكم عليهم بالسجن نظراً لاستحالة بناء سجون تكفى لاستيعاب هذا العدد الضخم من المهرطقين ممن تابوا وسعوا إلى التصالح مع الكنيسة بعد نفاذ مهلة التوبة التى حددها لهم البابا أنوسنت الرابع فى ديسمبر عام ١٢٤٣ . ويكفى للمرء أن يتخيل ضخامة أعداد المهرطقين التائبين إذا عرف أن الآلاف منهم كشفوا فى توبتهم عن جميع معارفهم من المهرطقين كما كشفوا عن أسماء المهرطقين من معارفهم ممن تحولوا إلى الهرطقة أثناء احتضارهم على فراش الموت . أى أن المهرطقين الأحياء اعترفوا على المهرطقين الأموات الأمر الذى دفع محاكم التفتيش إلى نبش قبورهم واستخراج عظامهم وحرقها فى النار . واعتاد الناس رؤية أجساد الموتى المتحللة وهى تجر فى الشوارع ومنظر المحارق المقامة لحرق أجداثهم . ورغم انتصار محاكم التفتيش على المهرطقين فإن هذا لم يمنع من اندلاع الأعمال الانتقامية التى ارتكبها نفر من المهرطقين اليائسين ؛ الأمر الذى جعل السلطات الكنسية تحذر المحققين أحيانا من زيارة أماكن الهرطقة التى تمثل خطرا على حياتهم . وكان هذا هو السبب الذى حدا بالبابا أنوسنت الرابع عام ١٢٤٧ أن يخول المحققين سلطة استدعاء المهرطقين إليهم .

ومن ناحيتهم بذل المحققون فى محاكم تفتيش لانجويدوك نشاطا هائلا وكبيرا فى ملاحقة المهرطقين . وكان أشد هؤلاء المحققين بأسا هو برنارد دى كو Bernard de Caux الذى يعتبر بمثابة المحرك أو الدينامو وراء تعقبهم فى تولوز ، وذلك

بعد أن أمضى مدة خدمة فى كل من مدينتى مونتبرلييه وأجين ، والجدير بالذكر أن زميله المحقق جان دى سانت بيير Jean de Saint - Pierre كان يشاركه حماسه المتأجج نفسه . وقد عمل الاثنان بهمة ونشاط بالغين فى ملاحقة المهرطقين بكل ما أوتيا من قوة وحزم . وتلقى الشذرات الوثائقية التى احتفظ لنا بها التاريخ الضوء على نشاطهما المحموم خلال الفترة من ١٢٤٥ حتى ١٢٤٦ زارا خلالها ما لا يقل عن ستمائة موقع مهرطق وغطيا ما يقرب من نصف إقليم لانجويدوك . وقد تم كثير من هذه التحقيقات فى المدن الصغرى . ففى مدينة أفيجنونيت بلغ عدد التحقيقات مائتين وثلاثين تحقيقا وفى مدينة فانجو مائة تحقيق وفى ماس سانت بويل أربعمائة وعشرين تحقيقا ويرجع الفضل فى هذا التوثيق إلى مولينيير الذى أخطأ فى إحصاء عدد التحقيقات التى سجلها حيث إن العدد الصحيح لها يتراوح بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف تحقيق . ولا شك أن كثيرا من هذه التحقيقات كان متعجلا لا يراعى ضميرا أو وازعا كما يتضح من الأحكام التى أصدرها المحقق بيير سيلا ضد المهرطقين الماثلين أمامه . ورغم هذا الكم الهائل من التحقيقات نرى أن أساقفة لانجويدوك فى عام ١٢٤٥ يشكون من أن محاكم التفتيش عاملت المهرطقين هناك باللين والرأفة . وبالنظر إلى أن الكنيسة الرومانية آنذاك كانت تفتقر إلى المعايير الموحدة والمنسجمة فى تحقيقاتها مع المهرطقين فقد أصدر البابا أنوسنت الرابع عام ١٢٤٥ إلى محققى محاكم تفتيش لانجويدوك بالتمهل والتريث عند إصدار الأحكام المغلظة مثل السجن والحج إلى الأراضى المقدسة ومصادرة الممتلكات لحين يضع مجمع ليون وشيك الاجتماع قواعد عامة يلتزم بها جميع المحققين . وهى قواعد تمت بلورتها على كل حال فى مجمع بيزييه المنعقد عام ١٢٤٦ .

قلنا إن ريموند كونت تولوز تصالح فى أخريات أيامه مع الكنيسة الكاثوليكية وعضدها كثيرًا فى التصدى للهرطقة بعد أن كان يشجعها ويساندها . وحتى يثبت ولاءه للكنيسة الكاثوليكية أصدر أوامره بضرورة حضور رعاياه عظات الرهبان فى كل مدن المملكة وقراها . وفى عام ١٢٤٩ عندما كان يمكث فى بيرليج بالقرب من مدينة أجين أمر بحرق ثمانين كاثوليكيا بدم بارد اعترفوا فى حضرته بارتكاب بعض الأخطاء الدينية ، مظهرا بذلك قسوة توازى – إن لم تكن تفوق – قسوة محاكم

التفتيش . وقد شكا من أن النبلاء المهرطقين يتسللون بكثرة إلى مملكته لاستعادة سابق قوتهم . وبوفاة الكونت ريموند فى ٢٧ سبتمبر ١٢٤٩ آلت أملاكه إلى ابنته وإلى زوجها الفرنسى ألفونس بواتييه شقيق لويس التاسع ملك فرنسا الذى شن حملة صليبية فاشلة على مصر .

وفى عام ١٢٥٥ سقط آخر معاقل الهرطقة فى الجنوب الفرنسى ، فبعد سقوط قلعة مونتسجيور هربت فلول المهرطقين النبلاء المتبقية إلى الجبال للاحتماء بها ولكن قوات محاكم التفتيش تمكنت من ملاحقتهم فى كل مكان واستطاعت الاستيلاء على آخر معاقلهم وهى قلعة كويريبوس فى جبال البيرنيز حيث إن المسئول الدينى فى كاركاسون استطاع محاصرتها فى ربيع عام ١٢٥٥ . ولكن المهرطقين دافعوا عن قلعتهم بشراسة . وفى ٥ مايو ١٢٥٥ ناشد المسئول الدينى عن كاركاسون الأساقفة المجتمعين فى مجمع بيزييه أن يمدوه بالمساعدة مثلما فعلوامن قبل وقت حصار قلعة مونتسيجور . ولكن الأساقفة استجابوا له بحذر ؛ الأمر الذى حدا به إلى الشكوى من عدم تقديم أية مساعدة فعالة له . ولكنه شحذ همته حتى استطاع التغلب على فلول المهرطقين الذين اضطروا إلى التشرذم والاختباء فى الكهوف والغابات والاحتماء بالنباتات الشائكة فأمر باجتثاثها حتى يتمكن من الوصول إلى وكر المهرطقين .

باندحار الهرطقة أحكمت محاكم التفتيش قبضتها على النبلاء المهرطقين مهما علا قدرهم . وكان فى مقدمة هؤلاء النبلاء الكونت فوا المنتمى إلى عائلة واسعة الثراء عريقة المحتد تمتد أراضيها الفسيحة على جانبى البيرنيز ، مما منح هذه العائلة نوعا من المنعة والاستقلال عن كونت ريموند . وكان عاهل هذه العائلة النبيلة المهرطقة الكونت روجر برنارد الثانى يتسم بالشجاعة والإقدام وتحدى الكونت ريموند الذى تصدى له كى يخضعه لسلطاته . ومن المعروف أن زوجة الكونت روجر برنارد الثانى وأخته انتمتا إلى طائفة الوالدنسيتين المهرطقة . كما أن أخته الأخرى اعتنقت الهرطقة المكاثارية . وقد اعتبرت الكنيسة الكاثوليكية الكونت روجر برنارد الثانى واحدا من ألد أعدائها . وفى عام ١٢٢٩ استسلم برنارد الثانى للكونت ريموند قاطعا على نفسه عهدا بمحاربة الهرطقة . وفى عام ١٢٣٧ نصح هذا الرجل ابنته فيسكونت كاستيلو

فى أراجون أن تسمح لمحاكم التفتيش بدخول أراضيه مما أدى إلى إدانة عدد غفير من المهرطقين . ورغم أن هذا الرجل تعرض لاتهام الأسقف أوربيل له بالهرطقة فإنه استطاع فى عام ١٢٤٠ أن يكسب رضاء الكنيسة عنه قبل وفاته عام ١٢٤١ . وبعد وفاته ترك للكنيسة ثروة عريضة تضم ديرًا عتيقًا هو دير السستريان فى بوليون حيث لفظ أنفاسه الأخيرة وهو يرتدى زى الرهبان .

ورغم كل ما فعلته عائلة فوا لإثبات ولائها للكنيسة فإن هذه الكنيسة لم تسامحها على ماضيها المتساهل مع المهرطقين . فضلا عن أن الكنيسة كانت تتطلع إلى إثبات مروقها طمعا فى الاستيلاء على ثروتها الضخمة ، ولهذا نرى بعد مرور اثنتين وعشرين سنة على وفاة روجر برنارد ، أى فى عام ١٢٦٣ إحياء للإجراءات القديمة التى كانت الكنيسة بصدد اتخاذها ضده ثم أغفلتها بعد أن تصالح معها . واستعانت فى ذلك بأحد الخدم الأوفياء الباقين على قيد الحياة ، وهو عجوز يدعى ريموند برنارد دى فلاسكان الذى لم يفارق روجر برنارد إبان فترة مرضه ، وحضر الراهب بونس محقق محكمة تفتيش كاواسون إلى حيث يعيش الخادم الوفى فى مازيريس وحقق معه . وحين عجز هذا المحقق عن أن يتنزع من الخادم أى دليل على هرطقة سيده تحت ضغط التعذيب والاضطهاد اعتبر شهادته غيرمرضية وزج به فى غياهب السجن . واستمرت محكمة التفتيش فى تعذيبه لمدة اثنين وثلاثين يوما قرر بعدها المحقق بونس إعادته إلى كاركاسون لكفاءة أداء محاكم التفتيش هناك . وبعد قضاء يوم من الراحة فى دير بوليون سجل هذا الكاتب الوفى يوم ٢٦ نوفمبر ١٢٦٣ فى حضرة بعض الرهبان التحقيقات التى تعرض لها مؤكدا أنه لم ير سيده الكونت يرتكب أى انتهاك للعقيدة الكاثوليكية وأضاف أنه سوف يكون كاذبا وخائنا إذا هو سمح لنفسه بأن يقر بغير ذلك تحت وطأة التعذيب . ورغم كل ما تمتع روجر برنارد الثالث من حظوة لدى الكرسى البابوى فقد دأب محقق محكمة تفتيش فاربون آيتين دى جاين على مضايقته وتهديده أثناء مرضه العضال . وشكا روجر برنارد الثالث للكرسى البابوى من كثرة مداهمات قوات محاكم التفتيش لأراضيه بزعم البحث عن المهرطقين لدرجة أن أراضيه تعرضت للخراب . ولم ينقذه من براثن محاكم التفتيش غير موته فى فبراير عام ١٢٦٥ . وأسوة بوالده روجر برنارد الثانى رقد جسده

المسجى فى ملابس رهبان دير السيستريان ، ورغم وفاته اللاحقة فى عام ١٢٩٢ أخفق محقق محكمة تفتيش كاركاسون برتراند دى مكير مونت فى التدليل على مروقه وانحرافه عن صحيح العقيدة الكاثوليكية .

ونستدل مما نقدم أن أى شخص مهما علا قدره لم يكن فى مأمن من محاكم تفتيش لانجويدوك التى رأسها إيتين جاتين وبوتسى دى بوييه لعدة سنوات امتدت من عام ١٣٧٣ حتى عام ١٣٧٥ استطاعا خلالها بجدهما ونشاطهما الإيقاع بعدد هائل من المهرطقين . ورغم الانخفاض فى عدد المهرطقين الأحياء بسبب تعقب محاكم التفتيش لهم ، فإن تهمة الهرطقة بأثر رجعى بعد الموت ظلت سارية كما ظلت سارية عمليات نبش قبور الموتى المتهمين بالهرطقة ، وشجع الكنيسة والأمراء على ملاحقة الضحايا بعد الموت إغراء مصادرة ممتلكاتهم والاستيلاء عليها .

وفى عام ١٢٧١ عاد حاكم الجنوب الفرنسى ألفونس شقيق ملك فرنسا لويس التاسع مع زوجته جين بعد الحملة الصليبية الفاشلة التى شنها شقيق الملك على تونس . وتوفى الأمير الفرنسى وزوجته دون ذرية الأمر الذى أدى إلى اندثار حكم عائلة ريموند حاكم تولوز وأيلولة ممتلكاتها إلى ملك فرنسا . وأدت سياسة استيلاء ملك فرنسا على أراضى وممتلكات عائلة ريموند إلى زيادة سلطة الدولة وانحسار سلطة الكنيسة . فعلى الرغم من ولاء ملك فرنسا لويس التاسع إلى الكنيسة فإنه كان من الطبيعى للغاية أن يحرص على صيانة مصالحه الشخصية أكثر من حرصه على مصالح الكنيسة . ويتضح لنا هذا بجلاء من حالة حفيده فيليب « الحسن » الذى تولى عرش فرنسا عام ١٢٨٦ وهو فى السابعة عشرة من عمره .

وفى عام ١٢٠٣ وصل الأمر بأحد مستشارى لويس التاسع ملك فرنسا ويدعى نوجاريت إلى تحدى سلطة البابا بونيفاس الثامن تحديا سافرا ، ويوجه إليه وهو الحبر الأعظم تهمة الهرطقة مما أثلج صدور أهل تولوز واعتبروه نوعا من الانتقام لما كابدوه فيما مضى من سوء معاملة الكنيسة لهم . وبالمقارنة شعر أهل الجنوب الفرنسى أن خضوعهم لسلطة الدولة أرحم من خضوعهم لقسوة محاكم التفتيش وتعسفها ، والجدير بالذكر أن شعب ألبى وكاركاسون جأر بالشكوى من قسوة

المحقق جين جالاند Jean Jalande وجين فيجوريه Jean Vigeureux واستجمع هذا الشعب شجاعته فرفع شكواه إلى فيليب هاردى عام ١٢٨٠ . ويبدو أن التذمر الحقيقى ضد محاكم التفتيش لم يعد نابعا من المهرطقين بل أصبح يأتى من بعض الصالحين من رجال الدين والقضاة والحكام المدنيين المستائين من استيلاء الكنيسة والكرسى البابوى على أموال المهرطقين وممتلكاتهم المصادرة . وحين استحدثت محاكم التفتيش أسلوب تعذيب ضحاياها زاد من هلع الناس وسخطهم على هذه الممارسات البشعة . وأيضا زاد من هلعهم أن أحداً منهم لم يشعر بالأمان من ملاحقة محاكم التفتيش له ولعائلته حتى بعد مواراتهم الثرى ، وهذا ما حدا بقناصلة كاركاسون وبعض رجال الدين البارزين فيها إلى تدبير مؤامرة فى عامى ١٢٨٣ و١٢٨٤ تهدف إلى تدمير جميع ملفات محاكم التفتيش وما تحتويه من اعترافات . ورغم اكتشاف أمر هذه المؤامرة فإنها تدل بجلاء على الفجوة الكبيرة التى تفصل بين محاكم التفتيش والأهالى . وعبثا حاول أهل كاركاسون فى عام ١٢٨٥ تقديم الشكاوى للمسئولين الدينيين والمدنيين فقد تمكنت المحاكم بما لها فى سطوة وقدرة على التخويف وانتزا ع الاعترافات أن تتغلب على هذه الشكاوى .

ورغم قدرة محاكم التفتيش على القضاء على الأرستقراط المهرطقين فإن هذا لم يمنع من انتشار الهرطقة فى صفوف المستويات الأدنى سواء كانت من الفلاحين أو الطبقة البورجوازية . وفى مقدمة المهرطقين برزت أسماء رايموند ديبلوك Raymond Debloc وريموند جودايل Raymond godayl (أو بيدييه) اللذين أدانتهما محكمة تفتيش كاركاسون عام ١٢٧٨ إلى جانب المهرطق جويلم باجس Guillem Pages . وأثبتت الأيام أن محقق محاكم التفتيش الجديد المعين مؤخرا فى كاركاسون واسمه نيكولاس دابرفيل لا يقل فى قسوته عن سابقيه . وعندما جأر شعب كاركاسون بالشكوى من قسوته لدى مليك البلاد تم الزج بمحرر الشكوى فى السجن ولكن هذا لم يفت فى عضد ضحايا محاكم التفتيش . وفى ١٢ مايو ١٢٩١ أرسل الحاكم فيليب خطابا إلى نائب حاكم كاركاسون يشرح له الأضرار التى ألحقتها محاكم التفتيش هناك بسبب ما استحدثته من أساليب التعذيب مصدرا أوامره إلى موظفيه بعدم الانصياع لمحاكم التفتيش إلا فى حالة وجود سبب قوى يدعو إلى ذلك مثل

اعتراف المهرطقين أنفسهم بذنبهم وشهادة الأشخاص المحترمين والموثوق بهم ضدهم . ويعد مضى شهر واحد كرر فيليب أمره بعدم طاعة محاكم التفتيش وأعلن أنه بصدد إرسال مندوبين له إلى منطقة لانجويدوك كى يستيقنوا من الوضع بأنفسهم . ويدل هذا على مدى التوتر الذى أخذ يعترى علاقة السلطة المدنية بالسلطة الكنسية . وردت السلطة الدينية على ذلك بأن قام جويلم دى سانت سين محقق كاركاسون فى عام ١٢٩٢ بأمر جميع القساوسة هناك بالتبليغ عن أى شخص يعوق عمل المحققين .

وفى سبتمبر عام ١٢٩٣اتبع فيليب سياسة الدفاع عن اليهود . ورغم أن محاكم التفتيش لم تقم باضطهادهم بوصفهم طبقة أو شريحة من شرائح المجتمع ، فإنها اعتبرتهم مهرطقين فى حالة ردتهم إلى الدين اليهودى بعد اعتناقهم الدين المسيحى ، أو فى حالة حث المسيحيين على نبد دينهم من أجل اعتناق اليهودية . فى هذه الحالة فقط أصبح يحق لمحاكم التفتيش أن تدينهم وتسلمهم إلى الذراع العلمانى . وبالنظر إلى أن كثيرا من اليهود اتبعوا أسلوب التقية حيث إنهم تظاهروا بالتحول إلى المسيحية درءا لإيذاء العالم المسيحى لهم فقد سبب ذلك صداعا مستمرا لمحاكم التفتيش الأمر الذى دفع البابا كليمنت الرابع إلى إصدار مرسوم يجرم هذا فى عام ١٢٦٨ . ثم قام البابوات الآخرون بتجديده لدرجة أن بعض المحققين تخصصوا فى هذا النوع من الهرطقة مثل الراهب برتراند دى لاروش Bertrand de la Roche محقق بروفانس وجويلم دوكسير Guillaume de Ouxerre الذى أطلق عليه رسميا محقق المهرطقين واليهود المرتدين فى فرنسا . وبطبيعة الحال كان اليهود فى وضع اجتماعى ضعيف للغاية لا يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم . وفى عام ١٢٩٠ أمر فيليب اليهود بالمثول أمام المحاكم الملكية ، كما تسلم سيمون برستيت مسئول كاركاسون نسخة من المرسوم البابوى الخاص بمحاكمة اليهود آمرًا بعدم الخروج عنه . كما صدرت الأوامر فى حالة وجود لبس بإحالة قضايا اليهود إلى المجلس الملكى . وأيضا صدرت أوامر ملكية إلى كل المحققين والرهبان مهما ارتفع شأنهم بالامتناع عن القبض على أى يهودى فى فرنسا بدون إخطار سابق للجهات المدنية التى تقرر ما إذا كان هناك ثمة مبرر قانونى لتقديمهم إلى المحاكمة بدون الرجوع إلى المجلس الملكى . وأمر سيمون برستيت Simon Birstete موظفيه بالدفاع عن اليهود وعدم فرض أية عوائق عليهم

من شأنها تعجيزهم عن دفع الضرائب المستحقة عليهم وعدم القبض على أى واحد منهم إلا بعد التبليغ بالسبب .

وأعطت سياسة فيليب هذه أملا لليهود فى صيانة كرامتهم الآدمية ، ولكن هذه السياسة سرعان ماتبدلت أحوالها . فقد أصدر مسئول كاركاسون تعليماته إلى أيمريك Aimeric فيسكونت ناربون بضرورة تقديم العون إلى المحققين فى محاكم التفتيش كما جرت العادة . ورغم ماتضمنه هذا من تحد لإرادة فيليب فإنه تمسك بموقفه وأصدر فى نهاية عام ١٢٩٥ أمرا ملكيا لتطبيقه على سائر أرجاء المملكة يحظر بمقتضاه القبض على أى شخص بأمر أى راهب مهما علا قدره إلا إذا كانت هناك مبررات قوية ومقنعة أو تفويض بابوى بذلك ، وإلا لزم إطلاق سراحه . ويبدو أن التعليمات التى أصدرها فيليب لم تكن فى بادئ الأمر فعالة حيث إننا نراه فى أواخر عام ١٢٩٦ يشكو إلى مسئول كاركاسون من كثرة عدد المقبوض عليهم . ويبدو أن تعليمات فيليب أصبحت نافذة المفعول فيما بعد ؛ لأن الوثائق تخبرنا أن فولك دى سانت جورج Foulques de Saint - Georgs نائب المحقق فى محكمة تفتيش كاركاسون أمر آدم دى ماروليس Adam de Marolfles بالقبض على عدد من المشتبه فى هرطقتهم . ولكن الرجل أحال الموضوع إلى رئيسه روبرت دارتوى Robert d'Artois ضابط الملك فى منطقتى لانجويدوك وجاكسون .

كان موقف فيليب من محاكم التفتيش يمثل ضربة قاضية عليها ؛ حيث إن هذه المحاكم اعتمدت اعتمادا مطلقا على المساعدات التى تقدمها لها السلطات المدنية ، غير أن فيليب توخى الحذر فى تصرفاته ولم يحاول على الإطلاق إثارة عداوة الأساقفة ضده ؛ حيث إن تعليماته التى تحظر القبض على المهرطقين كانت تشير إلى الرهبان دون الإشارة إلى محاكم التفتيش أو ذكرها بالاسم . وبدأ شجار فيليب مع البابا بونيفاس الثانى يلوح فى الأفق وخاصة فى الفترة من يناير ١٢٩٦ حتى فبراير ١٢٩٧ وهى الفترة التى شاهدت صدور عدد كبير من المراسم البابوية الهادفة إلى فرض قيود على السلطة المدنية ؛ الأمر الذى أثار ثائرة فيليب ودفعه إلى مقاومة السلطة البابوية ومحاكم التفتيش فى كل أرجاء مملكته . وفى أكتوبر ١٢٩٧ أخطر البابا

الثامن بأنه أمر محقق محكمة تفتيش كاركاسون باتخاذ الإجراءات ضد بعض موظفى مدينة بيزييه ممن شك البابا فى مروقهم . ولا شك أن تدخل البابا السافر فى شئون السلطة الزمنية جعل فيليب يشعر بدنو الخطر منه ؛ الأمر الذى وسع الهوة التى تفصل بين السلطة الزمنية ومحاكم التفتيش ، غير أن علاقة البابا بونيفاس الثامن السيئة مع الكردينالين جياكومو Giacomo وبيترو كولونا Pietro Colonna جعلته يعيد حساباته ويسعى إلى التصالح مع الملك فيليب واسترضائه ؛ وهو ما جعله يوافق فى مايو ١٢٩٧ على أن يعطى أساقفته العشور للملك ، بالإضافة إلى قبوله عمل بعض التنازلات السياسية الأخرى . وإزاء حرص الكنيسة على التصالح معه أبدى الملك فيليب حسن نواياه نحو الكرسى البابوى وقبل أن يخضع رعاياه لسلطة المحققين ومحاكم التفتيش . واغتنم بونيفاس الثامن هذه الفرصة ليصدر مرسوما بتاريخ ٣ مارس ١٢٩٨ يأمر بخضوع السلطة المدنية خضوعا مطلقا لأوامر محققى محاكم التفتيش حتى لا توقع على أفرادها عقوبة الحظر الكنسى الذى يصبح اتهاما بالهرطقة إذا استمر مفروضا عليهم لمدة عام . وهكذا رد بونيفاس الثامن الصاع صاعين لتجرؤ الملك فيليب على تشريعاته البابوية . وحتى يتجنب الملك فيليب استئناف الشجار مع البابا آثر الانحناء أمام العاصفة وأصدر تعليمات إلى موظفيه بطاعة محاكم التفتيش والأساقفة ومعاقبة من تقوم هذه المحاكم بإدانتهم . ويدل الخطاب الذى أرسله فى ٢ مارس من العام نفسه – المشار إليه بأن الراهب أرنو دجين Arnaud Jean محقق محكمة تفتيش باميير الذى يطمئن اليهود إلى عدم اتخاذه أية إجراءات قاسية جديدة ضدهم – على أن الملك فيليب لم يعد يوفر الحماية لهم . واستمر الملك فيليب على علاقة طيبة مع البابا حتى عام ١٣٠٠ عندما دب الشجار بينهما من جديد بصورة أمَرّ وأعنف مما كانت عليه . واستمر هذا الشجار على أشده حتى تمكن فيليب يوم ٨ سبتمبر ١٣٠٣ من الإمساك بالبابا بونيفاس الثامن فى مدينة أناجنى ثم وفاته فى الشهر التالى .

وفى ظل هذا الصراع المرير الذى احتدم بين الخصمين أصبحت حياة الشعب فى لانجويدوك جحيما لا يطاق . وكان محقق محكمة تفتيش كاركاسون نيكولاس إبيفيل رجلا قاسى القلب إلى أقصى الحدود . وكان له مساعد لا يقل عنه فى قسوته

هو فوللن دى سانت جورج رئيس دير ألبى . كما كان له مساعد آخر شديد التعصب هو الأسقف برنارد دى كاستانيت Barnard de Castanet الذى لا يقل قسوة وجشعا عن زميله . وليس أدل على جشع أساقفة مدينة ألبى من أنهم بالاتفاق مع الملك لويس التاسع استأثروا بنصف ممتلكات المهرطقين المصادرة . وقبل ترقيته إلى رئيس دير عام ١٢٧٦ نجح برنارد فى إثارة حفيظة شعبه عليه بسبب جشعه وقسوته لدرجة أن الرعاع هاجموا قصره فى عام ١٢٧٧ وكادوا أن يفتكوا به . فضلا عن أنه فى عام ١٢٨٢ شرع فى بناء كاتدرائية عملاقة تضم كنيسة وحصنًا أقامهما من ممتلكات المهرطقين التى نجح فى الاستيلاء عليها .

وبطبيعة الحال انتهز المهرطقون فرصة القيود التى فرضها الملك فيليب على محاكم التفتيش فى مضاعفة نشاطهم ، وبدا أن سلطة الكنيسة تخبو وتضمحل وأن السلطة المدنية تقوى وتشتد . وكان وضع محاكم التفتيش فى كاركاسون أسوأ من غيرها من الأماكن ؛ نظرا للمقت الشديد الذى كان الملك فيليب يحمله لها . وفى عام ١٢٩٥ لم يجد أعيان كاركاسون الذين سبق أن قدمتهم محاكم التفتيش إلى المحاكمة فى عام ١٢٨٥ أية صعوبة فى تحريض أهل كاركاسون على التمرد ، واستطاع المتمردون إحكام السيطرة على كاركاسون وإلحاق الضرر الواضح بالرهبان الدومينكان وأعوانهم . وقام المتمردون بطرد الراهب نيكولاس إبريفيل من فوق المنبر وأخذوا يرجمونه بالحجارة ويستلون عليه سيوفهم ، فضلا عن أنهم أوسعوا بقية الرهبان ضربا وإهانة بمجرد ظهورهم فى الأماكن العامة . ويرجع رد الفعل العنيف إلى قسوة الكنيسة غير المبررة فى تعاملها مع الأهالى .

ونتيجة لهذا التمرد توقف العمل فى محاكم التفتيش لعدة أعوام ، وتهاوت هذه المحاكم عندما امتنعت السلطة الزمنية عن مساندتها . ولكن هذا لم يستمر طويلا، وانتهى حين عقد الملك فيليب هدنة مع البابا ثم تصالحا ، فشعر الأهالى بعدم الاطمئنان فأرسلوا مبعوثين إلى البابا بونيفاس الثامن برئاسة ممثلهم أيمرك كاستيل وبعض الرهبان الفرانسيسكان المتعاطفين معهم . واستمع البابا إلى شكواهم واقترح انتداب أسقف فيسنزا لدراسة الموضوع ورفع تقرير بشأنه، ثم أسند هذه المهمة إلى

الكاردينال سابينا الذى ساوم الأهالى طالبا منهم رشوة قدرها عشرة آلاف فلورينة .
ولكن رئيس البعثة أيمرك رفض واعتقد أن بإمكانه دفع رشوة أقل مقابل رفع الحظر الكنسى المفروض على المدينة ؛ الأمر الذى أثار غيظ البابا بونيفاس الثامن وحفيظته ضد أيمرك وهدد بأن كل ملوك العالم المسيحى سوف يعجزون عن إنقاذ كل شعب كاركاسون من الحرق وخاصة أيمرك كاستيل . أنهك الصراع المحتدم بين الكرسى البابوى والسلطة المدنية أهل كاركاسون كما أضر بمصالحهم الاقتصادية . وفى البداية خرج محقق محكمة تفتيش كاركاسون الواعظ الراهب نيكولاس دبرفيل من هذا الصراع ظافرا . وبات من الواضح أن الأهالى سئموا هذا الصراع وفقدوا القدرة على مقاومة السلطة الكنسية ، وتطلع الأهالى إلى نهاية لهذا الصراع الذى جر عليهم خراب البيوت ؛ فتم عقد اجتماع فى ٢٧ أبريل ١٢٩٩ حضره قضاة كاركاسون ومحقق محكمة تفتيش كل من ألبى وبيزييه ومحقق تولوز وموظفو وأتباع الملك فيليب إلى جانب عدد كبير من رؤساء الأديرة والأعيان . وقبل محقق محكمة تفتيش كاركاسون أن يرفع الحظر عن أهلها مقابل بعض الشروط المعتدلة مثل الاكتفاء بمعاقبة من تثبت هرطقتهم دون إذلال المشتبه فى أمرهم أو مصادرة أملاكهم . ورغم اعتدال هذه الشروط فإن شك الأهالى فى الكنيسة جعلهم يطلبون مهلة مدتها أربع وعشرون ساعة لدراسة الأمر ، ثم اجتمع الأهالى فى اليوم التالى وأعلنوا رفضهم للشروط . ومرت ستة أشهر أخرى بلغ الإعياء بالأهالى كل مبلغ فعقدوا اجتماعا فى ٨ أكتوبر من العام نفسه . وفى هذا الاجتماع طلب قناصلة كاركاسون رفع الحظر عنها . واستعمل المحقق نيكولاس الرأفة معهم فأمرهم بالتكفير عن ذنوبهم ببناء كنيسة تكريما لذكرى القديس لويس التاسع . وقد تم الانتهاء من بناء الكنيسة فى عام ١٣٠٠بتكلفة قدرها تسعون ألف جنيهٍ تورنوازيٍّ وقام القناصلة نيابة عن الأهالى بنبذ الهرطقة فى السر . وقررت محكمة التفتيش استتابة اثنى عشر مواطنا فى كاركاسون من تهمة الهرطقة وهم أربعة قناصلة متقدمون فى العمر وأربعة مستشارين واثنان من المحامين واثنان من الكتبة . وتروى لنا الوثائق المصير البائس الذى لقيه جويلم جاريك Guillem Garric الذى ألقوا به فى زنزانة فى كاركاسون لم يخرج منها إلا بعد مرور ٢٢ عاما عندما استدعته المحكمة للمثول أمامها فى ١٣٢١ ، وخيرته محكمة

التفتيش بين المنفى والاشتراك فى إحدى الحروب الصليبية ؛ فجثا الرجل المتهالك على ركبتيه للتعبير عن تقديره لرأفة المحققين به وحسن معاملتهم له . وبعد بضعة أعوام ثارت ضجة عندما تمكن الراهب برنارد ديلسيو Bernard Delicieux من الاطلاع على نصوص الاتفاق الذى توصلت إليه كاركاسون مع الكنيسة ، واكتشف من خلالها أن القناصلة اعترفوا بأن الأهالى كانوا عن بكرة أبيهم يتعاطفون مع المهرطقين ، وأن القناصل هم الذين نبذوا الهرطقة نيابة عن كل أفراد مجتمعهم . ولكن هذه الاستتابة لم تنجهم من توقيع العقاب الرادع إذا عادوا إلى سابق هرطقتهم أو من توجيه تهمة الانتكاس إليهم . وسرى السخط بين أهالى كاركاسون وهاجوا وماجوا ؛ الأمر الذى دفع المحقق جيوفروا دابلى Geofroi d'Ablis إلى إصدار تصريح فى ١٠ أغسطس ١٣٠٢ يطمئنهم فيه إلى أنه لن يحاول مطلقا استغلال بنود الاتفاقية . وما إن حضر الملك فيليب إلى كاركاسون فى عام ١٣٠٥ حتى أعلن أن الاتفاقية مزورة ؛ وعاقب جوى كابرييه Gui Coprier بسبب توقيعه عليها . واعترف هذا الرجل أن محقق كاركاسون نيكولاس دانيفل أعطاه رشوة قدرها ألف جنيه تورانوازى مقابل التوقيع على الاتفاقية .

وعندما اضطرت محاكم التفتيش إلى التوقف عن العمل نشطت الهرطقة الكاثارية بشكل واضح ، وفى عام ١٢٩٩ دق مجلس مدينة بيزييه ناقوس الخطر معلنا أن الهرطقة باتت تتهدد البلاد من جديد ومطالبا بملاحقتها . وفى مدينة ألبى دق الشقاق كالعادة بين ممثل السلطة الكنسية الأسقف برنارد وبين شعبه الذى اشتكى إلى بلاط الملك فيليب ؛ فطلب هذا الأسقف المساعدة من كل من المحققين نيكولاس دييفيل وبرتراند دى مكيرمونت ، وقرب نهاية عام ١٢٩٩ صحت مدينة ألبى على نبأ زلزل أركانها مفاده أن محاكم التفتيش هناك ألقت القبض - بتهمة الهرطقة - على خمسة وعشرين شخصا من أكثر المواطنين ثراء واحتراما وأكثرهم انتظاما فى حضور القداس ومراعاة لواجباتهم الدينية . وأجريت محاكمات هؤلاء الأشخاص بسرعة غير عادية . ويبدو أنهم تعرضوا للتعذيب لأنهم سارعوا بالاعتراف بذنبهم والكشف عن أسماء شركائهم بعد أن أنكروا الاتهامات الموجهة ضدهم . وهذا ما يؤكده واحد من الضحايا اسمه جويلم كالفيرى Guillem Calverie . ورغم أن

المتهمين لم يحرقوا بسبب إنكارهم للتهم الموجهة إليهم فقد حكمت عليهم محاكم التفتيش بالسجن المؤبد وهم مكبلون بالأغلال .

وبدت البلاد جاهزة للتمرد فى وجه السلطة الكنسية . وشجع هذا التمرد ذلك الشجار الذى تجدد بين الملك فيليب والبابا بونيفاس الثامن . وعندما تقاعس الملك فيليب عن مد يد العون إليهم لم يجدوا مانعا من التطلع إلى ملك آخر يجمعهم . وتدل حادثة القبض على أسقف بابيير واتهامه بالخيانة العظمى عام ١٣٠١ على حقيقة مشاعر أهل لانجويدوك الذين كرهوا الفرنسيين واعتبروهم غرباء وطغمة من الطغاة الأجانب ؛ لدرجة أنهم لم يجدوا غضاضة فى تغيير ولائهم إلى إنجلترا أو أراجون إذا وجدوا أن مصلحتهم تقتضى ذلك . ولا شك أن هشاشة حكم باريس والشمال الفرنسى على لانجويدوك كان يرجع فى الأساس إلى سياسة الملك فيليب المتغيرة وغير المستقرة .

وروعت محاكمات محاكم تفتيش ألبى الأهالى ؛ لأن ضحايا هذه المحاكمات كانوا يعتبرون كاثوليكًا لاغبار على إيمانهم ، وأن الهدف من وراء محاكمتهم هو نهب ثرواتهم والاستيلاء عليها . وذاع بين الناس اعتقاد بقدرة نفر من المحققين أمثال جين دى فوجو وجويلم دى مولسيون وجين دى سانت سينى وجين جالاند ونيكولاس دايفيل وفولوك دى سانت جورج على انتزاع ما يشاءون من اعترافات من أى متهم سواء كان بريئا أو مذنبا ، وأن قدرتهم على تزوير السجلات فائقة . وقد اشتهر هؤلاء المحققون بالقدرة على إلصاق التهم بمن يشاءون حتى ولو كانوا قد ماتوا وشبعوا موتا . وعندما توفى أسقف كاركاسون جوتييه دى مونتيرون Goutier de Montbrun أظهروا وثائق تثبت أنه كان يتعبد فى محراب المهرطقين وأنه هرطق وهو على فراش الموت . غير أن رئيس أساقفة كاركاسون كان يعرف أن شاهدا اسمه جوردين فيرول Jourdain Ferrolh لم ير بنفسه جوتييه دى مونتيرن وهو يتعبد فى محراب الهراطقة؛ ومن ثم فإن شهادته باطلة، ولهذا حث جين مارتن Jean Martin رئيس الأساقفة على تدمير هذه السجلات المزورة وطرد الرهبان الدومينكان من وظائفهم . وعندما شعر محققا كاركاسون وتولوز نيكولاس دايفيل وبيير مولسيون بأنه من المحتمل توجيه تهمة التزوير إليهما قاما بإخفاء السجلات فى برويل واستبعاد البيانات المزورة منها .

ووقعت حادثة أكدت لشعب كاركاسون شرور محاكم التفتيش . فعندما توعد البابا بونيفاس الثامن بالانتقام من إيمريك كاستل بإحراق والده كان يعنى ما يقول وساعده على هذا الشر أن المحقق نيكولاس كان طوع بنانه . كان فابرى والد أيمرك مواطنا مرموقا فى كاركاسون يجمع بين التقوى الشديدة والشهرة العريضة . وكانت تربطه بطائفة الرهبان الفرنسيكان علاقة طيبة ، وحرص هذا الرجل على حضور القداديس قبل وفاته فى عام ١٢٧٨ ، وفى أيامه الأخيرة أحاط به جمع من هؤلاء الرهبان ولازمه وهو فى النزع الأخير ستة منهم وبالنظر إلى قدرة محاكم التفتيش على قلب الحقائق رأسا على عقب وتزييف الأحداث فإنها لم تجد أدنى صعوبة عندما أصدرت عام ١٣٠٠ لافتة أمرت جميع كنائس الأبراشية بقراءة نصها على المترددين عليها ، وأهابت اللافتة بكل من يعن له الدفاع عن ذكرى كاستيل فابرى المثول أمامها حيث إنه ثبت لها أن هذا الرجل هرطق وهو يحتضر . وقد انتهزت محكمة التفتيش فرصة غياب ابنه عند نشر هذا الإعلان ، وجاء للدفاع عن هذا الرجل الصالح عدد من الرهبان الفرنسيسكان الذين أوصى لهم بجانب كبير من ثروته وتشاور الرهبان الفرنسسكان فيما بينهم وقرروا إرسال مندوب عنهم يدعى برنارد دى ليجوس (تو ديلسبيه) توجه إلى رئيسه الموجود أنذاك لحضور اجتماع من مارسليا لتلقى التعليمات منه ، وخاصة لأن تصرفات محكمة تفتيش كاركاسون بدت وكأنها تتآمر ضد طائفة الفرنسيسكان الذين يقيمون أودهم من التجوال فى البلاد والشحاذة من العباد . وأيضا وقع الاختيار على إليازاد دى كليرمونت كى يتعاون مع المندوب برنارد ولم يضع المحقق نيكولاس الوقت حيث شرع فى اتخاذ الإجرادات الكفيلة بإدانة والد أيمرك المتوفى . وفى يوم ٤ يوليو عام ١٣٠٠ تقدم كل من برنارد وإليازاد للإدلاء بأقوال الرهبان الذين مكثوا مع والد أيمرك وهو فى النزع الأخير ، غير أن المحقق نيكولاس رفض الاستماع إلى شهادتهما . وعندما ألحا عليه أن ينصت إليهما ترك لهما الحجرة وانصرف . ولما عاد برنارد وإليازاد بعض الظهر ليطلبا من المحقق نيكولاس إعطاءهما شهادة تذكر ماحدث وجدا باب محكمة التفتيش موصدا .

عندئذ قرر الرجلان المدافعان عن والد أيمرك أن يلتمسا من البابا التدخل لوضع الأمور فى نصابها ، ولكن اللجوء إلى البابا لم يكن بالأمر الميسور خوفا من أن يؤدى

إلى الاصطدام بالمحقق نيكولاس . حتى متسلم الشكوى ارتعدت فرائصه وطلب من الشاكيين أن يتكتما اسمه . وبعد مرور تسعة عشر عاما حين تم تقديم برنارد أحد الشاكيين إلى المحاكمة رفض الكشف عن اسم متلقى الشكوى . وأيضا وجد الشاكيان عسرا بالغا فى العثور على كاتب يشهد بسلامة إجراءات استئنافهما ؛ فقد أبى جميع كتبة كاركاسون تسجيل الاستئناف المقدم منهما لدرجة أنهما اضطرا إلى إحضار كاتب من خارج كاركاسون . ودرءا للأذى طلب المستأنفان أن يشملهما الكرسى البابوى بحمايتهما وحماية جثة كاستيل فابرى وجميع أفراد دير الفرنسيسكان . وعندما توجه المستأنفان إلى مقر المحقق نيكولاس وجداه مغلقًا مرة أخرى. ولهذا تمت تلاوة نص الاستئناف فى الشوارع قبل لصقه على باب محكمة التفتيش . وبعد وقت ليس بالقصير وفى عام ١٣١٩ على وجه التحديد استخدمت محكمة التفتيش هذا الملصق لإدانة برنارد . وتبين أن الاستئناف لصالح كاستيل فابرى لم يكن مجديا حيث يتضح من السجلات التى خطها أرنولد أساليت Assalit عام ١٣٢٢- ١٣٢٣ أن أراضى وضياع المتوفى كاستيل فابرى كانت لاتزال تخضع للمصادرة . ولم تقف قسوة محاكم التفتيش عند هذا الحد ، حيث إنها فى عام ١٣٢٩ قست بأن أمرت بنبش جثة زوجته ركسند وإخراجها من القبر .

كان من الممكن أن يهمل التاريخ حالة كاستيل فابرى لولا أن هذه الحالة جعلت معلم دير كاركاسون برنارد ديليسيه يصطدم مع محاكم التفتيش ، كان برنارد ديليسيه قرة عين طائفة الفرانسيسكان التى انضم إليها نحو عام ١٢٨٤ . وقد وقع عليه الاختيار معلما بسبب شدة تبحره فى العلم مما أتاح له فرصة الاتصال بأنضج العقول فى زمانه . وكمعلم كانت فصاحته مضرب الأمثال كما كان يكره الهرطقة من سويداء قلبه ويريد اجتثاثها من جذورها . ولكنه كان فى الوقت نفسه يؤمن بفساد محاكم التفتيش بسبب خضوعها لسيطرة الرهبان الدومينكان . ولهذا آمن بأنه من الخير لهذه المحاكم والعقيدة الكاثوليكية لو أن هذه المحاكم أصبحت فى أيدى منافسيهم من الرهبان الفرنسيسكان . وفى الوقت نفسه تبرم البابا بونيفاس الثامن من تصرفات وشطط الرهبان الدومينكان فاستبدل ببعض المحققين الدومينكان فى كل من بادوا وفسينزا بعضًا من المحققين الفرنسيسكان ، ورأى المعلم الفرانسيسكانى

برنارد أنه من المستحسن أن يحدث مثل هذا الشىء فى لانجويدوك لإزاحة الظلم والاضطهاد عن كاهل أهلها . وبطبيعة الحال كان ذلك سببا فى احتدام النزاع بين طائفتى الدومينكان والفرانسيسكان وفى صب الرهبان الدومينكان جام غضبهم عليه . وفى رغبته التخفيف عن ضحايا محاكم التفتيش نراه فى عام ١٢٩٨ يساند الالتماس الذى رفعه أهل كاركاسون إلى البابا بونيفاس الثامن تؤيده فى ذلك سائر أديرة الفرنسيسكان . وانبرى برنارد من فوق منابر أديرة الفرنسيسكان يطالب بضرورة استبعاد الرهبان الدومينكان من محاكم التفتيش وتغيير رهبان فرانسيسكان بهم ؛ مما جعل الدومينكان يهاجمون دير الفرنسيسكان الذين نجحوا فى ردهم على أعقابهم .

وعبثا اشتكى المحققون فى محاكم التفتيش لدى الكرادلة الفرنسيسكان من أن الراهب الفرنسيسكانى برنارد يعوق أعمالهم وأعمال المكتب المقدس . وقدم الفرنسيسكان برنارد إلى محاكمة صورية انتهت بإثبات براءته .

وعندما انقضت محاكم التفتيش على المهرطقين فى ألبى فى أواخر عام ١٢٩٩ وأوائل عام ١٣٠٠ انخلعت قلوب عامة الناس . وكان الشقاق بين الملك فيليب والبابا بونيفاس الثامن قد بدأ يتفجر من جديد ، ورأى فيليب أن الموقف الجديد يتطلب منه ظهوره بمظهر حامى شعب لانجويدوك ، والرافض لسطوة وجبروت محاكم التفتيش؛ فقرر الأمر بإجراء تحقيق مع المسئولين عن هذه المحاكم ، ولكنهم أبوا وتكبروا ورفضوا الانصياع للأوامر الملكية . وفى عام ١٣٠١ أرسل الملك فيليب إلى منطقة لانجويدوك اثنين من موظفيه وأمرهما بإصلاح ما اعوج وفسد من أمور محاكم التفتيش ووضع حد لمباذلها . وكان اسما هذين الموظفين جين دى بيكوينى Peguigny وريتشارد نوفيه Nepveu .

استقر هذان المصلحان فى تولوز حيث كان فولك دى سانت جورج يعمل محققا منذ عام ١٣٠٠ ، واستطاع هذان المصلحان جمع الأدلة الدامغة التى تدين هذا المحقق للجوئه إلى التعذيب والاعتداء على عفاف الفتيات اللاتى استعصين عليه عندما حاول اغتصابهن . وجاء أسقف ألبى لتبرير الإجراءات الظالمة التى اتخذتها محاكم

التفتيش ، وشجعهم وجود ممثل الملك فيليب بين ظهرانيهم فباحوا بحقيقة مشاعرهم المعادية نحو المحققين . وما إن شاهدوا أسقف ألبى يقترب حتى تجمهر ضده جمع غفير غاضب يصيح : « الموت للخائن » . وكاد الجمع أن يفتك به ولكنه نجا بمعجزة . وفكر البعض فى إحراق قصره ولكن شجاعتهم خانتهم ، ومع ذلك فقد تجرأ عليه وجهاء المدينة واستعانوا بالكتبة فى مقاضاته ومقاضاة المحقق نيكولاس أيفيل لدى بلاط الملك فيليب ، الذى انتهز الفرصة لتجريده من امتيازاته الزمنية وتوقيع غرامة ضخمة عليه ، تصل إلى عشرين ألف جنيه اقتطعت من ثروته غير المشروعة لتئول إلى خزانة الملك .

واستدعى مندوبا الملك الراهب برنارد ديلسييه الذى كان يعلم فى ناربون واعتبراه حليفا لهما بسبب الدور الذى لعبه فى فضح حقيقة محاكم التفتيش فى قضية كاستيل فابرى . وترأس ديلسييه الوفد الذى أرسله أهالى ألبى كى يطلب من الملك فيليب التدخل لردع المحققين . وكان البلاط الملكى أنذاك يجتمع فى بلد يدعى سينليس فجاء إليه رهبان دومينكان كثيرون للدفاع عن محاكم التفتيش . واقترح برنارد على الملك فيليب تعليق محاكم التفتيش لحين الانتهاء من التحريات والاستجوابات ، وكذلك تعليق عمل الرهبان الدومينكان لحين صدور الأحكام البابوية عليهم . وفى حضرة الذات الملكية قدم فولك الراهب اعترافه بمساندة الراهب جويلم فى توجيه اتهامات لا تقوم على أدلة وبراهين إلى بيكوينى الذى وجه بدوره اتهامات مماثلة إلى فولك . وتكونت لجنة مكونة من رئيس أساقفة ناربون ورئيس الشرطة الفرنسية للاستماع إلى حجج وأقوال كل من الطرفين المتنازعين . وجاء قرار هذه اللجنة لصالح بيكوينى ؛ فأمر الملك بعزل المحقق فولك المشكو فى حقه . وطلب أن يتولى تنفيذ قرار العزل رئيس طائفة الدومينكان فى باريس باعتباره صاحب الحق فى عزل المحققين من وظائفهم . ولكن الرجل عقد اجتماعا دينيا تقرر فيه إبقاء المحقق فولك فى وظيفته بعض الوقت لحين انتهائه من المحاكمات التى بدأها . واستشاط الملك فيليب غضبا من هذا القرار فأرسل مجموعة من الخطابات الغاضبة إلى أولى الأمر . ولم يكتف بهذه الخطابات بل كتب فى ٨ ديسمبر ١٣٠١ إلى محقق تولوز ومسئول تولوز وألبى يقول إن صرخات شعبه وأناته ومن بينها أنات رجال الكنيسة والوجهاء جعلته يقتنع بأن المحقق فولك مذنب فى حق الأهالى وأنه يضطهدهم ، كما أنه يقوم

بتعذيبهم لانتزاع الاعترافات منهم ، فضلا عن لجوئه إلى شهادات الزور ضد الأبرياء . وأضاف الملك الغاضب أن هذا الظلم ينذر بتمرد الناس وثورتهم ؛ ومن ثم وجب تصحيح الأوضاع على وجه السرعة . وعندما توفى فولك فقيرا فى ليون اعتبرته طائفة الدومينكان شهيدا .

لم يكتف الملك فيليب بردع المحقق فولك والتخلص منه بل إنه اضطلع بإدخال إصلاحات فى محاكم التفتيش تدل على سعيه الحثيث إلى إخضاع السلطة الدينية إلى السلطة المدنية ، وأول هذه الإصلاحات وضع السجن الذى شيده الملك فيليب على أراضيه فى تولوز لاستخدام محاكم التفتيش فى يد شخص يتولى الأسقف والمحقق اختياره ، فإذا اختلف الاثنان فى الرأى يقوم مندوب القصر باختيار من يراه مناسبا . فضلا عن أن الملك جرد المحققين من سلطة القبض التعسفى وأوجب عليهم التشاور مع الأساقفة المحليين . وفى حالة الاختلاف فى الرأى ينعقد اجتماع لهذا الغرض يتكون من بعض العاملين فى الكاتدرائية وعدد من الرهبان الفرنسيسكان والدومينكان . وكذلك حظر الملك فيليب القبض على أى مشبوه إلا بعد اتخاذ الإجراءات آنفة الذكر ، اللهم إلا إذا كان المهرطق أجنبيا ويمكنه الهروب . وكذلك استن الملك اشتراطات مماثلة خاصة بدفع الكفالة وأصدر تعليماته بعدم طاعة الأسقف أو المحقق إذا كانا يتصرفان على هواهما . قال الملك : « نحن لا نستطيع إقرار أن تتوقف مصائر رعيتنا على قرار شخص بمفرده يمكن أن تكون المعلومات المتوفرة لديه قاصرة ، هذا إذا لم يكن الطمع والجشع يحركانه » . ورغم أن هذه الإصلاحات لم تكن كافية لإصلاح محاكم التفتيش بشكل حاسم ونهائى فإنها أصابت نجاحا مؤقتا ؛ فقد توقفت فجأة ممارساتها فى القبض على العباد وخاصة عندما تجسدت هذه الإصلاحات فى شكل أوامر عامة خلال عام ١٣٠٢ فضلا عن إعادة إصدار التشريع الصادر عام ١٢٩٣ والخاص بحماية اليهود من اضطهاد محاكم التفتيش . والجدير بالذكر أن هذه الإصلاحات واكبها فى الوقت نفسه حرص من جانب الملك فيليب على استئصال الهرطقة حيث إنه قام بإحياء المرسوم المتشدد الذى كان الملك لويس قد أصدره بشأن محاربة الهرطقة . وعند تعيين جويلوم دى موريير Guillaume de Morieres للعمل فى محكمة تفتيش تولوز أصدر الملك فيليب إلى مندوبه تعليمات بأن يضع السجون الملكية تحت تصرف هذا المحقق وإعطائه الراتب المعتاد وتقديم كل العون له .

غير أن هذه اللوائح الملكية الجديدة فشلت فى التخفيف من وطأة ظلم محاكم التفتيش على كاهل مدينة ألبى بالذات ، الأمر الذى أدى إلى اندلاع أعمال العنف والشغب فيها ، حيث ألقى بالكثيرين منهم فى غياهب السجن التابع لمحكمة تفتيش كاركاسون . وأرسلت ألبى وفدا كبير العدد من الذكور والإناث لمقابلة الملك فيليب . وصاحب هذا الوفد اثنان من الرهبان الفرنسيسكان هما جين هكتور Jean Hectar وبرتراند فيليديل Bertrad de Villedolle وحضر المقابلة بأمر ملكى برنارد ديلسييه الذى كان على علاقة سيئة بالبابا بسبب اعتراضه على محاكم التفتيش . وعندما اجتمع هذا الوفد بالملك فيليب وعدهم بزيارة لانجويدوك على وجه السرعة ومنح أعضاء الوفد ألفى جنيه من حصيلة الممتلكات التى استولى عليها الملك من المارقين . غير أن هذا لم يكن كافيا لإرضاء أهل ألبى الساخطين . فضلا عن أن استبعاد المحقق نيكولاس دابرفيل لم ينجح فى تهدئة خواطر شعب ألبى المتذمر ؛ حيث حل محله محقق آخر فى كاركاسون يدعى جيوفروى دابليس Geoffroi d'Ablis لا يقل سوءا عن سلفه ، والذى أحضر معه خطابات ملكية مؤرخة فى ١ يناير ١٣٠٣ تأمر جميع المهرطقين بطاعته . وفى ظل هذا الشر المستتر تصاعدت حدة تذمر الأهالى ضد محاكم التفتيش ، وبالنظر إلى أن ألبى لم يكن فيها محكمة تفتيش محلية خاصة (حيث إنها كانت تتبع محكمة تفتيش كاركاسون) فقد صب أهالى ألبى جام غضبهم على طائفة الرهبان الدومينكان باعتبارهم المتحكمين فى هذه المحاكم . واستهلالا لمقدم عام ميلادى جديد توجه هؤلاء الرهبان كعادتهم يوم ٢ ديسمبر ١٣٠٢ للتبشير فى الكنائس فإذا بجمهرة من الشعب تهاجمهم وتطردهم من منابر الأديرة وتقابلهم بصيحات الاستهجان قائلين : « الموت للخونة » . واستمر هذا الوضع الملتهب والمتوتر ضد الدومينكان لعدة أعوام لدرجة أنهم خوفا على حياتهم امتنعوا من النزول إلى الشارع ، وأيضا امتنع الشعب الساخط عن دفع أية نذور للكنيسة كما قاطعوا القداديس . وبلغ السخط بأهل ألبى على الكنيسة مبلغا جعل الأهالى يمحون اسمى القديس دومينيك (مؤسس طائفة الدومينكان) والقديس بطرس الشهيد من البوابة الرئيسية للمدينة . واستبدلت بهذه الأسماء أسماء متمردين على الكنيسة وزعمائهم أمثال بيكونين ونيفو وأرنود جارسيا Arnold Garsia وبيير بروبى Pierre Probi .

لم يكن سجناء محاكم التفتيش فى ألبى قد أطلق سراحهم بعد ، الأمر الذى حدا ببرنارد ديلسو المناهض للكرسى البابوى أن يحث بيكوينى وفد الملك فيليب إلى لانجويدوك على الحضور إلى كاركاسون لمناقشة الأمر واتخاذ ما يراه مناسباً . وفى صيف عام ١٣٠٢ حضر بيكوينى حيث قابل عدداً كبيراً من أهالى ألبى الذين توسلوا إليه تحريرهم من سطوة محاكم التفتيش وتدارس أسلوب رأب الصدع بين المحقق نيكولاس أبرفيل وقناصلة كاركاسون ، وفى عظة نارية ملتهبة إلى الشعب كشف الراهب برنارد دبليو عن الشروط التى توصل إليها الطرفان المتنازعان ، فجن جنون الشعب وثارت ثائرتهم ودمروا منازل بعض القناصلة المعروفين بصداقتهم لمحاكم التفتيش ، وأيضا هاجم الثائرون كنيسة الدومينكان وحطموا نوافذها والتماثيل الموجودة فى الممرات الخارجية ، وهال بيكوينى موفد الملك أن يرى سجون. محاكم التفتيش تستباح ويعتدى عليها على هذا النحو ، كما أنه تردد كثيراً قبل أن يتخذ قرار إطلاق سراح سجنائها . وفى أغسطس ١٣٠٢ استسلم المحقق جيوفروا دابليس فقام بيكوينى بترحيل سجناء محاكم التتفيش فى ألبى إلى السجون الملكية ، ولكنه امتنع عن تسليمهم إلى الملك فيليب كما أشار عليه برنارد ديلسييه . غير أن محاكم التفتيش ما لبثت أن استعادت سيطرتها من جديد .

على أية حال حرص المصلحان المعينان من قبل الملك فيليب على معرفة ما تعرضوا له من تعذيب ومعرفة الذين أجبروهم على اتهام آخرين بالهرطقة زوراً وبهتاناً . وانتهز الرهبان الفرنسيسكان هذه الفرصة السانحة للكيد للرهبان الدومينكان المهيمنين على محاكم التفتيش بإذاعة بيانات السجناء على أوسع نطاق ممكن مما أثار مشاعر الأهالى وحفيظتهم على هذه المحاكم . وكذلك انتهز المحقق القاسى جيوفروا دإبليس هذه الفرصة للنيل من غريمه بيكوينى موفد الملك فاستدعاه إلى المحاكمة بتهمة عرقلة أعمال محاكم التفتيش وعندما رفض بيكوينى المثول أمام المحكمة قام جيوفروا بفرض الحظر الكنسى عليه . وبمجرد أن وصل الخبر إلى مسامع طائفة الدومينكان فى باريس بادروا بتأكيد الحظر الكنسى المفروض على غريمهم . وهكذا تمخض عن هذا النزاع نشوب صراع بين الكنيسة والدولة . فعلى الصعيد المدنى توسل شعب وقناصلة مدينة ألبى إلى الملكة كى تحث زوجها الملك

فيليب على ألا يتخلى عنهم ويسحب المصلحين اللذين أوفدهما لإصلاح مباذل محاكم التفتيش . وبذلت دون جدوى جهودها للحيلولة دون إذاعة الحظر الكنسى فقد قام الراهب جين ريكوليس بإذاعته من فوق منبره ، فقام بالقبض عليه مندوب حاكم ألبى وحمله إلى دير الفرنسيسكان حيث أساء هؤلاء الرهبان معاملته ومارسوا الضغط عليه كى يسحب ما سبق أن نشره . وبفرض الحظر الكنسى على بيكوينى أصبح عاجزًا عن اتخاذ أية إجراءات لحين رفع الحظر عليه ، وهو الأمر الذى يقرره من قام بفرض الحظر أو البابا نفسه .

غير أن الأمل فى رفع الحظر على بيكوينى كاد أن يتلاشى عند اعتلاء البابا بنديكت الحادى عشر كرسى البابوية (١٣٠٣ - ١٣٠٤) المنتمى إلى طائفة الرهبان الدومينكان والذى كان من أشد البابوات انتصارًا لمحاكم التفتيش . ولم يجد بيكوينى أمامه مفرًا من مناشدة البابا كى يقف بجانبه ، كما أنه كتب من باريس يستحث أهل لانجويدوك لمساندته مذكرًا إياهم أن الاضطهاد الذى يكابده يرجع إلى دفاعه عن قضيتهم . ومن ناحية أخرى سعى الراهب برنارد ديلسييه إلى كسب التأييد والمساندة وأيضًا حث مدن كاركاسون وألبى وكورديس على الدخول فى تحالف .

واستمر الشجار محتدمًا فانتقل إلى روما حيث ذهب بيكوينى إلى إيطاليا يرافقه مبعوثون من الملك ومن مدينتى كاركاسون وألبى لمؤازرته . ولكن محقق محكمة تفتيش تولوز جويلم دى موربيير الذى أنيط به النظر فى حالته اعترض طريقه ووقف له بالمرصاد ، ومن الواضح أن البابا كان يتعاطف مع محقق تولوز . وحدث فى ١٧ مايو ١٣٠٤ الموافق عيد العنصرة أن تجرأ بيكوينى على انتهاك الحظر المفروض عليه إذ إنه دخل الكنيسة فى بيروجيا . وبمجرد أن وقعت أبصار البابا عليه فى الكنيسة أمر بطرده منها . وقد توفى بيكوينى فى أبروزو فى ٢٩ سبتمبر ١٣٠٤ وهو يعتبر مهرطقًا فى نظر القانون حيث إن الحظر الكنسى المفروض عليه لم يكن قد رفع . غير أن وفاة بنديكت الحادى عشر مكنت أعوان بيكوينى من دفنه فى مدافن المسيحيين . ولكن المحقق جيوفروا دابليس أمر باستخراج عظامه من قبره وإحراقها . وفيما بعد التمس أبناء بيكوينى من الكنيسة رد الاعتبار إلى والدهم . وظل الموضوع مثار أخذ وعطاء

حتى أمر البابا كليمنت الخامس (١٣٠٥ - ١٣١٤) بإنشاء لجنة مكونة من ثلاثة كرادلة لتمحيصه . وبعد البحث والفحص وسماع شهادة جميع الأطراف قررت هذه اللجنة فى ٢٣ يوليو ١٣٠٨ أن الحظر الكنسى المفروض على بيكوينى مخالف للقانون كما أمرت بإلغاء هذا الحظر الجائر وإذاعة هذا الإلغاء فى جميع الأماكن التى تم فيها نشر هذا الحظر ، وعبثا حاول المحقق جيوفروا الاستئناف لدى البابا ضد تبرئة ساحة بيكوينى فقد رفض البابا كليمنت الخامس الاستماع إليه بسبب اقتناعه بأن مظالم محاكم التفتيش هى السبب الحقيقى فى تمرد الأهالى على الكنيسة . والذى يدل على أن البابا كان نصيرا لمحاكم التفتيش أنه أمر كاهن أكوينين بالقبض على الراهب برنارد ديلسييه دون سابق إنذار وإرساله للمثول أمام محكمة الكرسى البابوى بتهمة الهرطقة مهددا هذا الكاهن بفقدان وظيفته إذا لم يفعل هذا ، فضلاً عن أن البابا أدان زعماء مدينة ألبى . وبدوره كلّف كاهن أكوينين الراهب جين ريجود بتنفيذ أمر القبض عليه ، وتم ذلك فى يونية ١٣٠٤ فى دير كاركاسون غير أن الرهبان الفرنسيسكان عبروا عن شديد تعاطفهم معه وبرأوه من التهم الوجهة إليه . ولولا وفاة البابا بنديكت لما سلم هؤلاء المتعاطفون معه من العقاب .

وأخيراً قام فيليب بتنفيذ وعده بزيارة مناطق الجنوب الفرنسى من أجل رفع الظلم عن الأهالى وإزالة أسباب شكواهم من محاكم التفتيش . وفى ١٣ مايو عام ١٣٠٤ نجح فى إقناع البابا بنديكت بأن يرفع عن شعب الجنوب الحظر الكنسى الذى كان البابا بونيفاس الثامن قد فرضه عليه . وعندما وطئت أقدامه أرض تولوز عام ١٣٠٣ فى يوم عيد ميلاد المسيح تقاطرت عليه من مدينتى ألبى وكاركاسون جموع الشعب تطلب منه الإصلاح والحماية . وعبر بيكوينى عن مشاعرهم على خير وجه . وفى حين تولى الراهب الدومينكانى جويلم بيير الدفاع عن محاكم التفتيش عارضها برنارد ديلسييه بكل ماأوتى من قوة مبيناً مظالم محاكم التفتيش وتعسفها وافترائها وقدرتها على إلصاق تهمة الهرطقة بمن تشاء ، حتى ولو كان من تلاميذ المسيح الاثنى عشر . وأيضاً حامت حول الراهب نيكولاس كاهن اعتراف الملك شبهة التحيز لمحاكم التفتيش . أما جيوفروا دابليس محقق كاركاسون فقد سعى إلى كسب ود الملك

فيليب عن طريق التفاوض بهدف تحقيق المصالحة بين الملك فيليب والكرسى البابوى فى روما .

واستمع الملك فيليب إلى طرفى النزاع من مؤيدين ومعارضين لمحاكم التفتيش ثم سجل قراره فى مرسوم أصدره يوم ١٣ يناير عام ١٣٠٤ ويمثل حلاً وسطًا . وجاء فى هذا المرسوم أن الملك بعد الاستماع إلى جميع أطراف النزاع قرر ضرورة أن يقوم مندوبو الملك برفقة المحققين بزيارة سجناء محاكم التفتيش وأيضًا بضرورة إصلاح أحوال السجون . وفى المقابل طالب الملك موظفيه بتقديم كل مساعدة ممكنة إلى محاكم التفتيش فضلا عن حماية طائفة الدومينكان الذين كان الرهبان الفرنسيسكان يتربصون بهم الدوائر .

وفى حين خلت مدينة ألبى من الهرطقة ، ظلت الهرطقة تطل برأسها فى كاركاسون ، وطالب شعب كاركاسون الملك فيليب بزيارة المساجين التعساء الذين تعرضوا للاضطهاد والذين كان اضطهادهم سببًا فى إثارة تذمره وقلاقله . ولكن الملك فيليب رفض وأرسل أخاه لويس بدلا منه . وأراد شعب كاركاسون كسب ود الملك فيليب فقدموا إليه وإلى الملكة الهدايا الثمينة ولكنه رفضها ؛ وأجبر الملكة على رفضها الأمر الذى أصاب قناصلة كاركاسون باليأس والقنوط . وفى هذا الجو الذى يدعو إلى الإحباط لم يتوقع أهل كاركاسون خيراً من الملك ، وعلى سبيل الاحتجاج أبلغ زعيم كاركاسون إلياس باتريس Elias Patrice الملك فيليب بأن شعب كاركاسون سوف يسعى إلى حاكم آخر إذا لم يبادر بقمع محاكم التفتيش ورد أذاها عن الناس ، وغضب الملك فيليب من تهديد إلياس باتريس فأمره بالغروب عن وجهه على الفور . والجدير بالذكر أن شعب كاركاسون أطاع زعيمه إلياس باتريس عندما أمر بنزع الزينات المقامة لاستقبال الملك من الشوارع . وهاج هذا الشعب وماج لاعتقاده أن الملك قد خذله وأنه انضم إلى صفوف أعدائه من الرهبان الدومينكان ، وأنه تراجع عن وعده بحمايتهم ؛ مما جعلهم يهددون بحرق مدينة كاركاسون ، وبلغ استياؤهم من فيليب مبلغا جعلهم يقدمون ولاءهم إلى فيراند ابن ملك ماجوركا رغم أنه غريب عنهم . واتهم الملك معارضيه بأنهم يتآمرون عليه . غير أن مدينة ألبى استطاعت تبرئة ساحتها من هذه التهمة . ونتيجة لذلك توترت العلاقة بين الملك فيليب وكاركاسون .

وعندما انعقدت محكمة التفتيش فى هذه المدينة فى صيف ١٣٠٥ لجأت إلى التعذيب فى أثناء استجواب المتهمين بالهرطقة . وسنحت الفرصة للرهبان الدومينكان كى ينتقموا من الرهبان الفرنسيسكان ، وقضت محكمة تفتيش كاركاسون بإعدام أربعين مواطنًا فى مدينة ليمدكس ، كما أنها أنزلت عقابًا صارمًا بأهل كاركاسون فشنقت جميع قناصلتها وعلى رأسهم إلياس باتريس بالإضافة إلى سبعة مواطنين آخرين . وأيضًا تم فرض غرامة باهظة على هذه المدينة بلغت ستين ألف جنيه التمس الأهالى إلغاءها دون جدوى . ومن ناحيته لاذ بالفرار إيمريل كاتيل الذى أراد تبرئة ساحة أبيه من تهمة الهرطقة . ولكن محاكم التفتيش أفلحت فى القبض عليه وانتهى الأمر بتصالحه مع الملك بأن دفع إلى خزائنه فدية كبيرة وغرامة ضخمة . أما الراهب برنارد فقد توجه إلى الملك على رأس وفد يمثل أهل ألبى من باريس لإثبات عدم ضلوع أهل ألبى فى المؤامرة ضده ، غير أن الوفد عاد من باريس تاركًا الراهب برنارد وراءه حيث طلب الملك من البابا كليمنت الخامس إلقاء القبض عليه وإرساله إلى مدينة ليون ثم إيداعه فى أحد الأديرة . وفى مايو ١٣٠٧ قام الملك فيليب بإيحاء من البابا كليمنت الخامس بإصدار عفو عن جميع المتهمين بالتآمر ضده كما أنه أعفى كاركاسون من دفع بقية الغرامة الموقعة عليها . وفى عام ١٣٠٨ تم الإفراج عن الراهب برنارد ، وسمح له بالعودة إلى مدينة بواتييه . وفى نهاية المطاف عاد الراهب برنارد إلى تولوز حيث توقف عن العمل العام مكتفيًا بما شاهده من الحرص الذى أظهره البابا كليمنت الخامس على إصلاح مفاسد محاكم التفتيش .

وبموت البابا بنديكت الحادى عشر فى يوليو عام ١٣٠٤ تجددت آمال الأهالى فى وضع نهاية لظلم محاكم التفتيش ، وبعد موته انقضى ما يقرب من عام قبل انتخاب خلفه كليمنت الخامس فى ٥ يونية ١٣٠٥ . وفى تلك الأثناء قدمت سبع عشرة هيئة دينية فى منطقة إلبيجو - وقد انضم إليها كرادلة وأحبار ألبى وكنيسة سانت إلفى ودير جايلاك وآخرون - التماسًا إلى كلية الكرادلة أو كلية اللاهوت يطلبون التدخل من أجل القضاء على تعسف محاكم التفتيش ؛ نظرًا لخلو البلاد فعلا من المارقين والهراطقة ، وحيث إن قلوب الناس عامرة بالإيمان بالعقيدة الكاثوليكية . ولاشك أن محاكم التفتيش استغلت تمرد أهل كاركاسون عليها كما استفادت من التغير الذى

طرأ على موقف الملك الذى تحول عن سابق تعاطفه مع ضحايا الاضطهاد الدينى، فكما أسلفنا تغير موقف الملك فيليب منهم وصار غيرعابئ بمصيرهم بسبب تمرد أهل كاركاسون عليه وخيانتهم له . ومنذ عام ١٣٠٧ فصاعداً اعتمد هذا الملك على محاكم التفتيش للقضاء على هرطقة طائفة فرسان هيكل سليمان (انظر كتاب « الهرطقة فى الغرب ») الأمر الذى رسخ قوة محاكم التفتيش وبأسها . ولم تكترث كلية اللاهوت الضالعة فى المؤامرات برفع الظلم الذى شكا منه رجال الأكليروس الألبيجانسيون . وعندما فاز كلمنت الخامس فى الانتخابات البابوية بمساندة الفرنسيين بات الشعب يأمل فى إزاحة مظالم محاكم التفتيش عن كاهله . وكان الكاردينال برتاند دى جوت Bertand de Goth رئيس أساقفة بوردو والمنحدر من أصل جاسكونى رغم مواطنته الإنجليزية أكثر إحساساً من الطليان بمحنة وشقاء أهل لانجويدوك . وزاد من تفاؤل المطالبين بوضع حد لمظالم محاكم التفتيش أن البابا الجديد كليمنت الخامس نقل مقر الكرسى البابوى من الأراضى الإيطالية إلى أراضٍ تابعة للتاج الفرنسى . وما إن وصلت أنباء انتخاب البابا الجديد إلى مسامع أهل مدينة ألبى حتى ترأس الراهب برنارد بعثة تمثل سعى هذه المدينة إلى المطالبة بكبح جماح محاكم التفتيش . وعندما زار الراهب برنارد تولوز التفت حوله زوجات السجناء الذين زجت بهم محاكم التفتيش فى الزنزانات وألححن عليه أن يقبل شكواهن إلى المسئولين ، وتدفقت الشكاوى المنتقدة لمحاكم التفتيش من أهالى مدينة ألبى يساندها راهبان من طائفة الدومينكان هما برتراند بلانك Bertrand Blanc وفرانسوا أيمرك Fiancois Aimeric اللذان انضما إلى وفد مدينة ألبى الشاكى من مظالم محاكم التفتيش . وسارع جيوفروا دابليس محقق محكمة تفتيش كاركاسون بمغادرة هذه المدينة من أجل الدفاع عن نفسه، لدرجة أنه من فرط عجلته لم يكلف أحداً أن ينوب عنه فى غيابه . ولم يستدرك هذا الخطأ إلا بعد وصوله إلى مدينة ليون فى ٢٩ سبتمبر ١٣٠٥ .

وبادت بالفشل الذريع جهود جيوفروا دابليس للدفاع عن محاكم التفتيش وخاصة لأن أهالى ألبى عززوا شكواهم منها بتقديم رشوة قدرها ألفان من الجنيهات التورانوازية إلى ريموند دى جوث Raymond de Goth ابنة عم البابا ورشوة أخرى مماثلة إلى كاردينال سانت كروتشى ورشوة ثالثة قدرها خمسمائة جنيه تورانوازى

إلى الكاردينال بيير كولونا Pier Colonno . وفى ١٣ مارس ١٣٠٦ كلف البابا كليمنت الخامس اثنين من الكاردينالات هما بيير سانت فيتال وبيرنجير فيربو وشخصا أخر يدعى أخيل أن يجوبوا لانجويدوك لتقصى مسلك محاكم التفتيش واتخاذ الإجراءات المناسبة بشأنه . وتقدم أهالى كاركاسون وألبى وكورديس للإدلاء بشهادتهم ومفادها أن محاكم التفتيش تجبر الكاثوليك المؤمنين على الاعتراف بهرطقتهم عن طريق التعذيب والسجون وصدرت الأوامر إلى المحققين كى يكفوا عن الزج بالناس فى السجون والامتناع عن تعذيبهم إلا بعد الرجوع إلى السلطات الدينية المحلية المختصة .

وفى ١٦ أبريل عام ١٣٠٦ عقد الكرادلة اجتماعًا عاما فى مدينة كاركاسون حضره جميع أعيانها ونبلائها . وفى هذا الاجتماع عبر قناصلة كاركاسون وممثلون عن مدينة ألبى عن شكواهم المرة من محاكم التفتيش . وأيدهم فى هذه الشكوى الراهبان الدومينكيان اللذان سبق ذكرهما . وهما بلانك وأيمرك . وفى المقابل تولى محقق كاركاسون جيوفروا دابليس ومندوب أسقفية ألبى الدفاع عن هذه المحاكم من سوء معاملة الأهالى للمحققين وافترائهم عليهم . وبعد سماع الطرفين المتنازعين قام الكرادلة بتأجيل البت فى الموضوع حتى ٢٥ يناير ١٣٠٧ ، لحين وصول المزيد من المندوبين فى كل من كاركاسون وألبى وكورديس . وبالنظر إلى احتمالات انتقام محاكم التفتيش من الأهالى الشاكين وعد الكرادلة بتوفير الأمان لهؤلاء الشاكين. كانت الأخطار المحدقة بالشاكين أخطارًا حقيقية لدرجة أن أحد الشاكين وهو أيمرك كاستيل ومبعوث أهالى كاركاسون تعرض للخطر فى ستبمبر ١٩٠٨ ، لجأ إلى البابا كليمنت طالبا منه الأمان وحمايته من اعتداء المحققين . وأيضا تعرض لخطر الحرق الشهود الذين اتهموا محاكم التفتيش بتزييف السجلات باعتبارهم مهرطقين منتكسين حيث إن هؤلاء الشهود كانوا قد قطعوا على أنفسهم عهدا بعدم إفشاء أسرار محاكم التفتيش . وتفاديا لانتقام المحققين طلب هؤلاء الشهود من الكرادلة إعفاءهم من الأقسام التى سبق أن قطعوها على أنفسهم بعدم إفشاء هذه الأسرار . ورغم أن الكرادلة لم يحسموا النزاع الناشب بين الأهالى والمحققين بشكل قاطع فقد اتخذ الكرادلة بعض الخطوات الدالة على اقتناعهم بصحة الاتهامات التى وجهها الأهالى

إلى محاكم التفتيش ؛ ولهذا زاروا سجن كاركاسون وطلبوا من المحبوسين في
وعددهم أربعون محبوسا - من بينهم ثلاث سجينات - المثول أمامهم . وظهرت عليهم
أعراض المرض والهزال وسوء التغذية وسوء المعاملة . وتولى الكرادلة طرد معظم
حراس السجن الذى وضعوه تحت الإشراف المباشر لأسقف كاركاسون ، وكذلك تم
استبدال السجانين وموظفى السجن . وصدرت الأوامر إلى الحراس بعدم استجواب
المحبوسين إلا فى حضرة شخص كنسى مسئول وعدم سرقة طعامهم . وارتاع أحد
الكرادلة عندما زار السجن التابع لأسقف ألبى حيث إنه وجد المساجين فى حالة يرثى
لها تكبلهم الأغلال فى زنزانات معتمة وضيقة . وقد استمر حبس بعض المساجين
لأكثر من خمسة أعوام دون صدور أية أحكام عليهم . فأمر الكاردينال الزائر للسجن
بفك أغلال السجناء وضرورة السماح بدخول النور داخل الزنزانات كما أمر بتشييد
سجن يصلح للاستعمال الآدمى فى غضون شهر . غير أن الكرادلة عجزوا عن
استحداث أية إصلاحات جوهرية فى نظام محاكم التفتيش مكتفين بتأكيد اقتراح الملك
فيليب بعدم انفراد المحقق بالسلطة وضرورة تعاونه مع المسئول الدينى المحلى . حتى
هذا الإجراء الاحترازى ألغاه البابا كليمنت فى ١٢ أغسطس ١٣٠٨ ؛ الأمر الذى يدل
على أن الكنيسة الكاثوليكية عجزت عن أو تنصلت من تصحيح أوضاع محاكم
التفتيش الخاطئة رغم اقتناعها بالظلم البين الذى تلحقه بالعباد . وأيضًا وجد البابا
كليمنت الخامس نفسه عاجزًا عن إدخال أية إصلاحات جوهرية فى نظام السجون .
وإزاء هذا العجز الكنسى رأى المحققون أن مصلحتهم تقتضى الاستناد إلى المرسوم
الذى سبق أن أصدره أنوسنت الرابع والذى يخولهم إرجاء إصدار الحكم طالما أن
هذا فى صالح العقيدة والحفاظ عليها . ولم تصدر أحكام على كثير من السجناء
الذين كان أسقف ألبى قد قبض عليهم فى عام ١٢٩٩ . وقد اكتشف الكاردينال سان
فيتال Virtal هذا التقصير البشع والجور الواضح حيث قام بزيارة السجون التابعة لهذا
الأسقف . وبعد مرور خمسة أعوام كتب البابا كليمنت الخامس فى عام ١٣١٠ إلى
أسقف ألبى ومحقق كاركاسون جيوفروا دابليس يقول إن الكثيرين من مواطنى ألبى
ناشدوه مرارًا وتكرارًا بضرورة إتمام محاكمتهم سواء بالإدانة أو التبرئة بعد أن
أمضوا فى سجونهم أكثر من ثمانية أعوام . ولهذا أمر هذا البابا بسرعة إجراء

المحاكمات وإصدار الأحكام ورفعها للتصديق عليها إلى كل من كاردينال باليسترينا Palestrina وفراشكاتى Frascati . ولكن أسقف ألبى برتراند دى بورديس والمحقق جيوفروا دابليس تجاهلا هذا الأمر البابوى وضربا به عرض الحائط وخاصة لأن بعض المساجين قد ماتوا وشبعوا موتا قبل صدور المرسوم البابوى . وعندما ترامى نبأ هذا العصيان إلى سمع البابا كليمنت الخامس بعد مضى عام أو عامين كتب إلى أسقف ألبى وجيوفروا مشدداً على ضرورة محاكمة المتهمين سواء كانوا أحياء أو أمواتًا . غير أن المحقق جيوفروا استمر فى شق عصا الطاعة على الكرسى البابوى .

وليس أدل من قضية جويلم جاريك Guillem Garric على إمعان محاكم التفتيش فى تحدى الكرسى البابوى ؛ فقد زج المحقق بهذا الرجل فى السجن بتهمة محاولة تدمير وثائق محكمة تفتيش كاركاسون فى عام ١٢٨٤ . ولكن الرجل كان معروفا بورعه وتقواه مما حدا بالبابا كليمنت الخامس إلى تبرئته . ولم يهدأ بال المحققين حتى أنزلوا العقاب بهذا الرجل الطاعن فى السن بمجرد أن سنحت لهم الفرصة ؛ ففى عام ١٣٢١ استدعاه المحقق برنارد جوى Bernard Gui من السجن لمحاكمته واستخدم معه الرأفة بأن نفاه مدى الحياة فى الأراضى الفرنسية متجاهلاً تبرئة البابا له . وفى حادثة أخرى حاول البابا كليمنت الخامس أن يعهد إلى أساقفة تولوز وناربون بمحاكمة اليهود بدلا من أن يقوم المحققون بهذه المهمة . ولكن هذه السلطة التى سحبها البابا من المحققين لصالح الأساقفة ما لبثت أن عادت إلى محاكم التفتيش بعد وفاة كليمنت الخامس .

وقد نجم عن هذا الصراع بين دعاة الإصلاح ومحاكم التفتيش أن مجمع فينيا اتخذ عددا من التدابير الإصلاحية عام ١٣١٢ بناء على أوامر من البابا كليمنت الخامس . وأصدر مجمع فينيا مجموعة من المبادئ الإصلاحية تعرف بقوانين كلمينت التى كانت جاهزة للعرض على هذا البابا لمراجعتها ، غير أن المنية لم تمهله ، فقد توفى فى ٢٠ أبريل عام ١٣١٤ . وعلقت هذه القوانين ولم يعمل بها فى الفترة التى أعقبت وفاته . وبهذا تأخر صدورها حتى ٢٥ أكتوبر ١٣١٧ فى عهد البابا يوحنا

الثانى والعشرين . وتقضى هذه القوانين الجديدة بتحديد سلطة المحقق وإلزامه بالتشاور مع السلطات الدينية المحلية فى حالات تعذيب المتهمين أو الزج بهم فى سجون بالغة القسوة ، لى جانب التهديد بفرض الحظر الكنسى على من تسول له نفسه انتهاك القوانين . وعلى الرغم من أن هذه العقوبات البابوية لم تطبق على أرض الواقع فإن استنانها دليل واضح على إقرار الكنيسة بمخالفات محاكم التفتيش.
وعندما مات البابا كليمنت الخامس فى ٢٠ أبريل ١٣١١ فى كاربرنتراس تحمل وزر تدمير المهرطقين المعروفين باسم فرسان هيكل سليمان . واحتدم النزاع حول انتخاب البابا الجديد ، فالإيطاليون يحبذون إجراءها فى روما المقر التقليدى للكرسى البابوى والفرنسيون ، الجاسكون يصرون على ضرورة إجرائها فى نفس الموقع الذى فاضت فيه روح البابا السابق أى فى القصر البابوى فى كاريتيراس . ثم أقدم الفريق الجاسكونى فى ٢٣ يوليو ١٣١٤ بزعامه أبناء عمومة البابا المتوفى كليمنت على حرق القصر البابوى فى كارينتراس وهددوا بالفتك بالرهبان الطليان الذين خافوا على حياتهم ولاذوا بالفرار . وانقضى عامان دون انتخاب خلف للبابا المتوفى ، وراود البلاط الفرنسى أمل فى أن يكون البابا المنتخب فرنسيا . ومرت قرابة ستة أشهر دون انتخاب بابا يخلف كليمنت الخامس فأمر الملك فيليب بعقد اجتماع لانتخاب بابا جديد فى دير الرهبان الدومينكان، وحتى يجبرهم على الانتهاء من هذه المهمة حاصرت قواته المجتمعين . وبعد انقضاء أربعين يوما على هذا الحصار المضروب استقر رأيهم على انتخاب جاك دوزو Jacques d'zo كاردينال بورتو رئيسا للكنيسة الكاثوليكية، وانتخاب بابا جديد هو يوحنا الثانى والعشرون (١٣١٦ - ١٣٣٤) . انتهت متاعب محاكم التفتيش فى لانجويدوك واطمأن المحققون إلى أن أحدا لن يجرؤ على تحديهم أو إنكار سلطتهم ؛ الأمر الذى ساعدهم على الانقضاض على الإصلاحيين المناوئين لهم . وكان برنارد ديلسييه أول ضحية لهم . وواجه البابا الجديد المنتخب مشكلة العمل على رأب الصدع الناجم عن هذه الانقسامات والصراعات المحتدمة ، فاستدعى رهبان بيزييه وناربون للمثول أمامه فتجرأ الراهب برنارد كعادته لمناشدة البابا وضع حد لمظالم محاكم التفتيش، فاتهمه هذا البابا بتعطيل عمل هذه المحاكم وتم إلقاء القبض عليه على الفور إلى جانب توجيه اتهامات أخرى إليه مثل استخدام السحر

فى إمـاتة البـابا بنـديكت الحـادى عـشـر (١٣٠٣ - ١٣٠٤) والتـآمـر مع أهل كاركاسون ضـد المحققين . ولهذا زجت محاكم التفتيش ببرنارد ديلسيبيه فى السجن لأكثر من عامين تعرض فيها للمضايقات والاستجواب . وفى ٣ سبتمبر ١٣١٩ تم تقديمه إلى المحاكمة فى كاستيلودادى وتشكلت المحكمة من رئيس أساقفة تولوز وأسقف باميير وسانت بابول. غير أن رئيس أساقفة تولوز اعتذر فجأة عن عدم الحضور تاركا المحاكمة فى أيدى زملائه الذين قاموا بنقل المحكمة إلى كاركاسون فى ١٢ سبتمبر ١٣١٩ . وليس أدل على أهمية المحاكمة من أن ممثل الملك نفسه الذى شغل وظيفة المندوب الملكى المسئول فى كاركاسون وتولوز كان حاضراً إلى جانب آخر من أبرز رموز الكنيسة .

وتحفظ لنا السجلات والوثائق أدق التفاصيل الخاصة بمحاكمة برنارد ، ومثل أمام المحاكمة نفسها شركاء برنارد أمثال أرنود جارسيا Arnoud Garsia وجويلم فرانزا Guillem Freansa وبيير بروبى Pierre Probi وأخرين ممن استخدمتهم المحكمة « شاهد ملك » هذه . وتعرض برنارد الطاعن فى السن الذى أنهكه السجن لمدة عامين إلى تكرار استجوابه للتحقيق الدقيق لمدة شهرين بشأن أحداث جرت له خلال فترة امتدت من اثنى عشر إلى ثمانية عشرة عامًا واختلطت ببعضها البعض بحيث يصعب تذكرها على النحو الصحيح . ووجهت إليه المحكمة تحذيراً بأنه أصبح مطرودا من الكنيسة بسبب عرقلته لسير محاكم التفتيش وأنه لا سبيل أمامه للنجاة من الحرق على الخشبة إلا بالاعتراف الكامل والخضوع التام . وقام المحققون بتعذيبه مرتين فعذبوه فى المرة الأولى فى ٣ أكتوبر من العام المشار إليه آنفا بتهمة الخيانة ثم تكرر تعذيبه يوم ٢٠ نوفمبر من نفس العام بتهمة الاشتغال بالسحر الأسود . ورغم أن السجلات ادعت أن تعذيبه كان مخففا فإن الكتبة سجلوا صرخاته الزاعقة من جراء التعذيب الذى فشل فى حمله على الاعتراف بذنبه وإن كان قد أفلح فى تدميره نفسيا وجعله فى نهاية الأمر يرتمى أمام المحققين طالبًا منهم أن يرحموه ويعفوا عنه .

ويقضى الحكم الصادر عليه فى ٨ ديسمبر بتبرئته من تهمة محاوله قتل البابا بندكت الحادى عشر . ولكن التهم الأخرى ازدادت سوءا حيث إنه اتهم بالإدلاء بما لا يقل عن سبعين شهادة زور فى أثناء استجوابه . وبعد أن نبذ برنارد أفكاره برأت

المحكمة ساحته وتم نزع ملابس الكهنوت عنه كما حكم عليه بالسجن المؤبد وأن يعيش على الخبز والماء وحدهما وهو قابع فى سجن محكمة تفتيش .

ورغم ذلك فقد احتج شانئوه لدى البابا على ما اعتبروه حكما مخففا . غير أن عددا من المسئولين الدينيين رأوا أنه حكم غليظ حيث إن برنارد ديلسييه الطاعن فى السن أصبح واضح الهزال نتيجة ما لقيه من تعذيب وتكبيل بالأغلال والعيش على الخبز والماء . ومع ذلك فقد رفض البابا معاملته بالرأفة . ومن سوء حظه أنه وقع فى يد واحد من ألد أعدائه هو المحقق جين دى بون Jean de Baune . وقد وضع موته نهاية لبؤسه وشقائه .

ويتولى البابا يوحنا الثانى والعشرين الكرسى البابوى تعاظم سلطان الرهبان الدومينكان رغم أنه نشر قوانين سلفه كليمنت الخامس الهادفة إلى كبح جماح محاكم التفتيش ، وفى ٣٠ مارس ١٣١٨ تراجع عن توفير الأمان والحماية للمتمرد أيمرك كاستيل وبقية الشاكين من تجاوزات ومظالم محاكم التفتيش فى كل من كاركاسون وألبى وكورديس ، وأخذ المحققون ينقبون دون كلل أو ملل عن كل المعترضين على محاكم التفتيش لينزلوا بهم أشد العقاب وليردعوا المدن التى شقت عصا الطاعة عليهم . وفى ١١ مارس ١٣١٩ عقد المسئولون عن محاكم التفتيش اجتماعا حاشدا فى كنيسة الجبانة لمساءلة المنشقين عليها وحملهم على إعلان ندمهم وتوبتهم على الآثام التى اقترفوها فى حق الكنيسة الكاثوليكية وكذلك رضائهم عن أى عقاب يفرض عليهم . أما الذين تخلفوا عن إعلان توبتهم فقد أعطوا مهلة للاستغفار . وعوقب الأهالى على عصيانهم للكنيسة وصدرت إليهم الأوامر ببناء كنيسة صغيرة ملحقة بالكاتدرائية فى غضون عامين وكذلك إقامة بوابة كنيسة الدومينكان وإعطاء خمسين جنيها تبرعًا لكنيسة الرهبان الكراملة ثم بناء مقابر مصنوعة من الرخام كى تضم رفات كل من المحققين الراهب نيكولاس وأبرفيل وفولكس دى سانت جورج فى مدينتى ليون وكاركاسون ، الذين لحق الأذى بهم نتيجة تمرد الأهالى عليهم . وأيضا شمل العقاب جميع القناصلة الذين اتخذوا مواقف عدائية ضد محاكم التفتيش فى الفترة

من عام ١٣٠٢ حتى عام ١٣٠٤ . وأيضا وقعت محاكم التفتيش - التى خرجت فى هذا الصراع ظافرة منتصرة - العقاب على مدينة كورديس قبل أن تتصالح معها . وليس هناك دليل على أن المهرطقين الذين قبضت عليهم محاكم التفتيش فى ألبى عام ١٢٩٩ كانوا بالفعل من المارقين . وتحت وطأة التعذيب استطاعت هذه المحاكم أن تنتزع من كثير من الأبرياء اعترافا بهرطقتهم . وقد أصر لامبرت دى فويسيه Lam-bert de Foysseux على عدم التراجع عن أفكاره الدينية المارقة فتم حرقه فى ١٣٠٩ فى حين انهار معظم السجناء أمام التعذيب .

كان المحقق البارز فى محاكم التفتيش برنارد جوى على حق حين شكا من أن القيود التى فرضها الملك فيليب على هذه المحاكمة شجعت على انتشار الهرطقة فى لانجويدوك . ورغم ذلك فبحلول عام ١٣٠٤ أكد الراهب الدومينكانى جويلم بيير أن لانجويدوك تطهرت من المهرطقين وأن عددهم فى ألبى وكاركاسون وكودس لايزيد عن أربعين مهرطقا أو خمسين . ويبدو أن هذه الأرقام غير مؤكدة ، فقد دأب المحقق برنارد جوى على الزهو بأن محاكم التفتيش استطاعت فى الفترة من ١٣٠١ إلى ١٣١٥ أن تكتشف ألف مهرطق اعترفوا بمروقهم وتم توقيع العقوبة عليهم .

وتشير السجلات التى احتفظ بها المحقق جيوفروا دابليس فى كاركاسون إلى كثرة عدد المهرطقين الذين مثلوا أمام محكمة التفتيش فى كاركاسون فى الفترة من ١٣٠٨ حتى ١٣٠٩ . ويؤكد أحد الشهود فى محاكمة برنارد ديلسيبيه كثرة عدد المهرطقين الذين اكتشفتهم محاكم التفتيش . وفى الوقت نفسه تقريبا بدأ ليمبوردش Limborch فى نشر الأحكام التى أصدرتها محاكم تفتيش تولوز . والجدير بالذكر أنه تم تعيين المحقق برنارد جوى فى محكمة تفتيش تولوز عام ١٣٠٦ . وجوى من أبرز المحققين الذين عرفتهم محاكم التفتيش عبر التاريخ ، وهو رجل مشهود له بالعلم الغزير والكفاءة النادرة . وقد اعترف البابا يوحنا الثانى عشر بفضله وأياديه البيضاء على الكنيسة الكاثوليكية ، ويرجع الفضل إليه فى اقتلاع جذور الهرطقة الكاثارية من لانجويدوك عندما كان يعمل محققا فى محكمة تفتيش تولوز . ورغم نجاح محاكم التفتيش فى القضاء على النبلاء المهرطقين والمؤمنين بالكاثارية ، فإن هذه الهرطقة

ظلت تضرب بجذورها الراسخة بين الريفيين البسطاء الذين يعيشون فى الوديان والوهاد وسفوح جبال البيرنيز .

وكان بيير أوتييه Pierre Autier الكاتب السابق لمدينة باكس (باميه) من أبرز الذين انخرطوا فى الهرطقة الكاثارية . وكان هذا الرجل ذا ثراء واسع وعريض ، فهو يملك الضياع الواقعة فى سفح جبال البيرنيز الوعرة حيث الكهوف الكثيرة والمخابئ العديدة والدروب القليلة شديدة الوعورة ؛ الأمر الذى سهل على المارقين والمهرطقين مهمة الهروب إلى حدود إقليم أراجون . أصبح أوتييه بعد حياة شهوانية قضاها فى فى المتع والملذات من أكثر الناس تقشفا وزهدا فى الحياة ، والتف حول هذا المهرطق المريدون والأتباع لدرجة أفزعت محاكم التفتيش وجعلتها تجدُّ فى طلبه وتسعى حثيثا للقبض عليه . وعرض رجل غادر يدعى جويلم جين على الرهبان الدومينكان الإيقاع بهذا الرجل وتسليمه إليهم . وبالفعل استطاع بعض الخونة الإمساك به فى جنح الظلام وكمماه ثم حملاه إلى الجبال حيث ألقوا به فى هوة بعد انتزاع اعتراف منه بأنه مذنب .

وتلخصت مهمة محقق كاركاسون جيوفروا دابليس أساسا فى تحديد الأشخاص الذين وفروا الحماية والملجأ الآمن للمهرطق بيير أوتييه . وكذلك بذل محقق تولوز جهدا نشيطًا مماثلا لتحقيق الغرض نفسه مما دفع هذا المهرطق لتغيير الأماكن التى يختبئ فيها . وبسبب التفاف المريدين حوله عجزت محاكم التفتيش عن الإمساك به، مما دفع المحقق برنارد جوف فى ١٠ أغسطس ١٣٠٩ إلى إصدار بيان خاص يحث فيه الكاثوليك المؤمنين على إلقاء القبض عليه وعلى شريكيه فى الهرطقة بيير سانش Pierre Sanche وسانش ميرساديه Sanche Mercadie حتى يكسبوا رضاء الله عليهم . وفى الواقع لم يكن هناك أى داع لإذاعة إصدار مثل هذا البيان على العالمين لأن المهرطق أوتييه كان قد تم إلقاء القبض عليه وعلى معظم أفراد عائلته وأصدقائه فى الفترة من ١٣٠٨ إلى ١٣٠٩ . وكذلك ألقت محاكم التفتيش القبض على مريده الوفى بيرين موريل Perrin Maurel الذى ظل ينكر هرطقة معلمه أوتييه حتى نصحه هذا الأخير فى سجنه بالاعتراف .

وتبع ذلك القبض على مهرطق آخر اسمه أمييل دى بيرليس Amiel de Perles الذى أحرق على الخشبة يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٠٩ أى قبل إحراق شيخ المهرطقين بيير أوتييه فى أبريل ١٣١٠ ، وذلك حين جاء المحقق جيوفروا دابليس من كاركاسون ليشارك زملاءه فرحة الانتصار على الهرطقة . واستقبل بيير أوتييه مصيره برباطة جأش ولم يخف أفكاره المارقة ، فقد وصف كنيسة روما بأنها مجمع إبليس . ويبدو أنه تعرض للتعذيب لإجباره على الكشف عن رفاقه ومريديه الذين وفروا له ملاذا آمنا فى فترة هروبه . ونظرا إلى امتلاك بيير أوتييه قدرا هائلا من المعلومات عن نشاط زملائه المهرطقين فقد اعتبره المحقق برنارد جوى صيدا ثمينا .

وهكذا تم القضاء على الهرطقة الكاثارية ونجح المحققان برنارد جوى وجيوفروا دابليس فى غضون سنوات قلائل فى القبض على أتباع المهرطق بيير أوتييه ومريديه وإحراق البعض منهم . ويمكن القول إن فرنسا بعد عام ١٣١٥ لم تشهد مهرطقا عملاقا فى مكانة أوتييه ، ولكن هذا لم يمنع من ظهور بعض التوابع كما نستدل على ذلك من بعض الأحكام الواردة فى سجلات عامى ١٣٢٧ و ١٣٢٨ حيث نرى محقق كاركاسون جين دوبرات Jean Duprat يدين هرطقة جوليما تورنيير Guillema Torniere التى أحرقت بسبب تشبثها بمعتقداتها المارقة . وأيضا من بين التوابع أو الذيول المشار إليها أن المحقق هنرى دى شاماى حكم فى كاركاسون بالسجن على مهرطق كاثارى اسمه جويلم أمييل Guliem Amiel كما أنه حكم بالسجن عام ١٣٢٩ على اثنين من الكاثاريين هما بارتولومى بايز Bartolome pays وريموند جاريك Raymond Garric وفى العام نفسه (١٣٢٩) أمر هذا المحقق بهدم أربعة منازل ومزرعة لأن أصحابها تحولوا إلى الهرطقة أثناء معيشتهم فيها ، فضلا عن استمرار المحققين فى اتباع سياسة مصادرة ممتلكات المهرطقين . ويمكن القول إن لانجويدوك آنذاك أصبحت خالية من الهرطقة بعد أن بلغت ذروتها قبل ذلك بمائة وخمسين سنة ، وبلغت من الضراوة والعنف مبلغا كاد أن يقتلع المذهب الكاثوليكى من جذوره .

وفى عام ١٣٢٩ تمثلت بعض الهرطقات الكاثارية فى أفكار أشد ما تكون غرابة كتلك التى عبر عنها رجل دين يدعى ليموكس نوار Limoux Noir فى أسقفية أليت، والذى سبق لرئيسه الأسقف أن حاكمه عليها فى عام ١٣٢٦ . ولكن هذا الأسقف فشل فى أن يأخذ منه حقا أو باطلا، فقد عجز عن إثبات اقترافه لأى جرم أو خروج عن صحيح الدين . ولكن محاكم التفتيش نجحت بأساليبها الناجعة فى التعذيب فى حمله على الاعتراف بذنبه . اعترف بإيمانه بمذهب فلسفى كونى يحل محل جميع الديانات ، ومفاد هذا المذهب أن الله خلق رؤساء الملائكة الذين خلقوا بدورهم الملائكة التى خلقت بدورها الشمس والقمر وهما فى رأيه جرمان سماويان أنثويان بسبب فسادهما وعدم استقرارهما . ومن بول هذين الكوكبين تكون هذا العالم الفاسد وسائر المخلوقات التى تتحرك على سطحه . ولهذا قامت الشمس بإرسال موسى ومحمد والمسيح كى يعلموا البشر وهم جميعا على قدم المساواة ، وفى العالم السفلى احتدم النزاع بين المسيح ومحمد فى سعيهما وتنافسهما على اجتذاب الأتباع . وفى رأى هذا المهرطق أن المعمودية عديمة الجدوى لأن الذين يتعمدون يصيرون لصوصا وموسات عندما يكبرون . فضلا عن أنه يعتبر الأيوخارست (تحول الخمر والقربان إلى دم المسيح وجسده) ضربا من الوهم لا طائل منه ، لأن الله يرفض أن يتعامل مع زناة وخطاة مثل القساوسة . ويجب على الإنسان الإقلاع عن الزواج لأنه يثمر قطاع طرق وموسات . وظل المهرطق ليموكس نوار سادرا فى غيه لم يرعوِ أو يهتدِ إلا حين نصحه أخوه بأن يأخذ المناولة حتى لا تنبش محاكم التفتيش قبره وتحرق عظامه . وعلى أ ية حال لم يجد هذا المذهب الغريب أية استجابة تذكر وأمكن سحقه منذ البداية . ومن تحديه للمحقق قال هذا المهرطق إنه يفضل أن يسلخ حيا على أن يؤمن بالأيوخارست . ولا غرو إذا حكمت عليه محكمة التفتيش بالموت . وبموته ماتت فلسفته الغريبة .

ومع الانتصار الساحق الذى حققته محاكم التفتيش على جنوب فرنسا وشن الحروب الصليبية التى لا تنتهى فقد هذا الجنوب انتعاشه الاقتصادى بعد أن كان يتفوق على كل أوروبا فى مضمار التقدم والتحضر وفى الفنون والعلوم والرخاء فى القرن الثانى عشر . وفى فترة ازدهار الجنوب الفرنسى أصبحت مدنه تحكم نفسها بنفسها وتحرص على توفير الحرية لمواطنيها ، كما انشغل النبلاء بالفنون والآداب وقرض الشعر موفرين لمواطنيهم الرفاهية وقدرا عظيما من الحرية . ولكن بمجىء الحروب الصليبية التى شنتها محاكم التفتيش انهارت الصناعة والتجارة وعاش الناس فى فاقة . وصودرت أموال النبلاء والحكام وحل محلهم حكام أغراب بين البلاد يحكمون بالحديد والنار ويعملون على ترسيخ النظام الإقطاعى المتخلف الذى كان يسود شمال أوروبا ويجعلها تعيش فى ظلام حضارى دامس . وبدلا من أن تؤدى حضارة الشمال الأوروبى إلى بزوغ عصر من النهضة أصبح الأمل معقودا على إيطاليا فى الجنوب فى بزوغ هذه الحضارة .

ورغم ما أحرزته محاكم التفتيش من نصر ساحق على المهرطقين فإنها كانت تحمل فى أحشائها بذور انهيارها كما يدل على ذلك ذيوع وانتشار النهضة الإيطالية فى جميع أرجاء القارة الأوروبية .

الفصل الرابع

فرنسا

عندما نتحدث عن فرنسا فى ذلك الزمان فنحن نعنى المناطق الشمالية منها حيث كان الجنوب الفرنسى المتمثل فى أوكيتانيا مستقلاً عن الشمال ، ورغم أن الهرطقة الكاثارية لم تهددالكنيسة الكاثوليكية فى الشمال كما هددتها فى الجنوب، فإن الحروب الصليبية التى شنتها الكنيسة على الجنوب والتى انتهت فى عام ١٢٢٩ بنوع من التهدئة والتصالح دفعت الكثير من المهرطقين إلى الفرار للشمال طلبًا للأمان . وبسبب تراخى كثير من رجال الكنيسة وتقاعسهم أصبح لزامًا على المحققين فى محاكم التفتيش أن ينشطوا فى البحث عن المهرطقين الفارين فى كل مكان واللحاق بهم فى مخابئهم . وكان ملك فرنسا لويس التاسع أشد ما يكون حرصًا على تطهير بلاده من المهرطقين ؛ فقد كان يرى أن أفضل سبيل إلى التعامل مع المهرطقين هو إغماد السيوف فى قلوبهم . وبينما كان الجنوب فى عام ١٢٢٣ يعين فى محاكم تفتيش تولوز محققين أشداء وأكفاء أمثال بيير سيلا وجويلم أرنود، بذل الشمال الفرنسى جهداً مضنيًا ليفعل الشىء نفسه . وبطبيعة الحال لم يجد الشمال الفرنسى أكثر غلوا وتعصبًا وتطرفًا فى الدين من طائفة الرهبان الدومينكان . وحاول الشمال أن يسند إلى رهبان فرنش كوميته Frenche - Comte مهمة مطاردة المهرطقين ولكنهم رفضوا الاضطلاع بهذه المهمة . وعلى أية حال أصابت كنيسة الشمال فى غرب إقليم بورجندى نجاحًا ملحوظًا عندما عثرت على رهبان متطرفين أمثال رينيريى ساكون Rainerie Saccone على أتم استعداد للقيام بهذه المهمة . وزعم راهب آخر هو روبرت المعروف باسم البورجندى القدرة على اكتشاف المهرطقين المختبئين والتعرف عليهم

من مجرد مسلكهم وأسلوبهم فى الحديث . وفى أوائل عام ١٢٣٣ لم يجد الرئيس الدينى فى بيسانكون من يمثله فى مطاردة الهراطقة أفضل من روبرت الذى لم يضيع أى وقت بل سارع بمداهمة مركز مهم من مراكز الهرطقة فى القرن الثانى عشر باسم الشارتيه ، قاطعًا على نفسه عهدًا بتطهير هذا المركز من شرها . غير أنه أخفق فى تحقيق هدفه بسبب عناد المهرطقين وتشبثهم بهرطقتهم ، كما أن المسئول الدينى فى بيسانكون صادف الفشل نفسه فى محاولة هدايتهم . ولكن فشل المحقق روبرت فى مهمته مالبث أن تحول إلى نشاط ناجح محموم بسبب فرط حيويته . ونتيجة لذلك جاءه الهراطقة من كل حدب وصوب ليعترفوا له بذنوبهم ويكيلوا الاتهامات إلى بعضهم البعض ، ورفع المحقق روبرت إلى البابا جريجورى التاسع تقريرًا اعترف فيه بتردى الأوضاع مؤكدًا أن المدينة بأسرها تفوح برائحة الهرطقة النتنة ، زاعمًا أن المهرطقين تفننوا وبرعوا فى استخدام أساليب التمويه والخداع . فتلقى هذا المحقق تعليمات من البابا جريجورى التاسع بضرورة تعاونه مع الأساقفة واتباع القوانين البابوية الهادفة إلى استئصال الهراطقة عن طريق استخدام القسر إذا لزم الأمر والاستعانة بالسلطة المدنية . والأرجح أن تعصبه الدينى الأعمى جعله لا يميز بين المذنبين والأبرياء . ولم يمض وقت طويل حتى أعلن رئيس أساقفة سنس Sens فى منطقة شارتيه البابا جريجورى عن احتجاجه الشديد على كثرة تدخل هذا المحقق فى اختصاصاته إلى جانب تعبير كثير من الكرادلة عن انزعاجهم من غلواء طائفة الرهبان الدومينكان فى باريس وتطرفهم . وأكد الكرادلة أن روبرت يبالغ فى حجم الهرطقة كى يبرر تطرفه . واستجاب البابا لشكوى الكرادلة ضد المحقق روبرت بأن ألغى فى أوائل فبراير ١٢٣٤ التكليفات التى أسندها إليه . ولكن فى الوقت نفسه حث الكرادلة على المزيد من اليقظة ونصحهم بالتشاور مع الرهبان الدومينكان عند اتخاذ أية إجراءات ضد الهراطقة بسبب ما عرف عن هؤلاء الرهبان من التصدى للهرطقات وتفنيدها ، ولكن حماسة المحقق روبرت جعلته يمضى قدمًا فى ملاحقة المهرطقين والعمل على إقامة محاكم تفتيش فى كل أرجاء فرنسا . ولحمايته من أذى المهرطقين وضع الملك لويس حرسًا مسلحًا للذود عنه ، وجاب روبرت البلاد طولاً وعرضًا ينشر فيها الرعب والفزع ، ففى مدينة بيرون أحرق خمسة أشخاص ثم أحرق أربع ضحايا

فى مدينة هورانكورت ، ثم ذهب إلى كامبراى حيث ساعده رئيس أساقفة ريمز وثلاثة أساقفة على القضاء على نحو عشرين مهرطقًا بالإضافة إلى الزج بآخرين فى غياهب السجون ، ومن هناك توجه إلى ديواى حيث أحرق عشرة هراطقة آخرين ، وحكم على العديدين بالسجن وارتداء الصلبان للدلالة على التوبة فى حضرة كونت فلاندرز ورئيس أساقفة ريمز وكثير من الأساقفة ، ثم عرج على مدينة ليل حيث حكم بإعدام الكثيرين . وكان هذا العدد الهائل من الاعترافات سببًا فى إقناع البابا جريجورى بأنهم لم يتحروا الدقة عندما أخبروه أن المنطقة خالية من الهراطقة ؛ ولهذا نرى البابا فى أغسطس ١٢٣٥ يعلن أمام المسئول الدومينكانى أن جميع أرجاء فرنسا تعج بالأفاعى المهرطقة . ومن هذا المنطلق أصدر الكرسى البابوى مجددًا تعليمات إلى الراهب روبرت بالتجوال فى ربوع فرنسا مع فريق من معاونيه للتصدى للهرطقة ، وأمر البابا رئيس أساقفة سنس أن يقدم إلى المحقق روبرت كل ما يستطيع من عون ، وأيضًا عينه الكرسى البابوى على رأس لجنة خاصة حاثًا إياه على التضحية بروحه فى سبيل تطهير البلاد من المارقين .

وألهبت تعليمات البابا حماس روبرت الذى بدا وكأن مسا من الجنون قد أصابه، كما أن الملك لويس أمر الكرادلة بتقديم كل ما يحتاج إليه من مساعدة . ويقال إنه فى فترة لا تتجاوز شهرين أو ثلاثة قضى على نحو خمسين مهرطقًا من الذكور والإناث؛ الأمر الذى جعل فرائص الناس ترتعد بمجرد سماع اسمه ، كما جعلهم يضجون بالشكوى لدرجة أنه لم يكن بمقدور البابا أن يصم آذانه فاضطر فى عام ١٢٣٨ إلى إجراء تحريات أثبتت تعسف روبرت وطغيانه . ولكنه استطاع قبل أن يكبح الكرسى البابوى جماحه أن يحرق فى عام ١٢٣٩ عددًا كبيرًا من المهرطقين فى مونتموريكون ، ويقال إنه أحرق مائة وثلاثة وثمانين مهرطقًا فى مونت وايمر معقل الهراطقة الكاثارية فى القرن الحادى عشر فى حضرة ملك نافار وحشد من الكرادلة والنبلاء وجمهور غفير من الشعب يقدر عدده بسبعمائة ألف شخص . وأمام الفظائع التى ارتكبها روبرت قام البابا بتجريده من السلطات الاستثنائية التى سبق أن منحها له ، فضلاً عن أنه زج به فى سجن دائم .

ورغم اختفاء روبرت عن مسرح الأحداث فقد ظل الاضطهاد مستمراً في فرنسا بزعم أنها لم تتطهر من الهراطقة ، واستمـــر هــذا الاضطهاد عنيفًا ومستمـــراً لمدة ما يقرب من أربعة أعوام بزعامة الرهبان الدومينكان . وشجع على استمرار محاكم التفتيش الفرنسية في عملها أن لويس ملك فرنسا تولى الإنفاق عليها ، وتسجل سجلات الخاصة الملكية لعام ١٢٤٨ المبالغ التي أنفقت على محاكم التفتيش في باريس وأورليانز وإيسودون وستلنيس وأمنيز وتورنو ويفرلي شاتيل وبومنت وسانت كوينتين ولاون وماكون . ولم يهدأ عنفوان محاكم التفتيش إلا في عام ١٢٦٦ عندما احتدم الصراع بين طائفتي الرهبان المتنافسين الدومينكان والفرنسيسكان ، غير أن معظم الأراضي الفرنسية كانت في قبضة الدومينكان . ويدل المرسوم الذي أصدره البابا أنوسنت الرابع عام ١٢٥٣ على أن المسئول الديني المحلي في باريس يبسط سلطانه الديني على كل المملكة بما في ذلك أراضي ألفونس تولوز ؛ فقد نص المرسوم البابوي على أن تبسط محاكم التفتيش نفوذها على جميع أركان المملكة وأن تعمل بأكبر قدر من الكفاءة .

والجدير بالذكر أن وضع محاكم التفتيش في لانجويدوك في الجنوب تأرجح بين الاستقلال عن فرنسا والتبعية لها ، ففي عام ١٢٥٥ كانت تتمتع بالاستقلال عن باريس في حين أنها كانت في عام ١٢٥٧ تابعة لها ، ثم عادت في عام ١٢٦١ إلى سابق استقلالها كي تصبح عام ١٢٦٤ تابعة للمسئول الديني في باريس . في عام ١٢٥٥ تقاسم الرهبان الفرنسيسكان والدومينكان السلطة على محاكم التفتيش في باريس . ولكن بحلول عام ١٢٥٦ استعاد الرهبان الدومينكان كامل سيطرتهم عليها . وبمضي الوقت استكملت محاكم التفتيش هيكلها الوظيفي ، ورغم اندثار الوثائق التي تسجل نشاط محاكم التفتيش في فرنسا فإن التاريخ يحتفظ لنا ببعض السجلات التي أصدرها المحقق سيمون ديفال Simon Duval في عامي ١٢٧٧ و ١٢٧٨ .

دأب المحققون في محاكم تفتيش فرنسا على الشكوى من النص القانوني الذي يعطي المجرمين والآثمين حق الاستمتاع بملاذ آمن في الأماكن المقدسة . فالقانون يحظر القبض على أي شخص داخل الكنيسة أو الدير ، كما أن القانون العام نص

على فرض الحظر الكنسى على كل من تسول له نفسه انتهاك الملاذ الآمن وإنزال العقاب به ؛ ولهذا كان من الطبيعى أن يلجأ بعض المهرطقين إلى أماكن العبادة كملاذات آمنة . وبسبب شكوى المحققين من استغلال الملاذ الآمن أصدر البابا مارتن الرابع فى عام ١٢٨١ مرسومًا ينص على عدم السماح للمهرطقين باستغلال حق اللجوء إلى الأماكن المقدسة ، وقد أشار هذا المرسوم البابوى بوجه خاص إلى اليهود الذى اعتنقوا المسيحية ثم ارتدوا عنها ، وقد تم حرق واستتابة الكثير من هؤلاء اليهود المرتدين فى الفترة من ١٣٠٧ حتى ١٣١٠ .

وأيضًا أصبح الواجب يقتضى من محاكم التفتيش محاسبة الذين صدر ضدهم حظر كنسى لمدة عام دون حصولهم على غفران الكنيسة لخطاياهم؛ لأن مثل هؤلاء الناس مهرطقون فى نظر القانون . وقد رأينا البابا بونيفاس الثامن فى عام ١٢٩٧ يصدر تعليماته إلى محققى محاكم تفتيش كاركاسون لاتخاذ الإجراءات القانونية ضد بعض أهالى مدينة بيزييه لهذا السبب . والجدير بالذكر أن مجلس ريمز أوصى بضرورة البدء فى اتخاذ الإجراءات ضد الذين فرض عليهم الحظر الكنسى لمدة عامين دون أن يحاولوا فى أثنائهما الحصول على مغفرة الكنيسة ، حيث إن شبهة الهرطقة تحوم حولهم . وفى عام ١٣٠٢ عقد الأساقفة محكمة للنظر فى مثل هذه الحالات بمعزل عن المحققين الذين كانوا فى كثير من الأحيان على علاقة سيئة برجال الدين العاديين .

ونحن نسمع فى عام ١٣٠٨ عن شخص يدعى أيتين دى فيربيرى سواسون Etrienne de Verberie Soissons اتهمته محاكم التفتيش بالتجديف على جسد المسيح ، وعلل الرجل تجديفه بأنه كان مخمورًا ومن ثم استخدمت محكمة التفتيش الرأفة معه ، وبعد مضى وقت قصير صدر فى باريس فى يوم ٣١ مايو ١٣١٠ أول عمل إيمانى (حكم بالإعدام) ضد امرأة مهرطقة تدعى مرجريت دى هاينولت Marguerite de Hainoult بسبب انتمائها إلى طائفة مهرطقة تعرف باسم الروح الحرة (راجع كتابى «الهرطقة فى الغرب») . نادت هذه المرأة بأن الروح التى يغمرها الحب الإلهى لا تتدنس حتى إذا كانت غارقة لأذنيها فى الخطيئة ، وعبرت هذه المرأة عن

رأيها في كتاب أدانه جـوى الثاني أسقف كامبراي قبل عام ١٣٠٥ ، وكان هذا الأسقف رحيمًا بها فاكتفى بحرق الكتاب وتحذيرها من تداوله ؛ ولكنها لم ترعو فقدمها فيليب دي مارجيني محقق اللورين الذي خلف جوى الثاني إلى المحاكمة فيما بعد بتهمة الترويج لمذهبها بين البسطاء ولكنها تمكنت من الهرب . وتجاسرت هذه المرأة فقدمت نسخة من كتابها إلى جين أسقف شالون وذاعت أفكارها المهرطقة حتى وصلت إلى باريس ، ولكن الأمر انتهى بوقوعها في أيدي جويلم محقق محكمة تفتيش باريس فرفضت القسم أمامه فألقى بها في السجن بعد فرض الحظر الكنسي عليها . وقام المحقق بكتابة بيان وتقديمه إلى فقهاء القانون في الجامعة على غير ما جرت عليه العادة في مثل هذه الأحوال ، وقرر الفقهاء بإجماع الآراء أن المرأة مهرطقة وينبغي تسليمها إلى الذراع العلماني لتنفيذ حكم الإعدام فيها ؛ فتم إحراقها في اليوم التالي أمام حشد من النظارة ذرفوا الدموع سخينة عليها بسبب وفائها النادر لمبادئها . وكان كاتب الأسقفية واحداً من المعجبين بهذه المرأة ، وسعى هذا المريد واسمه جيون إلى إقناع المحكمة بتبرئتها فتم القبض عليه وحبسه . واقتدى التلميذ بمعلمته فرفض القسم قبل التحقيق معه ، ويبدو أن عقله اختل في فترة حبسه التي امتدت إلى ثمانية عشر شهراً فقد ادعى أنه مبعوث العناية الإلهية التي أرسلته لخلاص العالم ، فلم يجد المحقق مفراً من إدانته وحكم عليه بالسجن المؤبد .

وهناك حالة هرطقة أخرى حدثت عام ١٣٢٨ في باريس بطلها مهرطق اسمه سبور دي بارتينياي تدل على مدى سلطة محاكم التفتيش في فرنسا ، فقد اتهم محقق في محكمة تفتيش باريس الراهب موريس واحداً من نبلاء بواتو بالهرطقة فأمر الملك بالزج به في السجن ومصادرة جميع ضياعه وممتلكاته . وكان هذا المهرطق بارتينياي من أصحاب السطوة والنفوذ وله أصدقاء أقوياء عديدون من بينهم أسقف نوايو الذي عمل جاهداً لتبرئته . ونظراً لما تمتع به هذا المهرطق الثري من نفوذ أبلغ البابا أن السبب الحقيقي في اتهامه بالهرطقة هو كراهية الراهب موريس له ؛ فتم إرساله إلى أفنيون حيث نجح في جعل البابا يوحنا الثاني والعشرين يشرك بعض الأساقفة مع المحقق موريس في التحقيق معه ، وأخيراً استطاع هذا النبيل عن طريق ثروته العريضة أن يحصل على أمر بإطلاق سراحه .

وفى ١٦ يناير ١٣٢٩ أصدر هنرى دى شاماى عملاً إيمانيا فى باميه حكم فيه على سبعة متهمين بالهرطقة بالسجن مدى الحياة ، وتقديم ستة من المهرطقين الأموات إلى المحاكمة . وفى ١٩ ديسمبر من العام نفسه عقد هنرى دى شاماى محاكمة للمهرطقين فى ناربون ثم عقد محاكمة أخرى فى باميير يوم ٧ يناير ١٣٢٩ وأخرى فى العام نفسه يوم ١٩ مايو فى بيزييه وثالثة فى ٦ سبتمبر فى كاركاسون حيث حكم على ستة مهرطقين بالحرق وواحد وعشرين بالسجن المؤبد .

وبعد وقت قصير قام بحرق ثلاثة مهرطقين فى ألبى إلى جانب محاكمات أخرى عقدها فى أماكن مختلفة الأمر الذى يدل على أن هذا المحقق كان شعلة من الحيوية والنشاط . ويبدو أن بعض المصادمات نشبت بين المحققين وموظفى الملك لأننا فى عام ١٣٣٤ نسمع عن شكوى المحققين إلى الملك فيليب دى فالوا الذى أمر موظفيه فى كل من نيميس وتولوز وكاركاسون بعدم تعطيل سير العمل فى محاكم التفتيش أو الاعتراض على امتيازاتها .

واستمر نشاط المحققين على أشده بعضًا من الوقت . ويخبرنا مسئول تولوز عام ١٣٣٧ أن المحقق بيير برونى Pierre Bruni بذل جهداً ملموسًا فى محاكمة المهرطقين ، فقد أمر بمصادرة ضياع ثلاثين مهرطقًا كما أصدر عملاً إيمانيا يتضمن الحكم بالسجن على نحو اثنين وثمانين مهرطقًا . وصدرت أيضًا أعمال إيمانية مهمة أخرى فى أعوام ١٣٤٦ و١٣٥٧ و١٣٨٣ فى كاركاسون إلى جانب الأعمال الإيمانية الصادرة فى تولوز عام ١٣٧٤ . ثم أخذت قوة محاكم التفتيش تأفل وتضمحل فى الفترة من ١٣٥٠ حتى ١٣٦٣ حيث إننا لم نعد نسمع عن وجود محاكم تفتيش فى تلك الفترة فى الشمال . ولا شك أن الحروب التى اندلعت بين فرنسا وإنجلترا آنذاك عطلت سير محاكم تفتيش الشمال . وعلى أية حال تشير الدلائل إلى أن هذه المحاكم لم تكن خاملة بل استمرت فى مباشرة عملها بشكل أو بآخر . ويتضح لنا هذا من شكوى المسئول الدينى فى باريس إلى البابا كليمنت السادس عام ١٣٥١ من تقاعس هذه المحاكم فى أداء واجبها ؛ الأمر الذى دفع البابا إلى توسيع سلطات المحقق الراهب جويلوم شيفالييه وغيره من المحققين فى إقليمى تورين وماين .

وبانتهاء الحروب بين إنجلترا وفرنسا تعززت سلطة محاكم التفتيش . ورغم أن الطائفة المهرطقة المعروفة باسم الروح الحرة أو البيجارديين Begghards فقدت زعيمتها المهرطقة مرجريت لابوريت فقد استمرت هذه الطائفة فى نشر هرطقتها فى الخفاء ؛ الأمر الذى أدى إلى انزعاج البابا إيريان الخامس الذى قام فى سبتمبر ١٣٦٥ بتبليغ جميع الكرادلة والمحققين بضرورة التصدى لهرطقة هذه الطائفة ، كما أبلغ أسقف باريس ورجال الكنيسة والمحققين فى جميع أرجاء فرنسا بطبيعة هذا المذهب والأماكن التى يتفشى فيها ، ونحن نعلم عن انصراف محقق مدينة بوجريه الراهب ماك دى مور إلى التصدى لهم عام ١٣٧٢ بغية اجتثاث جذورهم . وقد ذاعت الهرطقة البيجاردية على وجه الخصوص فى ألمانيا ، وتسمى أتباع هذه الهرطقة باسم صحبة الفقراء . وكانوا فى ألمانيا يرتدون زيًّا خاصا بهم . وتشجيعًا لمحقق محكمة التفتيش فى بوجريه على أداء مهمته أعطاه الملك شارل الخامس منحة قدرها خمسون فرنكًا ، كما أن البابا جريجورى الحادى عشر شكره على حماسه وتفانيه . وتمثل نشاط هذا المحقق فى إحراق كتب المهرطقين وملابسهم فى سوق الخنازير إلى جانب إحراقه عضوًا بارزًا فى هذه الطائفة المهرطقة هى جين دوبينيتون ، أما شريكها فى الهرطقة فقد نجا من الموت حرقًا حيث إنه توفى فى السجن ، غير أن محكمة التفتيش احتفظت بجثته فى مادة حافظة حتى تتمكن من إحراقه مع شريكته . وكما ذكرنا كانت هذه الهرطقة البيجاردية أكثر رسوخًا فى ألمانيا منها فى فرنسا . وزاد من ذيوع هذا المذهب وانتشاره أنه يبرر الاستغراق فى شهوات الجسد ويضفى عليه سموًّا روحيًّا .

كما أنه ساعد على ذيوعه أن امرأة تدعى مارى فالنسيانس Mary Valenciannes ألفت كتابًا شرحت فيه أركان هذا المذهب . وفى مايو ١٤٢١ تمت إدانة خمسة وعشرين من أتباع هذا المذهب فى مدينة دواى على يد أسقف أراس ؛ فتراجع عنه عشرون متهمًا وحكم عليهم بالتوبة عن طريق حمل الصليب والنفى والسجن ، فى حين أصر الخمسة الآخرون على هرطقتهم ولم يبالوا بإلقائهم فى النار .

وفى عام ١٣٨١ وقع المهرطق هوج أوبريوت Hugues Aubriot فى قبضة الراهب جاك دى مور Jacques de More ، واستطاع هذا المهرطق بحيويته أن يكسب ثقة

الملك شارل فأسند إليه مهمة دينية كبيرة فى باريس ، وكذلك استطاع هذا المهرطق بتصرفاته أن يحظى باحترام الجميع. ولكنه أثار عداوة جامعة باريس بسخريته منها ، ولكن الجامعة لم تستطع أن تنال منه فى حياة الملك شارل الخامس المؤيد له . غير أن الوضع تغير بعد وفاة هذا الملك . وفى ٢٥ نوفمبر ١٣٨٠ اندلعت أعمال شغب ضد اليهود، وسطا الدهماء على منازلهم وقاموا بتعميد أبنائهم قسراً . ولكن أوبريوت أثار سخط الكنيسة الشديد عليه حين أعاد الأطفال اليهود إلى ذويهم ؛ ومن ثم قام الأسقف والمحقق باستدعائه للمثول أمامهما فى ٢١ يناير ١٣٨١ ، ولكنه رفض الامتثال لهذا الاستدعاء فطردته الكنيسة من حظيرتها ، وأعلن هذا الطرد فى جميع كنائس باريس ، واضطر هذا المنشق إلى المثول أمام المحقق فى ١٠ فبراير من العام آنف الذكر وألقى به فى السجن لحين الانتهاء من محاكمته ، حيث وجهت إليه مجموعة من التهم التافهة باستثناء تهمتين كانتا على درجة كبيرة من الخطورة هما إعادة الأطفال اليهود الذين عمدوا بالقوة إلى ذويهم إلى جانب إطلاق سراح مهرطق زج به المحقق فى السجن . ويقال إن أحد أتباع أوبريوت تأخر عن الحضور عنه متعللا بأنه ذهب إلى الكنيسة لرؤية الله المتجسد ، فرد عليه أوبريوت غاضباً : "يا سيد ألا تعرف أنى أملك سلطة أكبر على إيذائك من قدرة الله على مساعدتك" . وبناء على هذه الأقاويل حكمت عليه محكمة التفتيش بالموت حرقًا دون أن تعطيه فرصة نبذ هرطقته والرجوع عنها كما جرت العادة ، غير أن أمراء البلاد تدخلوا لدى محكمة التفتيش كى تمنحه حق التوبة . وفى يوم ١٧ مايو من العام المشار إليه صدر عمل إيمانى بشأنه ، وأقيمت سقالة أمام كاتدرائية نوتردام اعتلاها أوبريوت ليعترف بذنبه ويكفر عنه فعدلت المحكمة الحكم بحرقه واكتفت بسجنه سجنًا مؤبداً ومصادرة كل ثروته . وانتهز شانئوه فى جامعة باريس هذه الفرصة لقرض الأشعار والأهازيج المستهزئة به، وتم نقله إلى زنزانة تحت الأرض بقى فيها حتى عام ١٣٨٢ . وبالنظر إلى شدة تعلق الشعب به فقد حطموا قضبان سجنه وأخرجوه وحملوه على أعناقهم واعتبروه زعيمهم، غير أنه انتهز حلول الليل وتسلل ليهرب إلى مسقط رأسه فى بورجندى حيث توقف نشاطه وطواه النسيان .

ونحن نسمع بعد ذلك القليل عن محاكم التفتيش رغم وجودها ، وفى عام ١٣٨٨ ظهر مهرطق وخطيب يدعى توماس أبوليا Thomas Apulia نادى بأن الحب جوهر المسيحية ؛ فاجتذب إليه حشداً غفيراً من الناس . وقد أنكر هذا المهرطق أهمية القداديس والطقوس المسيحية وشفاعة القديسين . كما أنه ألف كتاباً هاجم فيه بشدة مفاسد الكرادلة والبابوات ورجال الكنيسة عموماً ، ورغم هذا الكفر الواضح فإن محاكم التفتيش لم تلعب دوراً فى إسكاته ، بل إن الذى تدخل طالباً منه الإقلاع عن هرطقته هو بروفست باريس المسئول الدينى فيها . وحتى عندما رفض هذا المهرطق الانصياع إلى البروفست تولى الأسقف والجامعة محاكمته وأمرا بحرق كتابه ، وكادا أن يحرقا هذا الكافر لولا شهادة الأطباء بجنونه فاكتفيا بحبسه حبساً مؤبداً . وإذا دلت هذه الحادثة على شىء فهى تدل على تهافت محاكم التفتيش فى فرنسا إيذاناً بانهيارها . ويرجع انهيارها إلى عدة أسباب منها أن هذه المحاكم لم تعد تصب فى خزانة الملك فيضاً من المصادرات مثلما كانت تفعل فى الماضى ، فضلاً عن أن النظام الملكى الذى أسهمت محاكم التفتيش الفرنسية فى ترسيخه اشتد ساعده فلم يعد بحاجة إليها . وتدل حالة أبتيل دى لوتريه رئيس دير سيرين على أن سلطة ملك فرنسا فاقت بكثير سلطة المكتب المقدس، ففى عام ١٣٢٢ اتهمه المسئول الدينى فى تولوز لدى محاكم التفتيش بأنه يبشر بأن الروح فانية وأن بركة الله هى التى تمنحها الخلود . وبعد أن فحصت محاكم التفتيش هذا الرأى قررت أنه لا يعتبر هرطقة ؛ فأغضب ذلك مسئولاً فى القصر الملكى فاستأنف ضده لدى البرلمان وليس لدى البابا . وجاء حكم البرلمان مؤيداً حكم محكمة التفتيش ؛ الأمر الذى يثبت أن البرلمان تمتع بسلطة تفوق سلطة محاكم التفتيش . وأزعج هنرى دى شاماى كثيراً أن يرى الملك فيليب دى فالوا يفعل كل ما فى وسعه للحد من سلطة محاكم التفتيش فلم يأل شاماى جهداً حتى استطاع فى نوفمبر ١٣٢٩ أن يحصل من الملك على قرارٍ يتضمن تأكيداً للمزايا الممنوحة لهذه المحاكم ووضع السلطة الزمنية من جديد رهن إشارتها وإلغاء كل القرارات التى سبق أن أصدرتها المحاكم الملكية والمعوقة لعمل المحققين وأدائهم لمهام وظيفتهم طبقاً للتعليمات البابوية بهذا الشأن . وفى عام ١٣٢٨ قام الملك وليس البابا بتعيين هنرى شاماى محققاً فى محاكم التفتيش ، ولا غرو فقد اتبع الملك فيليب

سياسة توسيع سلطانه الملكى . ومن هذا المنطلق أرسل الملك مبعوثه جويلوم دى فيلار Guillemme de Villure إلى منطقة تولوز لإصلاح تجاوزات محاكم التفتيش وافتئاتها على سلطة المحاكم الملكية . وفى عام ١٣٣٠ طلب دى فيلار عرض سجلات المحاكم الكنسية عليه، كما فعل الشيء نفسه فى العام ذاته بالنسبة لسجلات محاكم التفتيش. ونحن نشعر أكثر فأكثر بغرابة هذا الطلب عندما نتذكر أن المحقق نيكولاس دابرفيل رفض بكل كبرياء وشمم إطلاع الأساقفة الذين أرسلهم الملك فيليب على هذه الوثائق والمستندات ، وإذا تذكرنا تردد جين دى بيكوينى فى التدخل فى شئون جيوفرا دابليس. وتدل هذه التغيرات الجذرية التى طرأت على العلاقة بين الكنيسة والدولة على مدى ما اعترى السلطة الكنسية من ضعف أمام السلطة الزمنية ، فعندما رفضت محاكم التفتيش الاستجابة لطلب فيلار بعرض وثائقها عليه اقتحم حجرة السجلات عنوة واقتداراً واستولى على ما فيها من أوراق . وحين أراد المحقق الاحتجاج على هذا التدخل لم يلجأ إلى الكرسى البابوى كما هو مفروض ، بل لجأ إلى البرلمان الذى أدان فيلار لاستخدامه العنف ، وحكم عليه بدفع تعويض لمحاكم التفتيش ليس باعتبارها محاكم كنسية بل باعتبارها محاكم تابعة للملك . ومعنى هذا أن محاكم التفتيش أصبحت جزءاً من كيان الدولة . وهذا نفسه ما حدث فى عام ١٣٣٤ عندما استمع الملك فيليب إلى شكاوى المحققين من أن ممثليه يتدخلون دوماً فى شئونهم ويسلبونهم سلطتهم ؛ وبناء عليه أمر الملك باستمرار المحققين فى الاحتفاظ بمزاياهم القديمة .

ونسوق الحادثتين التاليتين للتدليل على مدى تحول محاكم التفتيش إلى أداة خاضعة فى يد الدولة أو السلطة الزمنية فى فرنسا ، ففى عام ١٣٤٠ حضر ضابط القصر الملكى لويس بواتو إلى منطقة لانجودوك لدخول مدينة تولوز فوجد أبوابها موصدة ؛ فترجل عن جواده وجثا بركبتيه على مسند (أو مخدة) ليقسم على قسمين متعارضين أحدهما عدم المساس بمزايا المحققين فى محاكم التفتيش والثانى الحفاظ على الحريات المدنية . ويدل هذا القسم المزدوج على أن السلطة الزمنية فى نظره على قدم المساواة بمحاكم التفتيش ، وهو الأمر الذى كانت الكنيسة ترفضه رفضاً باتاً فيما مضى لأن بابا روما وضع محاكم التفتيش فوق الجميع .

أما الحادثة الثانية فيرجع تاريخها إلى عام ١٣٦٨ عندما نضبت خزائن ملك فرنسا بسبب نفقات حربه الباهظة مع الإنجليز ، فقد عجزت هذه الخزانة عن دفع راتب محقق محكمة تفتيش كاركاسون ، وأمر الملك أن يتولى قناصلة كاركاسون (نيابة عن الدولة) دفع هذا الراتب نظراً لأن محاكم التفتيش لم تعد تملأ خزانة الملك بالأموال المصادرة ، وكذلك باعتبار المحققين رجال دولة وليس رجال دين .

وحتى عندما كان لطائفة الرهبان الدومينكان اليد الطولى فى مدينة كاركاسون تجرأ عليها حداد يدعى هيج وفتح فى عام ١٣٥٤ دكاناً على مقربة من كنيسة هؤلاء الرهبان حيث مارس عمله المزعج لدرجة منعت الرهبان من إقامة صلواتهم والتوفر على الدراسة . وعبثاً حاول هؤلاء الرهبان تهديده ، فلم يجدوا أمامهم مفراً من الشكوى ليس إلى الأسقف أو المحقق كما كان مفترضاً بل إلى الملك نفسه الذى أمر بإغلاق محل الحدادة .

وفى نهاية القرن الرابع عشر وقعت فى مدينة دايمز حادثة تدل على مدى انهيار نظام محاكم التفتيش فى جميع أنحاء فرنسا واستبدال سلطة المحاكم الملكية التابعة للبرلمان الفرنسى بسلطتها ، ففى عام ١٥٨٣ نشب نزاع بين قضاة هذه المدينة ورئيس أساقفتها حول من له سلطة محاسبة المجدفين والمهرطقين وتوقيع العقاب عليهم . وفى البداية حسم هذا الأمر لصالح رئيس الأساقفة ، غير أن هذا النزاع ما لبث أن نشب من جديد بعد انقضاء عشرين عاماً حول قضية رجل يدعى درويت لارجيل وجهت إليه تهمة الهرطقة والتجديف حول صلب المسيح وعذرية مريم العذراء ، وعند رفع الأمر إلى البرلمان أيد رأى رئيس الأساقفة وتجاهل تماماً سلطة محاكم التفتيش .

وفى فرنسا تجلت سلطة البرلمان وتفوقها على سلطة محاكم التفتيش فى حالة المهرطقة مارى دى كانيش كامبراى Maria du Caneech Cambrai التى قدمها أسقف كامبراى والراهب نيكولاس بيرونى للمحاكمة بتهمة الهرطقة ، واستأنفت هذه المرأة ضد الحكم لدى رئيس أساقفة مدينة ريمز ، غير أن أسقف ريمز ومحقق التفتيش فيها لجأ إلى البرلمان . ونشبت ملاحاة شديدة بين مؤيدى رئيس الأساقفة وأنصار البرلمان ، وزعم رئيس الأساقفة خلو فرنسا آنذاك من المحققين ، ولكن البرلمان تدخل

لفض النزاع بين رئيس الأساقفة والمحقق وجاء حكمه لصالح رئيس الأساقفة ، ولكنه في الوقت نفسه وقع غرامة على الطرفين المتنازعين . وتدل هذه الحادثة على عودة السلطة الدينية المتمثلة في رئيس الأساقفة إلى بسط نفوذها على محاكم التفتيش التي استمدت نفوذها وصلاحيتها أصلاً من الكرسي البابوي . وأدى الانشقاق العظيم الذي شطر العالم المسيحي إلى شطرين ، والذي تمخض عن مجمعي كونستانس وباسل إلى إضعاف سلطة بابا روما ضعفًا ملحوظًا ؛ ومن ثم إلى ضعف محاكم التفتيش التي كانت تستمد سلطتها منه . والجدير بالذكر أن موقف ملك فرنسا شارل السابع من الكرسي البابوي اتسم بالتحدي على طول الخط ، كما أن الأمر الملكي الذي أصدره عام ١٤٣٨ أفضى إلى استقلال الكنيسة الجاليكانية عن الكرسي البابوي فضلاً عن تعزيز السلطة الزمنية المتمثلة في سلطة البرلمان . وعندما اعتلى ملك فرنسا لويس الحادي عشر عام ١٤٦١ ألغى هذا الأمر ، وعندما أنحى عليه البرلمان باللائمة أبرز الملك شرور الكرسي البابوي وأعلنها على رءوس الأشهاد . غير أن البرلمان استمر في اعتبار هذا الإلغاء كأن لم يكن ؛ مما اضطر الملك لويس الحادي عشر إلى اتخاذ مجموعة من الإجراءات المتتالية في أعوام ١٤٦٣ و١٤٧٠ و١٤٧٢ و١٤٧٤ و١٤٧٥ و١٤٧٩ لترسيخ قراره بالإلغاء بصورة تدريجية . وكان هذا قمينًا بتوفير استقلال فرنسا العام عن الكنيسة الرومانية ، لولا المؤمرات التي حاكها البابا ليو العاشر في عام ١٥١٦ بالتواطؤ مع الملك فرانسيس الأول للحيلولة دون تحقيق فرنسا لهذا الاستقلال مقابل تقاسم أسلاب الكنيسة وغنائمها . وتجاسرت جامعة باريس فاعترضت على هذه السياسة التآمرية التي اتبعها البابا ليو العاشر والملك فرانسيس الأول ، واعترض عليها البرلمان أيضًا .

وفي تلك الفترة التي تصاعدت فيها عداوة فرنسا ضد الكرسي البابوي في روما سعت جامعة باريس ما وسعها السعي إلى الحط من شأن محاكم التفتيش وفضح مثالبها . وتولت هذه الجامعة بنفسها مهمة دحض المعتقدات الدينية والحكم على صحيح الدين ، وزاد من هيمنتها في الأمور الروحية امتلاؤها بعدد كبير من فقهاء اللاهوت ، ونما سلطان جامعة باريس التي حظيت باحترام العلمانيين ورجال الدين على حد سواء حتى صارت مؤسسة قومية تزاحم البرلمان في سلطته . وبعد أن

أصاب الجنون ملك فرنسا شارل السابع أعلنت هذه الجامعة بكل جرأة وجسارة أنها أصبحت المرجع فى شتى الشئون العامة ، ولم يمانع المواطنون الفرنسيون فى اعتبارها المحك فى شئون الدين والدنيا . وفى عام ١٤١١ لجأ ملك فرنسا إلى جامعة باريس كى تفرض الحظر على مناوئيه ففعلت ما أراد ، وفى العام التالى (١٤١٢) قامت الجامعة بتوبيخ الملك فى موضوع الفوضى المالية التى عمت البلاد وطالبته بالإصلاح . وبمؤازرة أهل باريس تولت هذه الجامعة عام ١٤١٣ أمر تطهير الحكومة من الفاسدين والناهبين؛ وبطبيعة الحال أسخط هذا البلاط الملكى فعمل على السخرية من أساتذة الجامعة والاستهزاء بهم . وفى الوقت نفسه تعاونت جامعة باريس تعاونًا وثيقًا مع البرلمان لتهدئة خواطر الشعب الغاضب ، ومن جانبه اعتبر ولى العهد دوق جيين Guienne جامعة باريس جزءًا لا يتجزأ من الدولة . ولكنه مالبث أن غضب منها وقلب لها ظهر المجن عام ١٤١٥ عندما تجرأت وأرسلت إليه وفدًا يشكو من سياسته الضريبية الجائرة وتذمر الناس منها ، فقد ألح هذا الوفد بجفاء وغلظة إلى أخطائه مما جعله يتهم الجامعة بالتدخل فى أمور لا تعنيها ، وعندما حاول عضو فى الوفد الدفاع عن الجامعة أمر الدوق بالقبض عليه على الفور وحبسه عدة أيام .

ورغم أن الجامعة لم تكن بيدها سائر المقاليد اللازمة لتوجيه شئون الدولة فإن نجاحها فى مجال اللاهوت كان عظيمًا ، فقد أصبح الأساقفة والمحققون يسترشدون برأى أساتذتها فى كل ما يعرض لهم من قضايا ومشاكل روحية . وحيث إن أشكال الهرطقة كانت تتغير باستمرار فإنه لم يكن هناك محيص من استفتائها فى أمور العقيدة ، ولا غرو فقد كان لها القول الفصل .

وفى عام ١٤٣٢ حدث الآتى : تجرأ شخص وقح على الراهب بييردى فوا نائب محقق محكمة التفتيش أيفرو وعاب عليه أحكامه متهمًا إياها بمخالفة صحيح الدين فاشتكى الرجل إلى الجامعة التى توفرت على دراسة الشكوى وقررت بعدها أن الرجل وقح وأنه يميل إلى التمرد ويجنح إلى المروق ومن ثم يستحق العقاب رغم عدم هرطقته. وهكذا شاهدت فرنسا تغيرًا هائلاً فى وضع المحققين فى محاكم التفتيش فبعد أن كانوا الحكام بأمر الله أصبحوا يلتمسون المشورة والإرشاد على أيدى فقهاء اللاهوت فى جامعة باريس .

وحتى ندرك مدى تدخل جامعة باريس فى الشئون الروحية وحلولها محل محاكم التفتيش المضمحلة نذكر حالة راهب فرنسيسكانى يدعى جين فيتريه Jean Vitrier بشر فى مدينة تورناى ببزوغ عصر الإصلاح الدينى فى عام ١٤٩٨ ، كما اعتبر هذا الإصلاح تمهيداً لقدوم المذهب البروتستانتى الذى استحدثه مارتن لوثر ، وهاجم هذا الراهب القساوسة الذين يحتفظون بجوارى ومحظيات ويشترون ويبيعون صكوك الغفران إلى غير ذلك من مباذل ، حتى شفاعة القديسين كانت موضع شكه . لقد كانت مثل هذه الهرطقات فى الماضى كفيلة بإحراق محاكم التفتيش لصاحبها دون أدنى تردد ، ولكن مدينة تورناى أحالت موضوع هرطقة الراهب المذكور إلى الجامعة التى أدانت ما لا يقل عن ست عشرة فكرة من أفكاره . وأيضاً ليس أدل على تزايد سلطة جامعة باريس وتقلص سلطة البابا من القرار التالى الذى اتخذته الجامعة عام ١٥٠٢، فقد قام البابا ألكسندر السادس (١٤٩٢-١٥٠٣) بفرض ضريبة العشور على رجال الإكليروس فى فرنسا حتى يتمكن من محاربة الأتراك ، ولكنهم رفضوا دفع العشور فأمر البابا بفرض الحظر الكنسى عليهم . وتقدموا بطلب إلى جامعة باريس لإفادتهم عن مدى شرعية هذا الحظر الكنسى فردت على الشاكين بأنه لا يحق للبابا فرض مثل هذا العقاب على رجال الكنيسة .

ومع ذلك فمن الخطأ أن نعتقد أن محاكم التفتيش انتهت أو ألغيت أو توقفت عن العمل تماماً ، فقد كان من مصلحة البابوات أو المحققين استمرارها رغم ما اعتراها من ضعف . فنحن فى عام ١٤١٤ نسمع عن رجلين يتنافسان على وظيفة محقق تولوز، كما أن مشاجرة غير لائقة حدثت بين هذين المتنافسين عام ١٤٢٤ فى مدينة كاركاسون . وأيضاً حدثت مشاحنات مماثلة سببها التنافس على هذه الوظيفة فى مدينة جينيف التابعة آنذاك إلى محاكم التفتيش الفرنسيسكانية . ودب شجار بين طائفتى الدومينكان والفرنسيسكان حول أحقيتهما فى شغل هذه الوظيفة ، وهكذا تأرجحت تبعية محكمة تفتيش جينيف بين الدومينكان والفرنسيسكان . وباضمحلال نفوذ محاكم التفتيش لم يعد لشاغلها دخل ذو راتب ثابت ؛ ولهذا السبب أصدر البابا ألكسندر الخامس فى عام ١٤٠٩ أمراً إلى مفوضه الكاردينال سوزانا بالعثور على طريقة ما لدفع رواتب المحقق ومعاونه وكاتبه ، واقترح فرض ضريبة مقدارها ثلاثمائة

فلورينة على اليهود الذين يعيشون فى أفينون، أو أن يتكاتف الأساقفة فيدفع كل منهم من دخله الخاص عشر فلورينات سنويا . ولكن يبدو أن هذه المقترحات لم توضع موضع التنفيذ، بدليل أن مارتن الخامس بابا روما كتب عام ١٤١٨ إلى رئيس أساقفة ناربون يطلب منه إيجاد وسيلة لدفع النفقات الضرورية لمحاكم التفتيش . وكانت أفينون موضعًا لليهود الذين تمتعوا بالحماية نظير دفع رواتب المحققين فى هذه المدينة. ومن الواضح أن اعتماد محاكم التفتيش فى فرنسا على التمويل اليهودى ساعد اليهود على اكتساب بعض النفوذ داخل هذه المحاكم حيث أصبح من حقهم تعيين المعاون الذى يعين المحقق على أداء عمله .

وتدل الدلائل على أن محاكم التفتيش رغم ما اعتراها من ضعف ظلت تمارس عملها ، فنحن نشاهد فى عام ١٤١١ بيير دايل أسقف كامبراى يستدعى محقق هذه المقاطعة الدومينكان ليشترك معه فى إصدار الأحكام . وأيضًا نسمع فى عام ١٤٣٠ عن قيام نائب المحقق وأسقف تورناى بحرق عدد من المهرطقين فى مدينة ليل . كما نرى فى عام ١٤٣١ الملك فيليب يأمر موظفيه بتنفيذ الأحكام التى أصدرها الراهب هنريتش كاليسر الذى عينه المسئول الدينى الدومينكان محققًا فى كامبراى وليل . ولكن تجدر الإشارة إلى أن عمل المحقق كان يتم تحت إشراف البرلمان ، فهو لا يلقى القبض على أى شخص إلا طبقًا للقانون وبناء على تحقيقات مبدئية يجريها البرلمان . وحتى ندرك أن محاكم التفتيش لم تختف يتعين علينا أن نتذكر أنها لعبت دورًا فى مأساة جان دارك (١٤١٢-١٤٣١) . وليس أدل على ضعف النفوذ البابوى ونفوذ محاكم التفتيش بوجه عام من أن الناس فى فرنسا آنذاك كثيرًا ما كانوا لا يكترثون بالحظر الكنسى المفروض عليهم . ولهذا نرى البابا أجينيوس الرابع فى عام ١٤٣٥ يأمر محقق كاركاسون بمعاقبة كل الذين لم ينفذوا الحظر الكنسى عليهم لفترات طويلة .

وحين تمكن الفرنسيون من طرد القوات الإنجليزية التى احتلت بلادهم رأى البابا نيكولاس الخامس (١٤٤٧-١٤٥٥) أن الوقت قد حان لإنشاء محاكم التفتيش على أسس أقوى وأرسخ مما كانت عليه ، فأصدر هذا البابا مرسومًا فى أغسطس ١٤٥١

وجهه إلى محقق فرنسا هيج لونوار Hugues Le Noir يحدد له اختصاصاته التى شملت مملكة فرنسا ودوقية أكويتين وكل أراضى جاسكونيا ولانجويدوك . ومعنى ذلك أن كافة الأراضى الفرنسية باستثناء المقاطعات الشرقية انضمت فى كيان موحد . وبحكم هذا المرسوم البابوى اتسع نطاق اختصاصات المحقق بحيث تشمل التجديف والزراية بالمقدسات والتنجيم والهرطقة والجرائم غير الطبيعية . وأيضًا منح المرسوم المحقق حق إصدار القرارات والأحكام بدون التشاور مع الأساقفة . ورغم اتساع هذه الاختصاصات فإن الوهن الواضح اعترى نظام محاكم التفتيش بحيث لم يعد بإمكانها استعادة سابق قوتها. وفى عام ١٤٥٨ رسم كاهن بورجندى الفرنسيسكانى للبابا بيوس الثانى صورة للحالة المزرية التى آلت إليها محاكم التفتيش فى كل من ليون وفيين وأرلس وأكس وأمبرون وتارنتيز وضفتى نهر الرون وجانب كبير من منطقة سافوى . وانهار النظام الذى تقوم عليه محاكم التفتيش لدرجة أن البعض كان يعين نفسه محققًا فى هذه المحاكم ؛ الأمر الذى اضطر البابا إلى التدخل لوضع حد لهذه المهازل بأن حاول أن يعيد للقساوسة المحليين سلطتهم القديمة. وفى ظل هذه الظروف فقدت محاكم التفتيش هيبتها . ففى عام ١٤٥٨ عاث برارد ترِيمو Berard Tremoux محقق تفتيش ليون فى الأرض فسادًا لدرجة أن الأهالى تمردوا عليه وزجوا به فى السجن ، ولولا تدخل البابا بيوس الثانى ومفوضه الكاردينال آلانو لظل حبيسًا فى سجنه ولما أطلق سراحه . وساعد على فقدان محاكم التفتيش لهيبتها كثرة المباذل التى اقترفتها ، حتى المحققون كانوا يعينون عن طريق المحسوبية والرشوة .

وفى عام ١٤٥٩ تم إحراق راهب ورع وزاهد اسمه ألفونس البرتغالى ، كان قد أثار غضب البابا عليه بقوله إن روما لم تعرف بابا طاهر الذيل منذ البابا جريجورى وإن البابوات الذين جاءوا من بعده لم يعودوا صالحين لإقامة الصلوات والشعائر الدينية . ونحن نطالع فى عام ١٤٨٤ أن كاهن باريس جين لايلييه Jeän Laillier الذى كان مسجلاً لدرجة الدكتوراه فى اللاهوت من جامعة باريس دعا إلى الفجور والإباحية. واعتاد هذا الكاهن فى مواعظه المطالبة بإلغاء شرط العزوبية فى الكهنوت الكاثوليكى ، كما شن هجومًا قاسيًا على البابا يوحنا الثانى والعشرين الذى وصفه بخليفة إبليس كما هاجم جشعه للمال وقبوله الرشاوى مقابل الاعتراف بقدسية بعض

رجال الكنيسة . وبالنظر إلى الضعف الذى اعترى السلطة الكنسية لم يجد هذا الهجوم عليها من يتصدى له، حتى محاكم التفتيش نفسها وقفت مكتوفة الأيدى أمامه. والأدهى أن هذا الرجل المارق على الكنيسة تقدم إلى جامعة باريس للحصول على درجة الدكتوراه والتى ورفضت منحه هذه الدرجة إلا إذا تاب إلى الله وطهر نفسه من كل رجس ودنس وحصل على موافقة الكرسى البابوى . وإمعانًا فى تحدى السلطات الدينية تقدم هذا المارق بطلب إلى البرلمان - الذى أصبحت له اليد الطولى فى شئون الدين والدنيا - للتدخل لدى الجامعة لقبوله دارسًا فيها ، ولم يراود البرلمان أى شك فى أن له حق التدخل فى الشئون الروحية التى تقررها الجامعة . ولكن قرار البرلمان جاء لغير صالح لايلييه ، فقد أمر البرلمان أسقف باريس بالاشتراك مع المحقق وأربعة دكاترة تختارهم الجامعة لاتخاذ الإجراءات القضائية ضده وإنزال العقاب به . واتفق الأسقف والمحقق على أن يقرر كل منهما إجراءاته بمعزل عن الآخر ثم التداول فيما بينهما ، ولكن كان من الواضح أن هذا الكاهن المارق يستند إلى أصدقاء أقوياء لأن أسقف باريس سمح له بالتراجع الجزئى عن أفكاره ونبذه العلنى لمعتقداته مما مكنه من الحصول فى ٢٣ يونية ١٤٨٦ على الغفران الكنسى وتبرئته من تهمة الهرطقة وإرجاعه إلى وظيفته المعزول منها بحيث يصبح مؤهلاً للترقية إلى مناصب أعلى . ومن ناحيته قام المحقق الراهب جين كوسارت Cossart ببذل جهد جهيد فى جمع الأدلة التى تدفع وتدين أفكار لايلييه الفاضحة وإبلاغ زميله الأسقف بما تجمع لديه من معلومات ، ولكنه وجد نفسه مضطراً إلى التراجع والتزام الصمت أمام تسامح زميله مع المتهم . غير أن الجامعة عزت عليها كرامتها فتقدمت فى ٦ نوفمبر ١٤٨٦ باحتجاج ضد الأسقف المتساهل وطالبت البابا بالتدخل ، وبالفعل سارع البابا أنوسنت الثامن (١٤٨٤-١٤٩٢) بالتدخل على الفور فأمر المحقق بالاشتراك مع رئيس أساقفة سنس وأسقف مو بإلقاء المهرطق لايلييه فى السجن وإرسال أوراق التحقيق معه إلى الكرسى البابوى فى روما لاتخاذ القرار . وكان أخشى ما يخشاه البابا هو الخوف من أن تخضع الجامعة للضغوط التى تمارس عليها فتقبل التحاق المتهم بقسم الدكتوراه . والجدير بالذكر أن أسقف مو الذى تم اختياره لمحاكمة لايلييه كان موضع ملامة الجامعة بسبب سعيه إلى إحياء الهرطقة الدوناتية التى تعتبر

الطقوس الدينية – التى يقيمها كاهن زان أو فاسد – لاغية وعديم الجدوى . (راجع كتاب "الهرطقة فى الغرب") . ورغم مروقه الدينى الواضح فإن المحقق لم يجرؤ على مساءلته ، ويبدو أيضاً أن هذا الأسقف امتنع عن التدخل فى حالة قسيس مهرطق آخر فى سانت كريسبين يدعى جين لانجلو الذى روع رعيته عندما ألغى الخمر والقربان المقدس وداسهما بقدمه . وحاول هذا الرجل المهرطق تبرير فعلته الشنعاء ولكنه رفض فى عناد التراجع عن هرطقته فتم إحراقه ، كما تم إحراق المهرطق أيمون بيكارد Aymon Picard الذى انتزع يوم ٢٥ أغسطس ١٥٠٣ المناولة من يد أحد المتناولين وقذف بها على الأرض . والجدير بالذكر أن مثل هذه الهرطقات الفظيعة حدثت فى وقت كانت الحاجة فيه شديدة إلى محاكم تفتيش قوية وقادرة على الردع وليست تلك المحاكم الضعيفة المتخاذلة التى يديرها القسس والأساقفة .

قلنا إن الدولة فى فرنسا استطاعت فرض سيطرتها على الكنيسة ومحاكم التفتيش . ويتضح لنا هذا من القرار الذى اتخذه الراهب أنتوات دى كليد de Clède عام ١٤٨٥ بتعيين مجرد راعى كنيسة بسيط كى ينوب عنه فى كل من روديز وقابر ، وبسبب التسيب العظيم الذى ألم بالكنيسة آنذاك لقب هذا الرجل نفسه فى الأوراق الرسمية محقق فرنسا وأكونتين وجاسكونيا ولانجويدوك بتكليف من البابا والبرلمان . ولا تدل هذه الحادثة على مدى التهرؤ والتسيب الذى اعترى الكنيسة فحسب ، بل تدل أيضاً على أن البرلمان أصبح فى قوته فى شئون الدين على قدم المساواة مع الكرسى البابوى، فهو يتولى تعيين المحققين. ولم يكن بمقدور البابا تعيين محقق إلا بعد موافقة البرلمان على هذا التعيين ، والأدهى من هذا أن محاكم التفتيش هانت فى نظر رجال الإكليروس أنفسهم . فقد نشبت نحو مشادة لسبب تافه بين المحقق رايموند جوزين وزملائه الرهبان الدومينكان عام ١٥١٦ حول أثاث منزل هذا المحقق وما يحتويه من أدوات مطبخ ، حيث إن زملاءه أرادوا استخدامها فى دير الدومينكان . وطلب المحقق من الرهبان إعادة ما أخذوه من منزله إليه فأعادوا إليه جزءاً منها ورفضوا إعادة الباقى ، بل إنهم طالبوه بأن يعيد إليهم ما سبق أن أرجعوه ، فرفض المحقق الاستجابة إلى طلبهم ، فالتجأ الرهبان الدومينكان إلى رئيسهم الذى أصدر أوامره إلى المحقق بالامتثال غير عابئ بالالتماس الذى قدمه إلى البابا . ويعد لأى نجح

المحقق فى عام ١٥٢٠ فى الحصول على موافقة البابا على التدخل لحسم هذا النزاع الناشب حول أدوات المطبخ التى اغتصبها الرهبان الدومينيكان من منزل المحقق . ومع اضمحلال محاكم التفتيش لم تعد بحاجة إلى امتلاك القصور الفخمة والقلاع الحصينة فى عقد محاكماتها وإصدار أعمالها الإيمانية (أى أحكامها بالإعدام) . صحيح أن محاكم التفتيش كادت أن تحتضر ولكنها لم تلفظ أنفاسها الأخيرة بدليل أن جوهان بوم Johann Bomm محقق محكمة تفتيش بيسانكون أرسل عام ١٥٢١ اثنين من المارقين إلى حتفهم .

وبعد اندثار الهرطقة الكاثارية ونجاح محاكم تفتيش فرنسا فى اجتثاثها ، حلت محلها هرطقة أخرى هى الهرطقة الوالدنسينية (انظر «الهرطقة فى الغرب») . ورغم أن الهرطقة الوالدنسينية لم تكن بمثل صورة الهرطقة الكاثارية المتفشية فى لانجويدوك فإنها انطوت على قدر كبير من الخطر على المذهب الكاثوليكى . وعلى عكس الهرطقة الكاثارية التى آمن بها النبلاء والفقراء على حد سواء انتشرت الهرطقة الوالدنسينية بين الطبقات الدنيا .

ولعل من المفيد أن نذكر أن الهرطقة الوالدنسينية انتشرت فى العقود الثلاثة الأولى من القرن الرابع عشر ، وأن المحقق برنارد جوى كان من أبرز الذين سعوا إلى اجتثاثها . والمهرطقون الوالدنسينيون يعتبرون الكرسى البابوى بيت دعارة ، ومن ثم ينبغى تجاهل أحكامه ومراسيمه . وكان للمهرطقين الوالدنسينيين تنظيم كنسى متكامل وقائم بذاته؛ فلهم أساقفتهم وقسسهم وشمامستهم بل وكنائسهم التى يقيمون فيها شعائرهم بمنأى عن العيون المتلصصة . غير أنهم كانوا يصلون فى دور العبادة العادية من باب التمويه والتقية . ورغم إيمانهم بالأيوخارست أى تحويل القربان والخمر إلى جسد المسيح ودمه فإنهم يرون أن الأيوخارست عديم الجدوى والفاعلية إذا قام به كاهن فاسد أو دنس . وأيضًا يرون أن المرأة والرجل العاديين الطاهرين بمقدورهما إقامة الأيوخارست بدلاً من الكاهن . كما يمكنهما الاستماع إلى اعترافات الخاطئين والحكم عليهم بالتوبة بدلاً من كاهن الاعتراف ، وكذلك أنكر الوالدنسينيون المطهر وإقامة القداديس على أرواح الموتى والابتهال للقديسين وطلب شفاعتهم .

ويطبيعة الحال هاجم الوالدنسينيون صكوك الغفران فضلاً عن إيثارهم حياة الزهد والتقشف والتخلى عن متاع الدنيا طلبًا للطهر والنقاء . ولكن المحقق برنارد جوى يحدثنا عن خلاعتهم وانحلالهم الجنسى فى اجتماعاتهم الليلية ، وبوجه عام كانت الطائفة الوالدنسينية تجنح إلى السلم ، ولكن الاضطهاد أحيانًا حفزها إلى استخدام العنف وإراقة الدماء دفاعًا عن النفس ، وبسبب بساطة هذه الهرطقة واستساغة البسطاء لها انتشرت بين الطبقات الفقيرة خلافًا للهرطقة البيجاردية the Begghards (أو أتباع الروح الحر Free Spirit) الصوفية التى راقت للبعض دون الآخر . وقد عجزت محاكم التفتيش - بعد أن أصابها الوهن - عن التصدى لهذه الهرطقة ؛ الأمر الذى اضطر البابا بنديكت الثانى عشر فى عام ١٣٣٥ إلى أن يطلب من همبرت الثانى ولى عهد فينوا المساعدة على سحقها . وفى الفترة من عام ١٣٣٦ إلى ١٣٤٦ شنت حملات للقضاء عليها ، فتاب من المهرطقين من تاب وأحرق منهم من أحرق وصودرت ممتلكاتهم ونبشت قبورهم لإخراج عظام الموتى. ورغم أن السلطتين العلمانية والدينية فى إمبرون تضافرتا للتصدى لهؤلاء المهرطقين فإن نجاح هذه الحملات عليهم كان محدوداً . وفى لانجودوك قام جين دومولين Jean Dumoulin محقق تولوز فى عام ١٣٤٤ بشن هجوم عات على الوالدنسينيين ولكنه نجح فقط فى تشتيتهم فى مناطق متفرقة مثل برن وفوا وأراجون؛ فاضطر البابا كليمنت السادس مرة أخرى لأن يستنجد بولى العهد همبرت للمرة الثانية فقام بالقبض فى إمبرون على اثنى عشر مهرطقًا والدنسينيا وحرقهم فى الميدان المواجه لمبنى الكاتدرائية . وعندما اعتلى دوفينيه عرش فرنسا لم يبخل بمساعدة الكنيسة للقضاء على هذه الهرطقة . وفى عام ١٣٥١ أصدرت السلطات فى بريكانوى الأمر إلى قواتها العسكرية لمساندة المحقق فى حربه على الهرطقة الوالدنسينيا . ولكن هذه الحملات العسكرية باءت بالفشل. وفى العام التالى استنجد البابا كليمنت السادس بشارل عاهل فرنسا ولويس جوانا حاكم نابولى لتقديم العون إلى الراهب بيتر ديمونت محقق مقاطعة بروفانس، وتذكر السجلات أن حصيلة تضافر هذه الجهود هو نجاح ديمونت المحقق فى عام ١٣٥٣ فى استتابة سبعة مهرطقين والدنسينيين فى حين أصاب رئيس أساقفة إمبرون جويلوم دى بورديس Jullaume de Bordes فى الفترة من ١٣٥٢ إلى ١٣٦٣ نجاحًا أكبر فى ملاحقتهم

وتعقبهم . وكان نجاحه راجعًا إلى اتباع سياسة السماحة والرحمة ؛ الأمر الذى مكنه من إعادة عدد كبير من المهرطقين الوالدنسيين إلى حظيرة المذهب الكاثوليكى . وبعد موته تغيرت سياسة خلفه البابا إيربان الخامس الذى حرص وأنصاره على اتباع الأساليب العنيفة فى محاربة الهرطقة . وأغارت حملات عسكرية مسلحة على معاقل الوالدنسيين فى الجبال واستطاعت دحر عدد كبير من المهرطقين . وكالعادة تم إحراق المهرطقين المتشبثين بهرطقتهم ، وتراجع عن هرطقتهم الراغبون فى البقاء على قيد الحياة . ورغم فاقة هؤلاء المهرطقين فقد انتزعت منهم محاكم التفتيش القليل الذى يملكونه ، فعلى سبيل المثال صادرت محكمة التفتيش البقرة الوحيدة التى يملكها مهرطق وبقرتين أخريين وبعض الملابس التى يملكها مهرطق آخر ، ووجدت محاكم التفتيش فى حوزة مهرطق ثالث فلورينتين فاستولت عليهما رغم تفاهة هذا المبلغ ، وكذلك صادرت هذه المحاكم كرمة تملكها مهرطقة بعد حرقها .

ورغم كل هذه الجهود المضنية عجزت السلطات المدنية ومحاكم التفتيش عن استئصال الهرطقة الوالدنسينية . وعندما اعتلى البابا جريجورى الحادى عشر أريكة البابوية عام ١٣٧٠ لفت نظره التفكك الشديد الذى أصاب الكنيسة فى أقاليم بروفانس ودوفينيه ولونيز التى امتلأت بحشود المهرطقين الوالدنسيين وأن بعض النبلاء بدأوا يعتنقون هذه الهرطقة . وقفت الكنيسة عاجزة أمام هذاالطوفان الكاسح ؛ فأخذ البابا جريجورى الحادى عشر يشحذ همم المحققين ويستحثهم ويثير حماسهم ، ولكن هيهات فقد أصبحت محاكم التفتيش أضعف من أن تفعل شيئًا ، واضطر المحققون إلى الاستعانة بمعاونين لهم من خارج النظام الكنسى . وكثيراً ما كانت السلطات والمحاكم المدنية تتدخل فى أعمالهم فتطلق سراح بعض المحكوم عليهم بالسجن بدون الرجوع إليهم . وقد رفض الموظفون المدنيون أن يقسموا على تطهير البلاد من شرور المهرطقين بل كثيراً ما كانوا يوفرون لهم الحماية .

كان ما تقدم مضمون شكوى البابا جريجورى الحادى عشر إلى الملك شارل فى عام ١٣٧٣ ، غير أن هذا الملك لم يستجب لشكوى البابا فى بادئ الأمر فاضطر إلى تكرار شكواه عام ١٣٧٥ . وعاد البابا ليلوم هذا الملك على موقفه السلبى من الهرطقة،

كما أنه أنحى باللائمة على ضابط فى القصر اسمه شارل دى بانفيل Charles de Banvlle؛ لأنه يوفر الحماية للمهرطقين، مهدداً إياه بالويل والثبور وعظائم الأمور. وأمر البابا بتجنيد كل القوى لعمل شيء لوقف زحف الهرطقة ، كما أنه شن حملة عسكرية على معاقل المهرطقين فى إقليم بروفانس . وأراد البابا أن يكثف الجهود المناهضة للهرطقة فاستدعى مجموعة من الطوائف الدينية للتصدى لها مثل طائفة الدومينكان والفرنسيسكان والكارميلايت والأوغسطينيين ونشرهم بين الناس لتعليمهم صحيح الدين . وبدأت هذه الجهود المكثفة تؤتى ثمارها ، كما بدأت عمليات ملاحقة المهرطقين تأخذ أشكالاً جادة . وكللت هذه الجهود فى نهاية الأمر بالنجاح وتم القبض على أعداد هائلة من المهرطقين وتقديمهم إلى المحاكمة . وبسبب كثرة أعداد المقبوض عليهم اضطلع أسقف ماسا فى أول مايو ١٣٧٥ بمهمة كَأْداء شغلت بال البابا جريجورى ، تتلخص فى توفير الطعام والسكن لكل هذا العدد الغفير من المهرطقين الذين وقعوا فى الأسر . ورغم إحراق أعداد كبيرة من الهراطقة المتشبثين فقد ظلت أعداد كبيرة منهم تنتظر حلا لمشكلتى الطعام والمأوى . ولهذا أمر البابا جريجورى الحادى عشر ببناء مأوى وسجون كثيرة فى كل من إمبرون وأفيجنون وفيين ، وأدى تقاعس رجال الكنيسة عن أداء مهام وظيفتهم إلى مروق الكثيرين . ولحل مشكلة السجون استدعى البابا الأساقفة وأمرهم بجمع أربعة آلاف فلورينة ذهبية فى خلال ثلاثة أشهر وكذلك ثمانمائة فلورينة سنويا لمدة خمسة أعوام من أجل إقامة السجون المطلوبة لإيواء المهرطقين وتوفير الطعام لهم . وهدد البابا أساقفته بتجريدهم من مصادر دخلهم وفرض الحظر الكنسى عليهم إذا ماطلوا فى دفع المبالغ المطلوبة منهم.

ولكن الخوف من سطوة محاكم التفتيش لم يعد بالقوة نفسها التى كان عليها فى لانجويدوك عام ١٢٤٥ . ومضت المهلة التى حددها البابا دون أن يجمع الأساقفة المبالغ المطلوبة منهم ، وأخذ البابا يحقق مع مرءوسيه عن طريقتهم فى الوفاء بالتزاماتهم . وتساءل أسقف ماسا عن الكيفية التى يطعم بها سجناءه فأجابه البابا بأنه يتعين على كل أسقف أن يقيم أود كل المهرطقين التابعين لأسقفيته . وهدد البابا بفرض الحظر الكنسى على كل أسقف تسول له نفسه التنصل من المسئولية . ومن جانبه حاول البابا جريجورى الحادى عشر اقتسام غنائم المصادرات مع الملك شارل

ولكن الملك رفض ، غير أنه وافق عام ١٣٧٨ على منح المحققين مكافأة سنوية مماثلة للمكافأة التى يتلقاها المحققون فى محاكم تفتيش تولوز .

وعندما فشل البابا جريجورى فى تقاسم الأسلاب مع الملك شارل لجأ إلى بيع صكوك الغفران، وفى ١٥ أغسطس ١٣٧٦ أصدر البابا جريجورى بيانًا يحث فيه أهل المروءة للتبرع من أجل إقامة أود سجناء محاكم التفتيش . قال جريجورى فى بيانه الموجه إلى جميع المؤمنين بيسوع المسيح : «وبما أن مساعدة المساجين تعتبر إحسانًا وتقوى فإنه يخلق بالمسيحيين المؤمنين أن يشملوا المساجين من كل صنف ممن يكابدون الفاقة برحمتهم وتقديم يد العون لهم . لقد نما إلى علمنا أن ابننا الحبيب المحقق فرانسوا بوريل Francois Borell قام بسجن كثير من المهرطقين عقابًا لهم أو حماية لهم من الأذى ، وتبعا لذلك فلا مفر من أن يمد إليهم المؤمنون الأتقياء الكرماء يد المساعدة كنوع من الإحسان . وبما أننا لا نرغب فى أن يموت هؤلاء السجناء جوعًا وأننا نريدهم على قيد الحياة حتى يكفروا عن ذنوبهم فى السجون وحتى يتمكن المسيحيون المؤمنون من تقديم المساعدة بسبب شدة استمساكهم بمعتقداتهم فإننا ننذركم ونحثكم جميعًا أن تسهموا بالمال تكفيرًا عن خطاياكم وأن تعطوا بعضها التى منحها الله إياكم وأن تتقوا الله بما تقدمون من إحسان تشكرون عليه من أجل إطعام هؤلاء السجناء حتى يمكنهم بمساعدتكم أن يظلوا على قيد الحياة وحتى تنعموا بالبركة الأبدية التى يسبغها الله على هذا العمل الطيب وغيره من الأعمال الخيرة» .

ويبدو أن البابا نفسه لم يتحمل بشاعة حياة المهرطقين القابعين فى غياهب السجون . ورغم أنهم كانوا يتضورون جوعًا فإن الكثيرين منهم تشبثوا بهرطقتهم . وفى عام ١٣٧٧ سجل البابا جريجورى زيادة فى أعداد هؤلاء المهرطقين وأنحى باللائمة على المحققين بسبب تقاعسهم فى أداء الواجب المنوط بهم .

ورغم أن البابا جريجورى الحادى عشر نجح فى قمع الهرطقة الوالدنسينية فإن وفاته فى ٢٧ مارس ١٣٧٨ وظهور الانشقاق الدينى العظيم الذى شطر الكنيسة إلى شطرين (كنيسة غربية وكنيسة شرقية) ساعد على ظهور الهرطقة وانتشارها

من جديد . ولكن البابا كمينت السابع (١٣٧٨-١٣٩٤) استطاع بهمة ونشاط أن يقضي على المئات منهم وهداية مئات آخرين إلى المذهب الكاثوليكي حتى يمكنهم الاحتفاظ بممتلكاتهم نظير دفع مبالغ مالية معينة . ويقال إن هذا البابا أحرق في عام ١٣٩٣ مائة وخمسين مهرطقًا في جرينوبل في يوم واحد . ولأنه كان مبشراً عن طريق مجادلتهم بما هو أحسن استطاع إعادة الكثيرين من الهراطقة الوالدنسيين إلى حظيرة الكنيسة . وكما سبق أن ذكرنا أصبح الأسقف هو الذي يوجه الاتهام إلى المهرطقين بدلاً من المحقق بعد أن اعترى الضعف والوهن الواضح محاكم التفتيش .

ويبدو أن الهرطقة الوالدنسينية توارت عن الأنظار في عهد البابا ألكسندر السادس . ويمكننا الاستدلال على ذلك من المرسوم الذي أصدره هذا البابا في عام ١٤٠٩ ، بهذا المرسوم يحث المحققين على بذل قصارى جهدهم للتصدي للسحرة واليهود المرتدين دون أية إشارة إلى المهرطقين الوالدنسينيين . ومع ذلك فنحن نسمع في عام ١٤١٧ عن إحراق راهب يدعى كاترين سوف في مونبلييه بتهمة الهرطقة الوالدنسينية على يد وكيل المحقق الراهب ريموند كاباس بمساعدة أسقف ماجيلون . وفي عام ١٤٣٢ شكا مجمع بورج من أن الوالدنسيين في عهد دوفينيه دفعوا تبرعات لمساعدة المهرطقين من أتباع هوس . وفي يوم ٢٣ أغسطس من العام نفسه نطالع خطابًا أرسله الراهب بيير فابري محقق إبرون إلى المجمع المنعقد في بال يعتذر فيه عن عدم تمكنه من الحضور بسبب حاجته إلى المال وانشغاله باضطهاد الوالدنسينيين، ورغم نجاحه في القضاء على عدد كبير منهم فإنه اشتكى من انتشارهم في كثير من الوديان . وأضاف بيير فابري في رسالته أنه تمكن من الزج بستة مهرطقين منتكسين (أي مرتدين بعد هدايتهم إلى الهرطقة) في سجون إمبرون وبريانكون ، وأن هؤلاء المهرطقين الستة أفشوا له بأسماء خمسمائة مهرطقٍ آخرين ينوي الإمساك بهم وتقديمهم إلى المحاكمة في القريب العاجل . ووعد الرجل في رسالته بحضور الاجتماع بعد أن يفرغ من أداء العمل الذي بين يديه .

وفي عام ١٤٤١ سعى محقق بروفانس جين فويل Jean Voyle إلى ملاحقة المهرطقين الوالدنسينيين دون نتيجة تذكر ، الأمر الذي وفر لهم فترة راحة من التنكيل

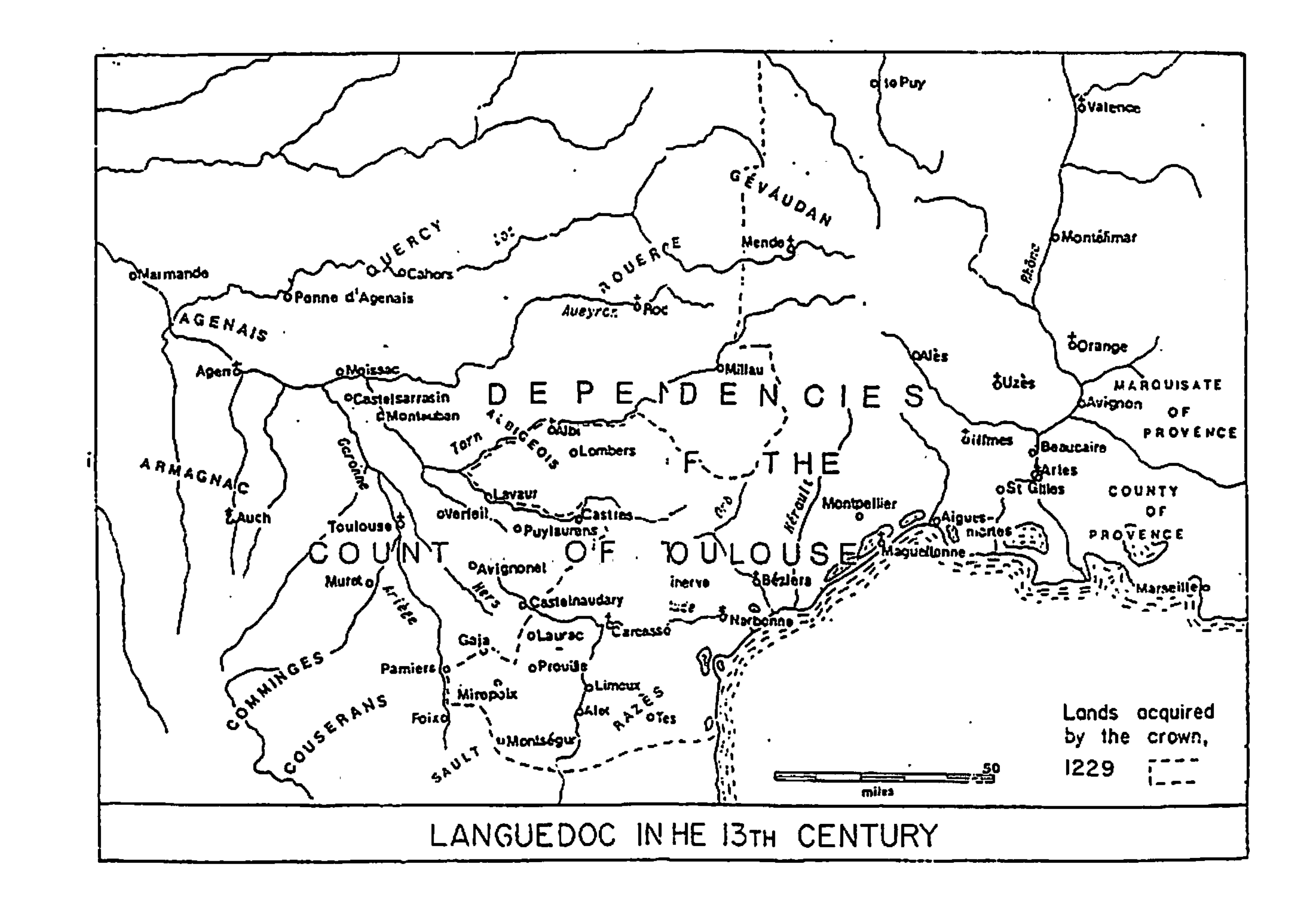
والاضطهاد . ولكن فى عام ١٤٧٥ بدأت محاكم التفتيش تستأنف شيئًا من نشاطها القديم وذلك بعد أن تضاعف عدد المهرطقين الوالدنسيين . والجدير بالذكر أن الأساقفة والمحققين كانوا - بسبب الضعف الذى اعترى محاكم التفتيش - يلجأون إلى المحاكم الملكية التى أظهرت فى كثير من الأحوال تعاطفها مع المهرطقين واستعدادًا لحمايتهم مما جعلهم أشد وقاحة وجرأة على تحدى الكنيسة ورجالها ؛ الأمر الذى دفع البابا سكستوس الرابع (١٤٧١-١٤٨٤) إلى السعى دون جدوى إلى وضع حد لهذه المهازل. ولكن هيهات ؛ فقد أصبحت السلطة البابوية فى فرنسا موضع السخرية والازدراء ، ولهذا نرى البابا سكستوس الرابع يوجه فى ١ يوليو ١٤٧٥ اللوم إلى ملك فرنسا لويس الحادى عشر بسبب تعاطف موظفيه مع المهرطقين . ومن المؤكد أن الملك نفسه كان لا يعلم عن ذلك شيئًا ، ومن ثم سارع بالإعراب عن أسفه وشجبه لهذا الوضع متعهدًا بمساندة الدولة للمحققين مساندة كاملة .

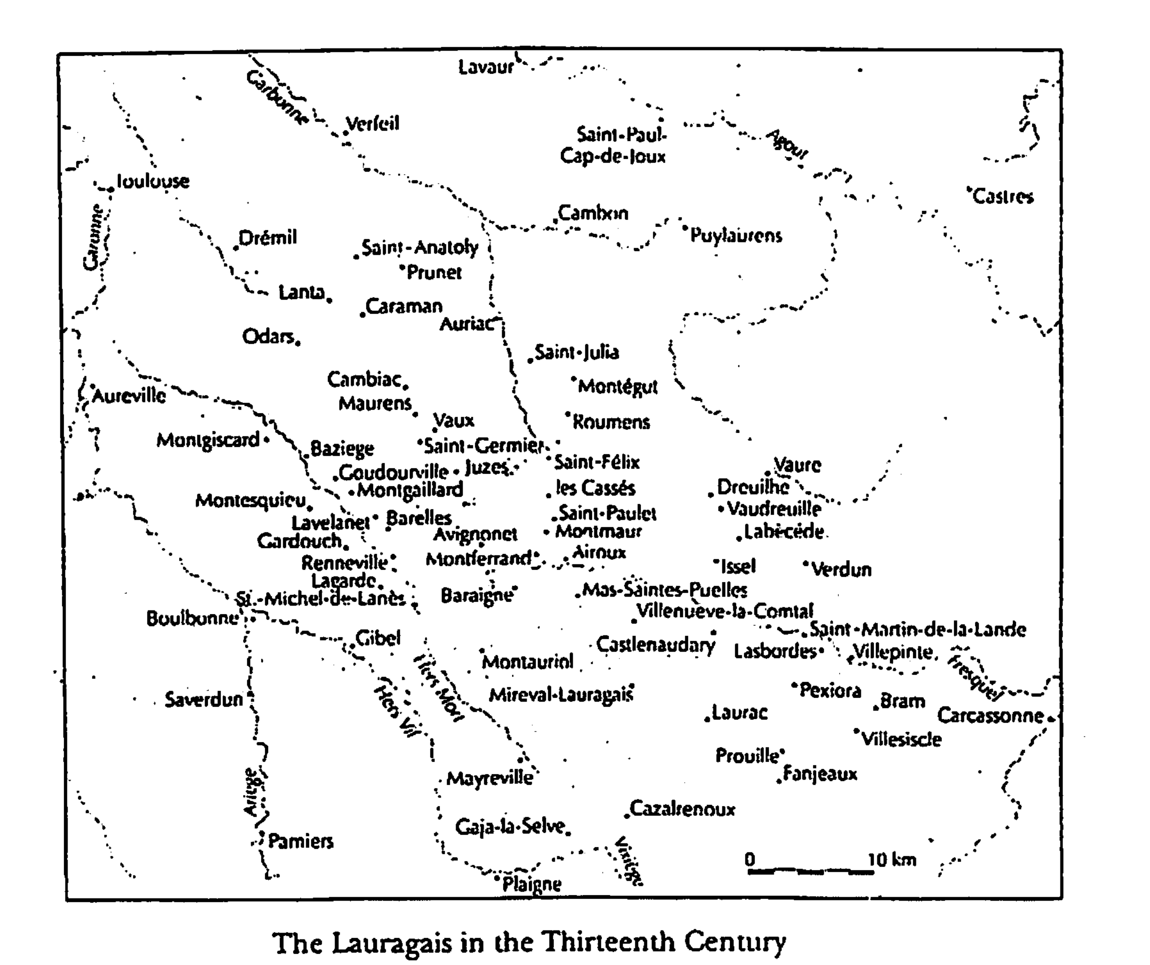
وتدل المراسلات المتبادلة بين البابا سكستوس الرابع وملك فرنسا على أن الدولة أصبحت تفوق الكنيسة ومحاكم التفتيش فى قوتها . ويتضح لنا هذا بجلاء من الأمر الذى أصدره الملك بتاريخ ١٨ مايو ١٤٧٨ وأكد الملك فيه أن جميع رعاياه فى دوفينيه من الكاثوليك الصالحين ، إشارة إلى أن الرهبان الهائمين على وجوههم زهدًا فى الحياة والذين ينسبون إلى أنفسهم لقب «محقق» يدأبون على إزعاج المؤمنين الأوفياء لكنيسة روما واتهامهم بالهرطقة وتقديمهم إلى المحاكمة أمام المحاكم الملكية والكنسية بهدف الاستيلاء على أملاكهم ومصادرتها لصالحهم .

وهكذا يتجلى لنا أن السلطة الكنسية التى ظلت متجبرة وعاتية لفترة تقرب من القرنين والنصف قد أصابها الإعياء والوهن وانكسرت شوكتها بحيث أصبحت خاضعة لسلطات الدولة بعد أن كانت فى ذروة سطوتها قادرة على تحطيم ريموند حاكم تولوز وتدمير حضارة لانجويدوك . ومن المفارقات أن محاكم التفتيش مكنت النظام الملكى من تثبيت أركانه وإمداده بجانب كبير من ثروات المهرطقين نظير مساندته العسكرية لها ، كما أن هذا النظام قوى ساعده بعد أن أصاب الوهن محاكم التفتيش . وبطبيعة الحال أدت السياسة المتراخية والمتساهلة التى اتبعها الملك لويس

نحو الهرطقة الوالدنسينية إلى ازدهارها . ولكن موت هذا الملك فى عام ١٤٨٣ حرم المهرطقين الوالدنسينيين من الحماية، فقد رأى خلفه شارل الثامن أن مصلحته تقتضى منه إرضاء الكرسى البابوى ، ولهذا السبب تجددت سياسة مطاردة الهراطقة واضطهادهم فى عهد البابا أنوسنت الثامن (١٤٨٤-١٤٩٢) بناء على طلب رئيس أساقفة إمبرون . وقد شجع هذا التغير تطرف المحقق جين فيليتى Jean Veyleti فى تعقب الهراطقة فأحرق قناصلة فريسيدير . غير أن الوالدنسينيين قاوموا مقاومة مستميتة ، وعندما تعب رئيس أساقفة إمبرون من عنادهم طلب إليهم فى شهرى يونية ويوليو ١٤٨٦ مغادرة البلاد أو الخضوع للكنيسة والاعتراف بخطاياهم ، فلم يلقوا بالا لهذا التهديد فقام بفرض الحظر الكنسى عليهم دون فائدة ؛ الأمر الذى دفعه إلى طلب مساعدة البابا أنوسنت الثامن للمرة الثانية ورأى البابا أن حل هذه المشكلة يكمن فى توجيه ضربة قاضية للمهرطقين؛ ولهذا أعد حربًا صليبية واسعة النطاق شنها على مقاطعتى دوفينيه وسافوى فى عام ١٤٨٨ . واستطاع ألبرتو دى كابتيانى Capitanei مندوب البابا الحصول على مساعدة البرلمان فى جرينوبل الذى أمر بحشد قوة عسكرية تحت قيادة هيج دى لابالو Hugues de La Palu تهاجم المهرطقين الوالدنسينيين من كل جانب . وبعد أن رفض هؤلاء المهرطقون الاستسلام تقدمت صفوف القوات الصليبية فى مارس ١٤٨٩ وبدأت الحملة الصليبية بمهاجمة براخيلاتو وقامت بالسيطرة عليها . ثم خير المهرطقون بين نبذ هرطقتهم أو الموت ، ولكنهم أظهروا مقاومة شرسة وعنيدة فى فال كلوسون وفريسبير أدت إلى وقوع مجازر بشرية بشعة ؛ الأمر الذى بث الرعب والفزع فى قلوب سكان أرجنتيير فسارعوا إلى الاستسلام . وفى منطقة فال لويس اتخذ السكان من الكهوف ملجأ ، غير أن قائد الحملة الصليبية استطاع الوصول إليهم وأشعل النار فى مداخل الكهوف فدخلها الدخان الكثيف ليخنق من بداخله ، وكانت هذه ضربة قاضية لهم . ثم صودرت أموالهم وممتلكاتهم وتقاسمها شارل الثامن ورئيس أساقفة إمبرون . وحتى لا تطل الهرطقة الوالدنسينية برأسها من جديد عينت الحملة الصليبية فرانسوا بلواريرى Ploireri محققًا فى منطقة بروفانس ليتخذ إجراءات عنيفة وصارمة ضد المهرطقين .

وباعتلاء ملك جديد عرش فرنسا هو لويس الثانى عشر بدأت مرحلة جديدة من التعامل مع الوالدنسيين . فقد انعقد مؤتمر فى باريس حضره مندوبون من فريسبير وروستون ورئيس أساقفة إمبرون الجديد ونواب عن برلمان جرينوبل وتقرر فى هذا المؤتمر إرسال لجان بابوية وملكية إلى مسرح الأحداث . وذهبت اللجان إلى فرسبير لسماع شهادة الشهود الذين أكدوا صدق عقيدة أهلها ورفضهم الاتهامات التى وجهها رئيس الأساقفة إليهم بأنهم مارقون . وتم إلغاء كل أنواع الحظر الكنسى المفروضة على الأهالى ؛ الأمر الذى وضع حداً للاضطهاد . وفى ١٢ أكتوبر سنة ١٥٠٢ قام لويس الثانى عشر باعتماد هذا القرار ووافق عليه أيضًا البابا ألكسندر السادس الذى تشابكت مصالحه مع مصالح ملك فرنسا . ومن جانبهم سعى الوالدنسينيون إلى إلغاء أمر مصادرة أملاكهم ولكنهم لم يفلحوا فى ذلك رغم الأوامر الملكية القاضية بإعادة هذه الأملاك إلى أصحابها . ومن جانبها امتنعت الكنيسة عن تضييق الخناق عليهم وتركتهم يعبدون الله بالطريقة التى يرونها ، حتى جاء عصر الإصلاح الدينى الذى جعل هؤلاء الوالدنسيين ينضمون تحت لواء الملة البروتستانتية المتزمتة المعروفة باسم أتباع كالفن . وفى منطقة بريانكونيس استمر إحراق المهرطقين حتى عام ١٥١٤ . ولكن الهرطقة الوالدنسينية لم تندثر إلا فى هذا العام عندما اتخذ أنتوان ويستانج أسقف أنجوليم إجراءاته الصارمة ضدها بدعم من السلطة المدنية .


LANGUEDOC IN HE 13TH CENTURY
COUNT OF TOULOUSE
DEPENDENCIES OF THE
ARMAGNAC
AGENAIS
QUERCY
ALBIGEOIS
COMMINGES
COUSERANS
SAULT
RAZÈS
ROUERGE
GÉVAUDAN
COUNTY OF PROVENCE
MARQUISATE OF PROVENCE
Marmande
Agen
Auch
Penne d'Agenais
Cahors
Moissac
Castelsarrasin
Montauban
Toulouse
Muret
Pamiers
Foix
Miropoix
Montségur
Limoux
Alet
Gaja
Laurac
Prouille
Avignonet
Castelnaudary
Verfeil
Lavaur
Puylaurens
Castres
Albi
Lombers
Carcassò
Narbonne
Béziers
Montpellier
Maguelonne
Aigues-mortes
St Gilles
Arles
Beaucaire
Alès
Uzès
Orange
Avignon
Montélimar
Valence
le Puy
Mende
Millau
Roc
Marseille
Garonne
Ariège
Hers
Tarn
Aveyron
Hérault
Rhône
miles
50
Lands acquired by the crown, 1229



The Lauragais in the Thirteenth Century

المعرب فى سطور :

معرب هذا الكتاب هو الدكتور رمسيس عوض أستاذ الأدب الإنجليزى بكلية الألسن جامعة عين شمس . ألف الدكتور رمسيس عوض عدداً من الموسوعات الرائدة مثل موسوعته البيلوجرافية عن المسرح المصرى وموسوعته عن اليهود فى الأدب العالمى ومحاكم التفتيش والرقابة وحرية التعبير . وتبلغ أعماله المؤلفة والمترجمة نجو خمسين كتاباً باللغة العربية إلى جانب أبحاثه المتخصصة فى الأدب الإنجليزى ، وهى تربو على خمسة وعشرين كتاباً وبحثاً .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧-	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨-	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر ألن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	پول ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت دينا وجون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانوبيا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	بإشراف : محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	حسن بيومى

٧٥- فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦- چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٣)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨- العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩- شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠- بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١- الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢- مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣- مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤- موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥- منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦- طول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧- نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨- الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩- الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠- وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢- أساليب ومضامين المسرح الإسبانوامريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣- محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤- مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥- مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦- ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧- هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨- الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩- تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديڤيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠- مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١- النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢- السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣- قبر ابن عربى يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤- أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥- مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦- الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧- صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩- حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠- النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١- المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢- الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

١١٣- راية التمرد	سادى پلانت	أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: روف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنيل ألكسندرو فنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	جون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى	سيدرك ثورپ ديڤى	سمحة الخولى
١٢٦- فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر	جوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيڤال (مسرحية)	ريتشارد فاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبس	على عبدالروف البمبى
١٤٧- مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٩- الأيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسبانى	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤- القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم فى التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب

١٨٩-	العمى والبصيرة: مقالات فى بلاغة النقد المعاصر	بول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١-	الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازى السيد
١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
١٩٣-	عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤-	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة (رواية)	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨-	الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	جيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١-	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدى
٢٠٥-	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهيولية تصنع علمًا جديدًا	جيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧-	ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢-	قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣-	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محيى الدين
٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوى
٢١٨-	لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتاثار	على إبراهيم منوفى
٢١٩-	بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهيولية فى الكون	بارى باركر	على يوسف على
٢٢١-	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢-	فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣-	العلم فى مجتمع حر	باول فيرابند	السيد محمد نفادى
٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد على البربرى

العنوان	المؤلف	المترجم
٢٢٧- المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩- مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠- عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١- الدراقيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢- ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣- فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى	آرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤- الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥- ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦- الولاية	ميشيل شودكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧- مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨- العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩- العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١- فى انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤- الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥- نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وآخرون	توفيق على منصور
٢٤٦- مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨- حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩- لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠- علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوڤا	حسن بيومى
٢٥٤- أقدم لك: الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥- أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦- أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨- الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١- رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢- مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	على يوسف على
٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢-	الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣-	الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	جوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤-	السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكى
٢٧٥-	ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
٢٧٧-	الچينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
٢٧٨-	البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١-	الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الروف البمبى
٢٨٤-	هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوربيديس	أحمد عتمان
٢٨٥-	رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧-	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩-	ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربى	روجر آلن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل وبيل مويرز	بدر الديب
٢٩٦-	مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩-	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢-	أقدم لك: فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣- أقدم لك: بوذا | جين هوب ويورن فان لون | إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٤- أقدم لك: ماركس | ريوس | إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٥- الجلد (رواية) | كروزيو مالابارته | صلاح عبد الصبور

٣٠٦- الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ | جان فرانسوا ليوتار | نبيل سعد

٣٠٧- أقدم لك: الشعور | ديفيد بابينو وهوارد سلينا | محمود مكى

٣٠٨- أقدم لك: علم الوراثة | ستيف جونز وبورين فان لو | ممدوح عبد المنعم

٣٠٩- أقدم لك: الذهن والمخ | أنجوس جيلاتى وأوسكار زاريت | جمال الجزيرى

٣١٠- أقدم لك: يونج | ماجى هايد ومايكل ماكجنس | محيى الدين مزيد

٣١١- مقال فى المنهج الفلسفى | ر.ج كولنجوود | فاطمة إسماعيل

٣١٢- روح الشعب الأسود | وليم ديبويس | أسعد حليم

٣١٣- أمثال فلسطينية (شعر) | خايير بيان | محمد عبدالله الجعيدى

٣١٤- مارسيل دوشامب: الفن كعدم | جانيس مينيك | هويدا السباعى

٣١٥- جرامشى فى العالم العربى | ميشيل بروندينو والطاهر لبيب | كاميليا صبحى

٣١٦- محاكمة سقراط | أى. ف. ستون | نسيم مجلى

٣١٧- بلا غد | س. شير لايموفا- س. زنيكين | أشرف الصباغ

٣١٨- الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة | مجموعة من المؤلفين | أشرف الصباغ

٣١٩- صور دريدا | جايترى اسبيفاك وكرستوفر نوريس | حسام نايل

٣٢٠- لمة السراج لحضرة التاج | مؤلف مجهول | محمد علاء الدين منصور

٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١) | ليفى برو فنسال | بإشراف: صلاح فضل

٣٢٢- وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى | دبليو يوجين كليبناور | خالد مفلح حمزة

٣٢٣- فن الساتورا | تراث يونانى قديم | هانم محمد فوزى

٣٢٤- اللعب بالنار (رواية) | أشرف أسدى | محمود علاوى

٣٢٥- عالم الآثار (رواية) | فيليب بوسان | كرستين يوسف

٣٢٦- المعرفة والمصلحة | يورجين هابرماس | حسن صقر

٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة (جـ١) | نخبة | توفيق على منصور

٣٢٨- يوسف وزليخا (شعر) | نور الدين عبد الرحمن الجامى | عبد العزيز بقوش

٣٢٩- رسائل عيد الميلاد (شعر) | تد هيوز | محمد عيد إبراهيم

٣٣٠- كل شىء عن التمثيل الصامت | مارفن شبرد | سامى صلاح

٣٣١- عندما جاء السردين وقصص أخرى | ستيفن جراى | سامية دياب

٣٣٢- شهر العسل وقصص أخرى | نخبة | على إبراهيم منوفى

٣٣٣- الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥ | نبيل مطر | بكر عباس

٣٣٤- لقطات من المستقبل | أرثر كلارك | مصطفى إبراهيم فهمى

٣٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية | ناتالى ساروت | فتحى العشرى

٣٣٦- متون الأهرام | نصوص مصرية قديمة | حسن صابر

٣٣٧- فلسفة الولاء | جوزايا رويس | أحمد الأنصارى

٣٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى | نخبة | جلال الحفناوى

٣٣٩- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣) | إدوارد براون | محمد علاء الدين منصور

٣٤٠- اضطراب فى الشرق الأوسط | بيرش بيربروجلو | فخرى لبيب

٢٤١- قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا رلكه	حسن حلمى
٢٤٢- سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٢٤٣- العالم البرجوازى الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٢٤٤- الموت فى الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٢٤٥- الركض خلف الزمان (شعر)	بونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦- سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٢٤٧- الصبية الطائشون (رواية)	جان كوكتو	بكر الحلو
٢٤٨- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٤٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٢٥٠- بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٢٥١- مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٢٥٢- قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٢٥٣- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٤- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٥- التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٢٥٦- الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٢٥٧- متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
٢٥٨- أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٥٩- محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٢٦٠- أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٢٦١- التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٢٦٢- تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٢٦٣- حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٢٦٤- حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٢٦٥- سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٢٦٦- نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٢٦٧- القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البرّاق عبدالهادى رضا
٢٦٨- المصطلح السردى: معجم مصطلحات	جيرالد برنس	عابد خزندار
٢٦٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٢٧٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٢٧١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٧٢- عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٢٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٢٧٤- اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٢٧٥- الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٢٧٦- الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	جان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٢٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٧٨- المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٣٧٩- ملك فى الحديقة (رواية) سنيل باث جمال عبدالرحمن
٣٨٠- حديث عن الخسارة جونتر جراس شيرين عبدالسلام
٣٨١- أساسيات اللغة ر. ل. تراسك رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢- تاريخ طبرستان بهاء الدين محمد إسفنديار أحمد محمد نادى
٣٨٣- هدية الحجاز (شعر) محمد إقبال سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤- القصص التى يحكيها الأطفال سوزان إنجيل إيزابيل كمال
٣٨٥- مشترى العشق (رواية) محمد على بهزادراد يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦- دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى جانيت تود ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر) چون دن بهاء چاهين
٣٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى (شعر) سعدى الشيرازى محمد علاء الدين منصور
٣٨٩- تفاهم وقصص أخرى نخبة سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى إم. فى. روبرتس عثمان مصطفى عثمان
٣٩١- الحافلة الليلكية (رواية) مايف بينشى منى الدروبى
٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية فرناندو دى لاجرانجا عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣- فى قلب الشرق ندوة لويس ماسينيون زينب محمود الخضيرى
٣٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون بول ديفيز هاشم أحمد محمد
٣٩٥- آلام سياوش (رواية) إسماعيل فصيح سليم عبد الأمير حمدان
٣٩٦- السافاك تقى نجارى راد محمود علاوى
٣٩٧- أقدم لك: نيتشه لورانس جين وكيتى شين إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨- أقدم لك: سارتر فيليب تودى وهوارد ريد إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩- أقدم لك: كامى ديفيد ميروفتش وآلن كوركس إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠- مومو (رواية) ميشائيل إنده باهر الجوهرى
٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات زياودن ساردر وآخرون ممدوح عبد المنعم
٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكنج ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣- رية المطر والملابس تصنع الناس (روايتان) تودور شتورم وجوتفرد كولر عماد حسن بكر
٤٠٤- تعويذة الحسى ديفيد إبرام ظبية خميس
٤٠٥- إيزابيل (رواية) أندريه جيد حمادة إبراهيم
٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩ مانويلا مانتاناريس جمال عبد الرحمن
٤٠٧- الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه مجموعة من المؤلفين طلعت شاهين
٤٠٨- معجم تاريخ مصر جوان فوتشركنج عنان الشهاوى
٤٠٩- انتصار السعادة برتراند راسل إلهامى عمارة
٤١٠- خلاصة القرن كارل بوبر الزواوى بغورة
٤١١- همس من الماضى جينيفر أكرمان أحمد مستجير
٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢) ليفى بروفنسال بإشراف: صلاح فضل
٤١٣- أغنيات المنفى (شعر) ناظم حكمت محمد البخارى
٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب باسكال كازانوفا أمل الصبان
٤١٥- صورة كوكب (مسرحية) فريدريش دورينمات أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر أ. أ. رتشاردز محمد مصطفى بدوى

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبى للإسكندرية	جون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى الأول	روى متحدة	أشرف كيلانى
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود علاوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باى إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سبنسر وأندزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكيافللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى	شبلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابى (رواية)	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أرونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣-	اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	أقدم لك: نظرية الكم	ج. پ. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨-	أقدم لك: علم نفس التطور	ديلان إيفانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجينانزى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥- تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥) فردريك كوبلستون محمود سيد أحمد
٤٥٦- لا تنسنى (رواية) مريم جعفرى هويدا عزت محمد
٤٥٧- النساء فى الفكر السياسى الغربى سوزان مولر أوكين إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨- الموريسكيون الأندلسيون مرثيديس غارثيا أرينال جمال عبد الرحمن
٤٥٩- نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية توم تيتنبرج جلال البنا
٤٦٠- أقدم لك: الفاشية والنازية ستوارت هود وليتزا جانستز إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١- أقدم لك: لكان داريان ليدر وجودى جروفز إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢- طه حسين من الأزهر إلى السوربون عبدالرشيد الصادق محمودى عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣- الدولة المارقة ويليام بلوم كمال السيد
٤٦٤- ديمقراطية للقلة مايكل بارنتى حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥- قصص اليهود لويس جنزبيرج جمال الرفاعى
٤٦٦- حكايات حب وبطولات فرعونية فيولين فانويك فاطمة عبد الله
٤٦٧- التفكير السياسى والنظرة السياسية ستيفين ديلو ربيع وهبة
٤٦٨- روح الفلسفة الحديثة جوزايا رويس أحمد الأنصارى
٤٦٩- جلال الملوك نصوص حبشية قديمة مجدى عبدالرازق
٤٧٠- الأراضى والجودة البيئية جارى م. بيرزنسكى وأخرون محمد السيد النتة
٤٧١- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢) ثلاثة من الرحالة عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢- دون كيخوتى (القسم الأول) ميجيل دى ثربانتس سابيدرا سليمان العطار
٤٧٣- دون كيخوتى (القسم الثانى) ميجيل دى ثربانتس سابيدرا سليمان العطار
٤٧٤- الأدب والنسوية پام موريس سهام عبدالسلام
٤٧٥- صوت مصر: أم كلثوم فرجينيا دانيلسون عادل هلال عنانى
٤٧٦- أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى ماريلين بوث سحر توفيق
٤٧٧- تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين هيلدا هوخام أشرف كيلانى
٤٧٨- الصين والولايات المتحدة ليوشيه شنج و لى شى دونج عبد العزيز حمدى
٤٧٩- المقهـــى (مسرحية) لاو شه عبد العزيز حمدى
٤٨٠- تساى ون جى (مسرحية) كو مو روا عبد العزيز حمدى
٤٨١- بردة النبى روى متحدة رضوان السيد
٤٨٢- موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية روبير جاك تيبو فاطمة عبد الله
٤٨٣- النسوية وما بعد النسوية سارة جامبل أحمد الشامى
٤٨٤- جمالية التلقى هانس روبيرت ياوس رشيد بنحدو
٤٨٥- التوبة (رواية) نذير أحمد الدهلوى سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦- الذاكرة الحضارية يان أسمن عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧- الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية رفيع الدين المراد آبادى سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨- الحب الذى كان وقصائد أخرى نخبة سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩- هُسِّرل: الفلسفة علمًا دقيقًا إدموند هُسِّرل محمود رجب
٤٩٠- أسمار الببغاء محمد قادرى عبد الوهاب علوب
٤٩١- نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى نخبة سمير عبد ربه
٤٩٢- محمد على مؤسس مصر الحديثة جى فارجيت محمد رفعت عواد

٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج في النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥-	اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديساً (رواية)	أن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضى الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المماليك	أدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرقّع (رواية)	أن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان فى علاج الإدمان	أرنولد واشنطون ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠-	الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥-	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفلْ إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١- ما الذى حدث فى «حدث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢- المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣- تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوى
٥٣٤- الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥- مخزن الأسرار (شعر)	نظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦- الثقافات وقيم التقدم	صموئيل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقى جلال
٥٣٧- للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكاوى
٥٣٨- النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	محمد الحديدى
٥٣٩- خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠- توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١- هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢- قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣- أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤- أقدم لك: ميلانى كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدى الجابرى
٥٤٥- يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦- ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧- أقدم لك: بارت	فيليب تودى وآن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨- أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩- أقدم لك: علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠- أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١- الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢- قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الرءوف البمبى
٥٥٣- مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤- مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥- الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦- أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧- أقدم لك: الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨- أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردار وبورين ڤان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩- الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠- صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١- جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢- بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣- ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤- عُش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥- الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦- تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧- الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨- الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩-	موقع الثقافة	هومی بابا	ثائر ديب
٥٧٠-	دول الخليج الفارسى	سير روبرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١-	تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣-	أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤-	مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعى
٥٧٥-	الاقتصاد السياسى للعولة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨-	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الرءوف
٥٧٩-	أقدم لك: تشومسكى	چون ماهر وچودى جروتز	محيى الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف الدولية (مج١)	چون فيزر وبول سيترجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١-	الحمقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤-	سفر (رواية)	محمود دولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥-	الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦-	السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى آرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧-	تاريخ تطور الفكر الصينى	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨-	أمنحوتپ الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩-	تمبكت العجيبة (رواية)	فيلكس ديبوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠-	أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١-	الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢-	الثورة المصرية (جـ١)	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣-	قصائد ساحرة	بول فاليرى	بكر الحلو
٥٩٤-	القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦-	الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧-	مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨-	مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩-	فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود علاوى
٦٠٠-	الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١-	النسوية والمواطنة	ريان فوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢-	ليوتار:نحو فلسفة ما بعد حداثية	چيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣-	النقد الثقافى	آرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤-	الكوارث الطبيعية (مج١)	باتريك ل. آبوت	توفيق على منصور
٦٠٥-	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦-	قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى

٦٠٧- قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨- قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩- الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠- العمارة المدجنة	رفائيل لويث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١- النقد والأيديولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢- رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣- السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤- بيت الأقصر الكبير(رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥- عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩	أليس بسيريتى	محمد رفعت عواد
٦١٦- أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧- الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨- نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩- مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠- السلام الصليبى	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١- النوبة المعبر الحضارى	وليم ى. أدمز	فؤاد عكود
٦٢٢- أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣- نوادر جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤- أزمة العالم الحديث	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر
٦٢٥- الجرح السرى	جان جينيه	محمد برادة
٦٢٦- مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧- حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨- أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩- قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
٦٣٠- سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١- مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢- المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣- الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤- مكتبة الإسكندرية	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥- التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦- حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧- مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعى
٦٣٨- الديمقراطية والشعر	روبرت بن وورين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩- فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠- ألكسياد	الأميرة أنّاكومنينا	حسن حبشى
٦٤١- برتراندرسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢- أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر وبورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣- سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤- العلوم عند المسلمين	هوارد د.تيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥- السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلى ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦- قصة الثورة الإيرانية	سپهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧- رسائل من مصر	جون نينيه	فتحى العشرى
٦٤٨- بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩- الخوف وقصص خرافية أخرى	جى دى موپاسان	سحر يوسف
٦٥٠- الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	روجر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١- ديليسبس الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢- آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣- مدرسة الطغاة (مسرحية)	إيريش كستنر	سمير جريس
٦٥٤- أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥- أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦- خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساسترى	ممدوح البستاوى
٦٥٧- محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨- حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩- قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٦٦٠- نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١- روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى
٦٦٢- رحلة إلى الجذور	داسو سالديبار	صبرى التهامى
٦٦٣- امرأة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤- الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راى هارك	عصام زكريا
٦٦٥- عوالم أخرى	بول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦- تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	وولفجانج اتش كليمن	جمال عبد الناصر ومدحت الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧- الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى	ألفن جولدنر	على ليلة
٦٦٨- ثقافات العولمة	فريدريك چيمسون وماساو ميوشى	ليلى الجبالى
٦٦٩- ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠- أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بكر	ماهر البطوطى
٦٧١- قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولدوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢- مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال	نخبة	إبتهال سالم
٦٧٣- ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوى
٦٧٤- ديوان الإمام الخمينى	آية الله العظمى الخمينى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥- أثينا السوداء (جـ٢، مج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦- أثينا السوداء (جـ٢، مج٢)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج١)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨- تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩- مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠- سنوات الطفولة (رواية)	وول شوينكا	سمير عبد ربه
٦٨١- هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	ستانلى فش	أحمد الشيمى
٦٨٢- نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكرى	صبرى محمد حسن

٦٨٣-	سكين واحد لكل رجل (رواية)	ت. م. آلوكو	صبرى محمد حسن
٦٨٤-	الأعمال القصصية الكاملة (أنا كنا) (جـ١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٥-	الأعمال القصصية الكاملة (الصحراء) (جـ٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٦-	امرأة محاربة (رواية)	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧-	محبوبة (رواية)	فتانة حاج سيد جوادى	ماجدة العنانى
٦٨٨-	الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
٦٨٩-	الملف (مسرحية)	تادووش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠-	محاكم التفتيش فى فرنسا	(مختارات)	رمسيس عوض

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٧٣٨٥ / ٢٠٠٥